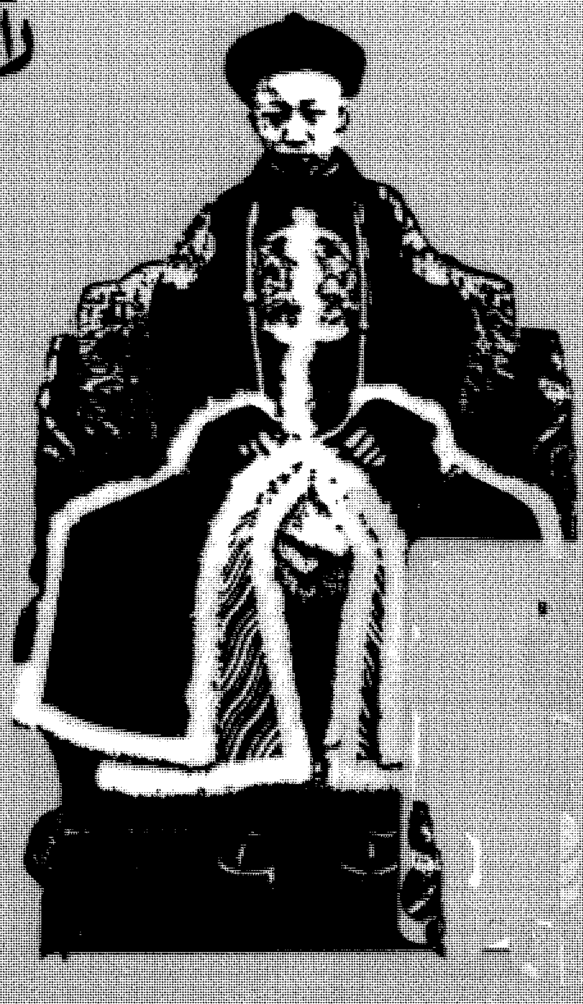
من امبراطور الى مواطن

السيرة الذاتية

لآيشين - جيولوه بويي





المجلد الأول

ان كتاب " من أمبراطور الى مواطن " يحكى السيرة الذاتية للرجل الذى كان آخر أمبراطور فى الصين ، والذى أصبح فيما بعد أمبراطورا عميلا لـ " أمبراطورية مانشوريا " الخاضعة للامبريالية اليابانية فى شمال شرقى الصين .

فى المجلد الاول من هذا الكتاب يقدم المؤلف صورة واضحة للحياة فى بلاط تشينغ المتفسخ فى أخريات أيامه ، يكشف كيف قام ، بعد الاطاحة بالأسرة ، هو والقوى الاقطاعية الأخرى بالتآمر مع السلطات الأجنبية لاعادة الملكية ، وكيف أصبح عميلا للامبرياليين اليابانيين . وفى المجلد الثانى يصف بو يى حياته فى بلاط مانشوريا ، ويتحدث كيف وقع فى قبضة الحكومة الشعبية ، ويقدم وصفا حيا لاعادة تكوين نفسه عبر العمل والدراسة داخل سجون مجرمى الحرب ، وكيف تغير تفكيره . وفى الفصل الأخير من الكتاب يصف كيف عاش بعد العفو عنه ، بوصفه مواطنا عاديا فى جمهورية الصين الشعبية .

من امبراطور الى مواطن

السيرة الذاتية

آيشين - جيولوه بويي

المجلد الأول

دار النشر باللغات الاجنبية بكين

الطبعة الأولى ...... عام ١٩٨٥

ترجمة : محمد نمر عبد الكريم

دار النشر باللغات الأجنبية
٢٤ شارع باى وان تشوانغ
بكين — الصين

طبع فى جمهورية الصين الشعبية

الفهرس

الفصل الأول

أسرتي



الامبراطورة الأرملة تسى شى (فى الوسط)



جدي لأبي يي هوان ،
الأمير تشـــون الأول



والدي تساى فنغ ، الأمير تشون الثانى

الامبراطورة الأرملة لونغ يوي



أسرة والدي من اليمين الى اليسار : والدي ، أمه ، أمه الثانية ، زوجته (أمي)



مربيتي السيدة وانغ

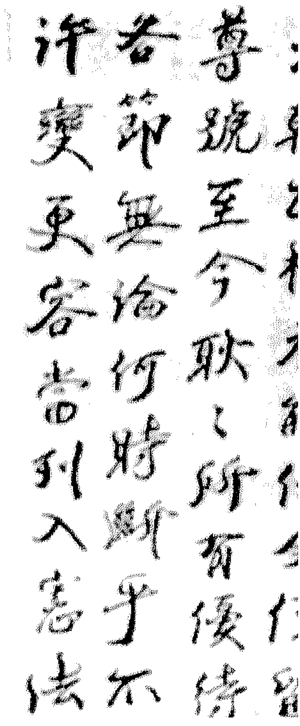


أنا في الثانية من عمري





أنا مع الامبراطورة الأرملة
لونغ يوى عام ١٩١١



تأكيد يوان شى كاى
المكتوب على بنود
المعاملة التفضيلية
(انظر صفحة ٤٢)



أنا عام ١٩١٧



الملكي تشانغ شيون



وان رونغ



فى زفافي الأول



الموكب الذى سيجلب وان
رونغ الى القصر يستعد للتحرك



جونستون فى زى اسرة تشينغ

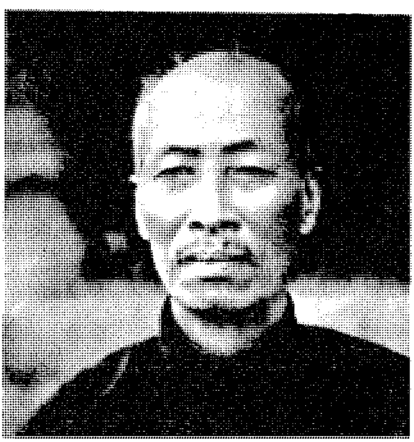


تشن باو تشن

لوه تشن يوى



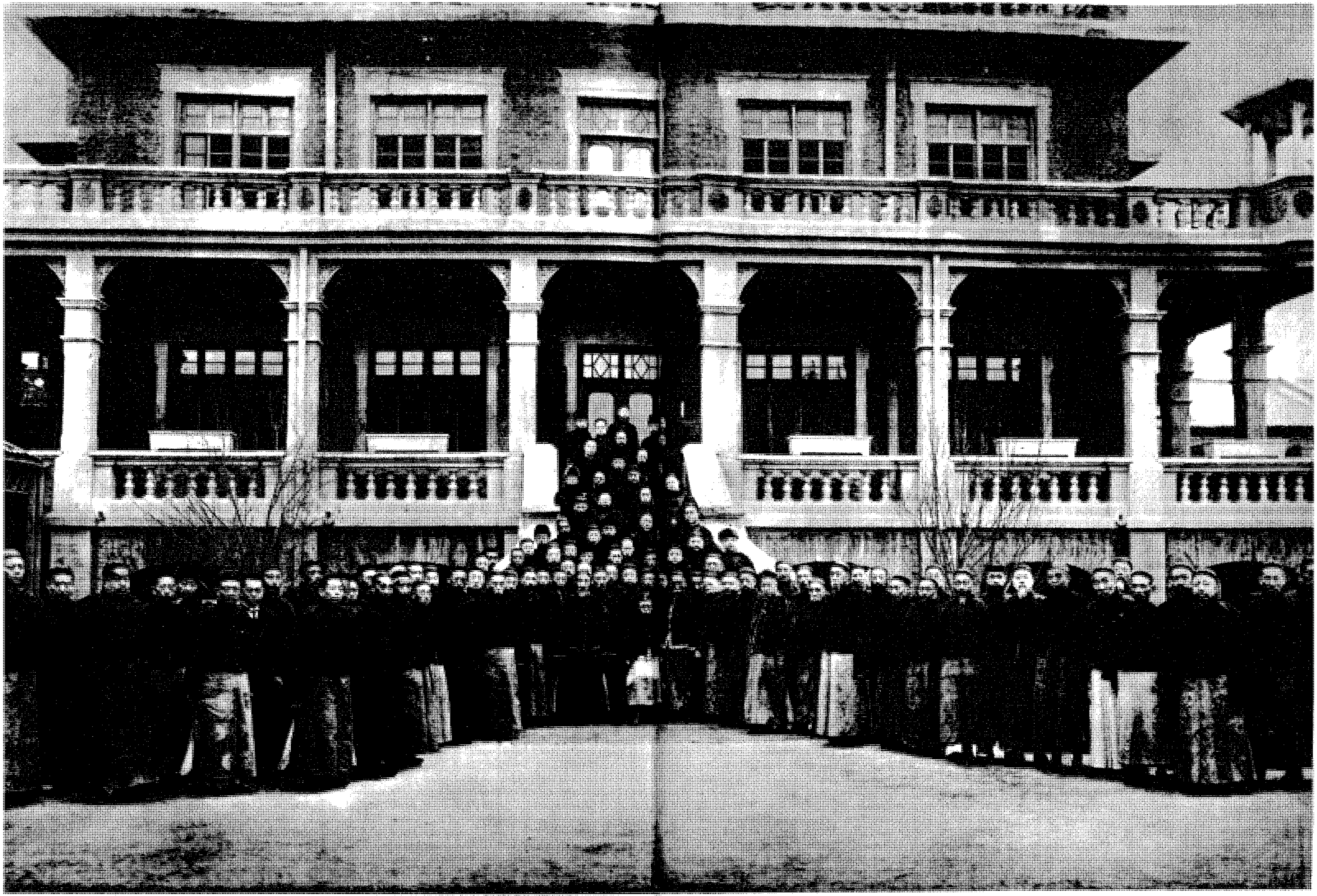
تشنغ شياو شيوى





حياتي فى تيانحين . فى
الأعلى : مع اخوتي وأخواتى ،
فى الأسفل : لعبة الغولف





المهنئون بعيد ميلادي فى حديقة تشانغ من كبار موظفى البلاط السابقين



زائرون فى عيد ميلادى . الصف الأمامى : الثالث والرابع من اليسار : وان رونغ وأنا . الصف الثانى : أقصى اليسار : أم وان رونغ . الصف الثانى : الثانى من اليسار : معلمة وان رونغ للغة الانكليزية . الصف الرابع : أقصى اليسار : ضابط الأركان اليابانى مينو تومويوش. الصف الرابع : الثانى من اليسار : الصحفى البريطانى هـ.ج.و. ودهل .



فى استعراض عسكرى بريطانى .. مصافحة القائد البريطانى فى تيانجين ر. م .هيث . يقف الى يمين الصورة قائد الحامية اليابانية تاكاتايوتاكى.

جدي الأمير تشون

ولدت فى قصر الأمير تشون ببكين فى ٧ فبراير (شباط) ١٩٠٦ . وكان جدي يي هوان ، الابن السابع للأمبراطور داو قوانغ (تولى الحكم من ١٨٢١ ـ١٨٥٠) ، وهو الأمير تشون الأول . وعلى الرغم من ان أبي تساى فنغ لم يكن الا ابنه الخامس فقد ورث عنه لقب الأمير ، اذ توفى الابن الأول والثالث والرابع فى طفولتهم ، وأخذ الثانى الى القصر الامبراطورى حيث أصبح أمبراطورا يدعى قوانغ شيوى (تولى الحكم من ١٨٧٥ ـ ١٩٠٨) . أما أنا فكنت أكبر أبناء الأمير تشون من السلالة الثانية . وعندما كنت فى الثالثة من عمري تقريبا قررت فجأة الامبراطورة تسى شى زوجة الامبراطور شيان فنغ (حكم من ١٨٥١ـ١٨٦١) فى ١٣ نوفمبر ١٩٠٨ ان تجعلنى وريثا للعرش ، بينما كانت هى والامبراطور قوانغ شيوى يعانيان مرضا خطيرا الزمهما الفراش . وأصبحت ابنا بالتبنى للأمبراطور تونغ تشى (حكم من ١٨٦٢ـ ١٨٧٤) ووريثا للأمبراطور قوانغ شيوى . وفى ظرف يومين من دخولي القصر الامبراطورى توفي قوانغ شيوى وتسى شى على التوالى . واعتليت العرش فى ٢ ديسمبر (كانون الاول) بوصفي الأمبراطور العاشر من أسرة تشينغ (١) وآخر أباطرة الصين . وقبل ان تنقضى ثلاث سنوات انفجرت ثورة ١٩١١ وتنازلت عن العرش .

ان أقدم ذكرياتي ترجع الى فترة تنازلي عن العرش ، غير ان من الأفضل ان أبدأ بالحديث عن جدي وأسرتي لتكون الأمور أكثر وضوحا .

خلال تلك الحقبة الأشد ظلاما من آواخر أسرة تشينغ ، ظل جميع افراد

عائلة الأمير تشون مدة نصف قرن الخدم المخلصين للأمبراطورة الارملة تسى شى وكان بينهم جدي الذى وقف حياته على خدمتها .

ولد جدي سنة ١٨٤٢ ومات سنة ١٨٩٠ . ويستطيع المرء لو رجع الى السجلات السلالية لكل الأسر الامبراطورية ان يرى ان جدي لم يحظ الا بقليل من درجات الشرف خلال الأحد عشر عاما من حكم أخيه الأمبراطور شيان فنغ . ولكنه أصبح مثقلا بالألقاب الرسمية خلال الأشهر الستة التالية لوفاة شيان فنغ ، بينما أصبحت تسى شى امبراطورة أرملة .

ان السبب الواضح الذى يفسر لماذا أصبح فى استطاعة شاب فى الواحدة والعشرين ان يحرز مثل هذه المكانة السامية هو ان الأمبراطورة الأرملة تسى شى هى شقيقة زوجته . ولكن هذا ليس السبب الوحيد . انني أذكر حكاية سمعتها ، وأنا صغير ، تقول ان عمي السادس قد ملأه الرعب ، وهو فى صباه ، من مشهد فظيع فى عرض مسرحي داخل القصر وأخذ فى البكاء ، وعندها صاح فيه جدي على مرأى من جميع الحاضرين : " يا للسلوك الشائن ! عندما كنت فى الواحدة والعشرين قبضت بيدي هاتين على سو شون ، لكنك اذا بقيت على هذا السلوك ، فلن تستطيع أبدا معالجة شؤون الدولة بعد ان تصبح رجلا ! " ان القبض على سو شون كان البداية الحقيقية لصعود نجمه صعودا خاطفا كالشهاب .

وقعت حادثة القبض على سو شون عام ١٨٦١ : وكانت حرب الأفيون الثانية (٢) قد انتهت بسلسلة من المعاهدات المذلة . وعندما كان الامبراطور شيان فنغ الهارب الى رخه راقدا على فراش المرض ، جمع حوله ثلاثة من كبار الموظفين وخمسة من كبار الضباط ممن صاحبوه فى هروبه ، وعين بحضورهم ولده تساى تشون فى السادسة من عمره وليا للعهد ، وألف من الحاضرين مجلسا للوصاية على العرش . وفى اليوم التالى مات الامبراطور شيان فنغ ، وتنفيذا لوصيته أجلس الأوصياء الثمانية تساى تشون على العرش ، بينما

جمعوا السلطة كلها فى أيديهم .

كان أهم الأوصياء الثمانية أميرين الى جانب سو شون الذى كان يتحكم فى كل شيء ويحظى بكراهية الأرستقراطية المانشوية لترقيته كثيرا من الموظفين من قومية الهان ولاشتهاره بالفظاظة ، والذى سقط فيما بعد لأن جماعته لم تقدر قوة الأمير قونغ حق قدرها . وكان الأخير هو الذى قدم معظم التنازلات الكريهة فى مفاوضات السلام عقب حرب الأفيون الثانية . . وقد حظى باعجاب الأجانب لتوصله الى الاتفاق على معاهدة بكين المذلة على نحو لم يسبق له مثيل . وكان يشعر بالغرور بصفته عما للامبراطور مدعوما بالأجانب ولايقبل ان يحتل مكانة ثانية بعد سو شون وجماعته ، وكان فضلا عن ذلك يحظى بتشجيع الأرستقراطية المانشوية وسائر كبار الموظفين الذين ظلوا لفترة طويلة خصوما سياسيين لسو شون . وفى ذلك الوقت بالذات أحضر الى الأمير قونغ سرا مرسوم من الامبراطورتين الأرملتين فى رخه .

وكانت احدى هاتين هى نيو هو لو زوجة الامبراطور شيان فنغ التى لقبت بعد ذلك بالأمبراطورة الشرقية تسى آن . أما الأخرى فهى الامبراطورة الغربية تسى شى . وكانت فى الأصل من جواري القصر ، ثم ارتقت عندما حبلت الى مرتبة الحليلة الثانية . ولما كان الابن الوحيد للأمبراطور شيان فنغ هو ابنها فقد أصبحت " امبراطورة أرملة " عندما خلف ابنها أباه على العرش .

لا أدرى كيف تم تدبير الأمر بحيث تقدم أحد كبار الموظفين بمذكرة طالبا من الامبراطورتين ان تمارسا سلطتهما عن طريق " الاستماع من وراء الستار " سويا بعد ان أصبحت تسى شى " امبراطورة أرملة " بمدة قصيرة . وقد أثار هذا الاقتراح أشرس معارضة لدى سو شون وزملائه من الأوصياء ، اذ لم يكن هناك اطلاقا أية سابقة كهذه فى تاريخ الأسرة . ولم تشغل هذه المعارضة بال الامبراطورة الأرملة تسى آن التى لم تكن لها طموحات ، الا انها أثارت امتعاضا شديدا لدى تسى شى . فأشعرت تسى آن فى البداية بأن

الأوصياء الثمانية متآمرون لا يستحقون الثقة ، ومن ثم توصلت الى الحصول على موافقتها لارسال رسالة سرية الى الأمير قونغ تستدعيانه فيها سرا الى القصر في رخه لمناقشتهما في كيفية مجابهة الوضع . أما الأوصياء الثمانية فقد حاولوا بكل وسيلة الحيلولة دون اتصال الأمير قونغ في بكين بالامبراطورتين في رخه دعما للسلطة الجديدة التي اكتسبوها .

وتروى قصص مختلفة حول الطريقة التي دبرت بها الامبراطورتان الأرملتان تضليل سو شون وجماعته والاتصال بالأمير قونغ . وتقول بعض الروايات ان مرسوم الامبراطورتين الأرملتين قد حمله طباخ الى بكين سرا ، بينما تؤكد روايات أخرى انه كان لتسى شى خصى مقرب يدعى آن ده هاى ، جلد للتمويه فأرسل الى بكين لينظر البلاط الامبراطوري في أمره ، مما مكنه من حمل المرسوم معه الى العاصمة . وعلى أية حال وصل المرسوم الى الأمير قونغ . وحالما تسلمه رفع طلبا لمقابلة الامبراطور . وحاول سو شون وجماعته ان يحولوا دون ذلك باصدار " أمر امبراطوري " بأن الأمر " الأكثر أهمية " ان " يبقى الأمير قونغ في موقعه " ، ولكنهم لم يفلحوا . وعندها حاول سو شون ان يمنع الأمير قونغ من الاجتماع مع الامبراطورتين الأرملتين متذرعا بتقليد قديم يحرم على الرجل ان يلتقي بزوجات أخيه ، الا انه أخفق أيضا .

وثمة روايات مختلفة حول الطريقة التي لقى فيها الأمير قونغ الامبراطورتين الأرملتين . واحدى هذه الروايات تقول ان الأمير قونغ قد تنكر في هيئة " سامان " (عراف صيني) ، بينما تقول رواية أخرى انه أحبط خطط سو شون بأن قال له ان من الملائم بالنسبة له ان يلقى زوجات أخيه بحضوره ، فاضطر سو شون الى التخلي تماما عن محاولاته ضد هذا اللقاء . وتحكي رواية أخرى انه عندما ذهب الأمير قونغ ليقدم قربانا للوح التذكاري للأمبراطور الراحل شيان فنغ أرسلت تسى شى خصيها المقرب آن ده هاى ليقدم له طاسة من المكرونة خبيء في داخلها مرسوم كتبته . ومهما تكن الطريقة التي اتبعت

فالنتيجة ان الأمير قونغ والأمبراطورتين الأرملتين قد استطاعوا الالتقاء ومناقشة كل شيء .

وعندما رجعت الامبراطورتان الأرملتان الى العاصمة منح الأمير قونغ لقبا جديدا ، وألقى القبض على الأوصياء الثمانية ،وسمح للأميرين اللذين كانا بين الأوصياء بالانتحار ، وحزت رقبة سو شون ، ونفي الآخرون او او سجنوا . وقد تغير اللقب الملكي للأمبراطور الجديد الى تونغ تشي ، وبدأ حكم تسي شي الذي استمر سبعة وأربعين عاما عن " طريق الاستماع من وراء الستار " . وكان الانجاز العظيم لجدي في هذا الانقلاب هو القاء القبض على سو شون في بانبيديان عندما كان يرافق تابوت الأمبراطور المتوفى في عودته الى العاصمة . هذا هو السبب فيما أحرزه جدي من درجات الشرف الكثيرة .

خلال حكم الامبراطور تونغ تشي ارتقى جدي سلم المجد صعدا ، حتى حصل – عندما تولى الامبراطور قوانغ شيوى العرش–على امتياز خاص يستطيع خلفاؤه بمقتضاه وراثة لقبه السامي الى الأبد ، بينما كانت الألقاب السامية تهبط في العادة درجة مع كل جيل جديد . وخلال حكم قوانغ شيوى فقد الأمير قونغ حظوته عدة مرات ، بينما ظلت درجات الشرف تغدق على جدي حتى بدا كأنه بلغ ذروة المجد الانساني .

وفي قصر الأمير تشون رأيت كثيرا من الحكم الأخلاقية مكتوبة بخط جدي ومعلقة في حجرات أبنائه وأحفاده . وكانت بينها حكمتان تقولان : الثروة والحظ السعيد يلدان المزيد من الحظ السعيد والنعم الملكية تجلب المزيد من النعم . كنت أظن آنذاك ان جدي كان راضيا عن حياته تمام الرضى. غير اني الآن أراه بطريقة أخرى ، بل أظن انه كان يقصد هدفا آخر عندما وبخ ابنه خلال العرض المسرحي .

اذا كان الأمير تشون ذو الواحدة والعشرين عاما لم تصقله الخبرة بعد ،

فلا بد ان الأمير تشون الذى عاش طوال الثلاثة عشر عاما فى عهد حكم تونغ تشى قد تعلم ما يكفيه . لابد انه كان قد عرف باعتباره عضوا فى الأسرة الملكية أكثر مما عرف الذين هم خارج الأسرة عن سر وفاة الامبراطور تونغ تشى وزوجته الامبراطورة ، ولابد ان ذلك ترك فى نفسه أثرا عميقا .

تذكر القصص الشائعة ان تونغ تشى مات من مرض تناسلى ، ولكن سبب وفاته كما سمعت هو الجدرى ، وتؤكد ذلك يوميات موظف بارز فى ذلك الوقت والجدرى ليس مرضا مميتا غير قابل للعلاج ، ولكن تونغ تشى قد تلقى ، وهو يعانى من دائه ، صدمة جعلت " بثور المرض تطفح الى الداخل " مما جعل حالته ميئوسا منها ، وأدى به الى الموت . وقيل انه فى ذات يوم حضرت زوجته الامبراطورة لزيارته وهو على فراش المرض ، وأجهشت بالبكاء وهى تسأله لماذا توبخها حماتها الامبراطورة الأرملة تسى شى وتهينها دائما . فطلب اليها تونغ تشى ان تتذرع بالصبر قائلا انها هى الأخرى سيأتى دورها ذات يوم . وكانت تسى شى التى لم ترتاح أبدا لكنتها قد بثت منذ زمن طويل خادمين لمراقبة ابنها وزوجته ، وعندما سمعت ان الامبراطورة قد ذهبت لزيارة تونغ تشى ، ذهبت هى بنفسها ووقفت خارج غرفته لاستراق السمع . ودون ان يدريا بالكارثة التى جلبتها عليهما الكلمات القليلة التى تبادلاها شاهدا تسى شى تندفع الى الغرفة مهتاجة ثائرة ، وأمسكت بالامبراطورة من شعرها وشرعت تضربها بلا رحمة صارخة بموظفى القصر أن يجهزوا العصى ، فأغمى على تونغ تشى رعبا ، فلم تستطع تسى شى ان تواصل الضرب . ومات تونغ تشى اثر ذلك ، فصبت تسى شى اللوم كله على رأس الامبراطورة ، وأصدرت أوامرها بالتضييق عليها فى الطعام والشراب فماتت بعد شهرين .

كان سرا مفضوحا خلال حياة تونغ تشى ان الامور ليست على ما يرام بينه وبين أمه تسى شى . وعندما عشت فى القصر أخبرنى خصى عجوز ان تونغ تشى كان كلما ذهب لتقديم احتراماته الى الأرملة الشرقية مكث عندها

وتحدث معها بعض الوقت . أما عند أمه فلم يكن يقول شيئا . وحتى خلال الفترة التى أصبح فيها تونغ تشى يحكم بنفسه كانت الأرملة الشرقية لا تبدى الا اهتماما ضئيلا بشؤون الدولة ، بينما جمعت تسى شى حولها مجموعتها الخاصة من المعاونين المؤتمنين من رجال البلاط ، وكان من العسير على الامبراطور ان يمضى أمرا دون طلب مشورتها اولا . وكان هذا هو السبب الحقيقى فى سوء العلاقة بين الأم وابنها . كانت تسى شى نهمة جدا بالسلطة ، ولم يكن لديها أدنى استعداد للتفريط بأية صلاحية فى يديها . وكانت وجهة نظرها ان مبادئ السلوك الاخلاقي وتعاليم الأسلاف انما جعلت لتلائم حاجاتها هى . وسواء تعلق الأمر بمن هم من لحمها ودمها ، أم بأقربائها أم بموظفى القصر ، فقد كان مبدأها واحدا هو ان الذين يسمعون ويطيعون يحصلون على الفوائد ، أما الذين يخالفون أمرها فالى البوار . وبعد وفاة الامبراطور تونغ تشى كشفت النقاب عن طبيعتها بمزيد من الوضوح ، ولعله بسبب تفهم جدي التام لشخصيتها طار لبه هلعا لدى سماعه خبر استدعاء ابنه الى القصر ليصبح امبراطورا . ولقد كتب موظف ممن حضر اجتماع المجلس الامبراطورى ذاك فى يومياته انه عندما أعلنت تسى شى ان تساى تيان هو الامبراطور القادم قوانغ شيوى " ضرب جدي رأسه ببلاط الأرض باكيا بحرارة قبل ان يتهاوى فى اعياء ، غير قادر على النهوض حتى بمساعدة الآخرين . . . "

طبقا لشريعة الأسلاف من المفروض ان يكون الأقرب من الجيل التالى لتونغ تشى وريثا له اذ ليس له ابن بعد وفاته ، ولكن هذا كان من شأنه ان ينهى وصاية تسى شى ، لانها لن تكون بعد ذلك أم الامبراطور ، وهكذا ضربت صفحا عن كل الاحتجاجات وتبنت ابن أختها تساى تيان ليكون امبراطورا على الرغم من انه من جيل تونغ تشى نفسه .

ومن ذلك الحين مر جدي بتجربة غريبة . . كانت تسى شى تغدق عليه

درجات الشرف بينما هو يجهد نفسه فى تجنبها . وعندما دخل ابنه الامبراطور قوانغ شيوى الى القصر استقال من كافة مناصبه ، ولكنه لم يستطع انكار رتبته الوراثية باعتباره أميرا . وظل واجبه الوحيد لبضع سنين بعد ذلك ان يشرف على دراسات الامبراطور . وعقب ان فقد الأمير قونغ حظوته لدى تسى شى عهدت هذه اليه بمناصب بالغة الأهمية ، غير انه ظل شديد الاحتراس يملأ بيته بالكتابات والزخارف وغيرها من الاشياء التى تذكره هو واسرته بالمخاطر التى تنجم عن الشهرة . وفى ١٨٧٦ ، السنة الثانية من حكم ابنه قوانغ شيوى، رفع مذكرته الغريبة التى يحظر فيها اى " اقتراح منافق " قد يتقدم به احد فى المستقبل لاضفاء شرف عظيم عليه باعتباره ابا للعاهل . لقد كان خائفا من ان يثير مثل هذا الشرف غيرة تسى شى ويضعه فى موقف خطير . لكن هذا ما حدث فعلا فيما بعد بحيث استشاطت الامبراطورة الأرملة غضبا ، فاضطر من قدم الاقتراح الى اعتزال منصبه ثلاث سنوات .

ليس من شك فى انه منذ دخل قوانغ شيوى القصر أصبح جدي يعرف معرفة أفضل شخصية تسى شى زوجة أخيه . لقد أصبح التنوأ بتقلباتها المزاجية أصعب خلال سنوات حكم قوانغ شيوى (١٨٧٤—١٩٠٨) . فذات مرة قال لها أحد الخصيان وهو يلعب معها الشطرنج : " ان عبدك يقتل ذلك الفارس للسلف المبجل . " فانفجرت غضبا معلنة أنها ستقتل أسرته جميعا ، وأمرت به فجر الى الخارج وضرب حتى الموت . وكانت تعتز بشعرها كثيرا ، وذات يوم كان يمشطه لها خصى فوجد شعرة واحدة منه فى المشط ، فحاول ان يخفيها وقد تملكه الهلع ، ولكنها لمحته فى المرآة ، فكان نصيبه الضرب أيضا . ولقد أخبرنى الخصيان الذين تعاقبوا على خدمتها أنهم جميعا كان يعتريهم الخوف عندما يحل دورهم فى خدمتها فيما عدا لى ليان ينغ الذى كان مقربا اليها . وعندما طعنت فى السن أصابتها اختلاجة عصبية فى وجهها كانت تكره ان يلاحظها الناس . فاذا امعن أحد الخصيان النظر اليها قليلا كانت تسأله :

فيم تحملق ؟ فيصمت الخصى لا يحير جوابا ، وعندها يدفع به الى خارج الغرفة ويضرب بالهراوة عشرات المرات . ولما سمع خصى آخر بذلك لم يكن يجرؤ على رفع رأسه لينظر اليها وهو يقوم بخدمتها ، ولكنها ثارت لذلك أيضا وسألته : " لماذا تطأطيء رأسك ؟ " فلم يستطع ان يفكر فى شيء يقوله ، فتعرض لنفس العقوبة . وفضلا عن الخصيان كانت خادمات القصر يحصلن على نصيبهن من الضرب .

ان جلد الخصيان ، بل جلدهم حتى الموت ، كان أمرا مألوفا فى بيوت الأمراء فى بكين ومن المحتمل انه لم يكن صدمة كبيرة لجدي ، ولكن من المؤكد ان الوفاة المفاجئة للأرملة الشرقية تسى آن سنة ١٨٨١ قد بدت شيئا خارجا عن المألوف حتى بالنسبة له . فقد قيل ان الامبراطور شيان فنغ قد حزر قبل وفاته ان زوجته الثانية يى (تسى شى فيما بعد) سوف تستغل وضعها ، عندما تصبح امبراطورة أرملة باعتبارها أم الامبراطور ، للسيطرة على زمام السلطة ، وآنذاك لن تكون زوجته الامبراطورة (الأرملة الشرقية فيما بعد) كفئا لها . لذلك ترك شيان فنغ أمرا أمبراطوريا مكتوبا بحبر قرمزى يعطى الامبراطورة اليد العليا فوق تسى شى عندما يكون ذلك ضروريا . وبسبب ان الامبراطورة الأرملة الشرقية العديمة الخبرة ، التى نشأت فى أسرة نبيلة وكانت تفتقر الى الحكمة الشاملة ، لم تستطع الاحتفاظ بالوصية . ومنذ اكتشفت تسى شى وجود هذا الأمر عرضا ، خصصت وقتها كله للتحايل على الامبراطورة الأرملة الشرقية ، حتى جعلتها فى النهاية تحرق وصية شيان فنغ أمام عينيها .

وبعد وقت قصير ماتت الامبراطورة الأرملة الشرقية فى القصر . قال بعضهم انها قد أكلت فطائر أرسلتها اليها تسى شى ، وقال آخرون انها شربت حساء أعدته لها تسى شى بيديها . وليس من شك فى ان الأمر كان صدمة كبيرة للأمير تشون ، اذ أصبح بعد ذلك أكثر احتراسا من ذى قبل . واضعا نصب عينيه ان اكتساب ثقة تسي شي والحظوة لديها هوواجبه الأوحد .

عندما اصبح جدي مسؤولا عن تأسيس الاسطول الحربى أساء التصرف فى كثير من الاعتمادات المخصصة لذلك ، ووجهها الى بناء القصر الصيفى — مكانا لنزهة الامبراطورة الأرملة ومتعتها . وترافقت أكثر مراحل بناء القصر الصيفى نشاطا مع حدوث فيضان هائل حول بكين فيما يعرف الآن بمقاطعة خبى . فاقتراح أحد كبار الموظفين ايقاف العمل مؤقتا تجنبا لاستفزاز ضحايا الفيضان حتى لا يندفعوا الى اثارة المتاعب . ولكن الموظف جرد من منصبه ، وأحيل الى السلطات المختصة للنظر فى شأنه . ولم يقل الأمير تشون شيئا على أية حال ، بل بذل أقصى ما فى وسعه لانجاز العمل . ومات مع الانتهاء من بناء القصر الصيفى عام ١٨٩٠ . وبعد ذلك بأربع سنوات منى ما سمى بالاسطول الذى أنشأه جدى بهزيمة فادحة قضت عليه فى الحرب الصينية اليابانية . ولم يبق الا المركب الرخامى فى القصر الصيفى الذى تكلف عشرات الملايين من تايلات الفضة .

جدي لأمي رونغ لو

كان عند جدي الأمير تشون أربع زوجات ، ولدن له سبعة بنين وثلاث بنات بقى منهم عند وفاته ثلاثة أبناء وابنة واحدة ، وكان أكبرهم أبي تساى فنغ الذى ورث عنه لقب الأمير فى الثامنة من عمره . ومنذ ذلك الحين أخذت أسرتى تنعم بألوان جديدة من " الشرف والحظوة " التى لها صلة مباشرة بتسى شى والتى هى عبارة عن متاعب واهانات عاناها الشعب الصينى .

وكان من الأحداث الكبرى ذلك الزواج الذى رتبته تسى شى لأبى ، وهو حدث يمكن النظر اليه باعتباره ثمرة للحركة الاصلاحية عام ١٨٩٨ وحركة يي خه توان (٣) عام ١٩٠٠ . ففى الدرجة الأولى كان هذا الزواج تشريفا أسبغته تسى شى على خادمها المخلص رونغ لو نظير الخدمات التى

قدمها اليها عام ١٨٩٨ ، وهو العام الذى قام فيه بدور كبير فى احباط محاولات مجموعة من الاصلاحيين لاستئصال نفوذ تسى شي وتحديث المملكة .

كان رونغ لو ، جدي لأمي ينتمى الى راية تشنغباى المانشوية ، وكان متسلقا سياسيا خبيرا لا يتورع عن أية وسيلة لكسب ثقة تسى شي والحظوة لديها . وكان صديقا حميما لخصيها المقرب لى ليان ينغ ، كما ان زوجته أجهدت نفسها فى التقرب من الامبراطورة الأرملة ، ونجحت فى ذلك ، حتى انها غالبا ما كانت تستدعى الى القصر لتتبادل معها الحديث دون كلفة . وهكذا كان جدي لأمي رونغ لو العارف جيدا بمواقع وطريقة تفكير تسى شي والمطلع على العلاقات المتردية بينها وبين قوانغ شيوى ، يدرك تماما ان ذلك قد يؤثر فى مستقبله الخاص ، واصبح بالطبع أكثر استعدادا من ذى قبل لتقديم مشورته الى تسى شي .

وعندما أصدر الامبراطور قوانغ شيوى عام ١٨٩٨ سلسلة من المراسيم ببعض الاصلاحات السياسية ، لم يكن فى وسع الآخرين ممن طردوا من مناصبهم او كانوا خائفين من اقصائهم الا ان يذرفوا دموع العجز . ولكن رونغ لو وضع بالفعل خطة لتسى شي . كان رونغ لو رأس المجموعة التى عرفت باسم "حزب الامبراطورة الأرملة" ، والتى كانت تملك السلطة ، بينما كان ونغ تونغ خه — المعلم السابق للامبراطور — يرأس حزب الامبراطور الذى لايمتلك سلطة حقيقية . وقد استطاع الاصلاحيون ان يقيموا صلة مع الامبراطور عن طريق المركز الجيد لدى ونغ تونغ خه باعتباره معلما امبراطوريا . وسارت تسى شي طبقا للخطة التى سبق وضعها ، وأجبرت قوانغ شيوى على ان يطلب من ونغ تونغ خه ان يتقاعد ويلزم منزله . وبعد بضعة أيام من رحيله من بكين منح رونغ لو لقب "الاكاديمى الاكبر" واصبح الحاكم العام فى مقاطعة جينلى (خبى حاليا) التى تقع فيها العاصمة مع توليه قيادة الجيوش المرابطة حول العاصمة .

وبقيام الحركة الاصلاحية عام ١٨٩٨ أتيحت الفرصة أخيرا أمام رونغ لو لتجريد الامبراطور قوانغ شيوى من سلطته ، واعادة البلاد ثانية الى قبضة تسى شى . وكان قد وضع خطة للقيام بانقلاب عندما تقوم تسى شى وقوانغ شيوى باستعراض جيش بييانغ (الشمالى) الجديد فى تيانجين . وعندما علم قوانغ شيوى بهذه الخطة بعث برسالة الى الاصلاحيين يطلب فيها منهم التفكير فى طريقة لانقاذه .

وضع الاصلاحيون والامبراطور ثقتهم بكل حماقة فى مساعد لرونغ لو يدعى يوان شى كاى كان مسؤولا عن الجيش الجديد الذى يعتبر قوة عسكرية حديثة ، وادخلوه فى خطتهم لاعدام رونغ لو وسجن تسى شى عندما يذهبان لاستعراض قواته فى تيانجين . ووافق يوان شى كان على التعاون معهم ، ثم خانهم وذهب من فوره الى رونغ لو وأخبره القصة بكاملها . ولدى سماع رونغ لو بذلك ركب القطار عائدا من تيانجين ، وأسرع الى القصر الصيفى ليقدم تقريرا الى تسى شى . وكانت النتيجة ان سجن الامبراطور ، وأعدم تان سى تونغ وخمسة اصلاحيين آخرين ، وهرب زعيمهم كانغ يو وى الى اليابان . وانقضت أيام الاصلاح المئة القصيرة . وطبقا لما كتبه اصلاحى آخر يدعى ليانغ تشى تشاو ، فان جدي لأمي رونغ لو " قد جمع فى يده أعلى المناصب العسكرية والمدنية ، وكانت سلطته أعظم حتى من سلطة القصر نفسه . " وجاء فى « مسودة تاريخ أسرة تشينغ » ما يلى : " لقد كسب ثقة الامبراطورة الأرملة وحبها الشديد ، ولم يكن له نظير فى ذلك الوقت . وكان كل شىء ، صغيرا أو كبيرا ، يتقرر بكلمة منه . "

ومضى رونغ لو أبعد من ذلك فى اظهار ولائه لتسى شى سنة ١٩٠٠ المملوءة بالكوارث ، حين استخدمت تسى شى رجال يى خه توان لقتل الأجانب ، ثم استخدمت بعد ذلك الأجانب لسحق يى خه توان . فبعد حركة ١٨٩٨ الاصلاحية أرادت تسى شى ان تتخلص من قوانغ شيوى . وعندما

انكشفت محاولتها لقتله تحت ستار اصابته بمرض مزعوم ، قررت ان تعين أولا خلفا للامبراطور السابق تونغ تشي قبل خلع قوانغ شيوى . ودعت جميع المبعوثين الأجانب الى القصر لتقديم تهنئتهم واظهار مساندتهم . ولكنهم جميعا رفضوا الدعوة . ومن الواضح تماما الآن ان رفضهم لم يكن مبنيا على موقف فردى من شخصية تسى شى ؛ بل كان سبب ان كلا من مفوضى بريطانيا وفرنسا وأمريكا واليابان فى الصين لم يكونوا يريدون ان يروا تناميا جامحا فى " حزب الامبراطورة الأرملة " الموالى لروسيا القيصرية . ولم تكن تسى شى تجرؤ قبل ذلك اطلاقا على استفزاز الأجانب . فعندما ذبحوا الشعب الصينى واستولوا على ثروات البلاد لم يعنها ذلك كثيرا . ولكنهم الآن اذ يحمون قائد الاصلاح كانغ يو وى ويقفون سدا أمام خططها لخلع الامبراطور وتعيين وريث جديد للعرش ، أصبحوا يعارضون حكمها مباشرة . وكان هذا فوق ما تستطيع احتماله . وقد نصحها رونغ لو بألا تستفز الأجانب تحت أى ظرف من الظروف ، بل عليها ان تفكر فى الأمور بمنتهى الروية ، وقد يكون من الأفضل ان لا تحدد تماما لقب الوريث الجديد . فأخذت باقتراحه ، وغيرت اللقب الامبراطورى الى " دا آ قه " . أما والد الوريث الذى كان يتوق الى ان يرى ابنه قد أصبح امبراطورا ، فقد تواطأ مع الأمراء وبعض كبار الموظفين على اقتراح خطة أخرى على تسى شى ، وهى ان تستخدم رجال يي خه توان المعادين للأجانب فى سحقهم ، وبذلك تضرب عصفورين بحجر واحد .

كان رجال يى خه توان يشكلون أكبر صداع للبلاط الذى لم يوفر من جانبه اى حماية لعامة الناس الذين اضطهدتهم الكنائس الأجنبية واساءت اليهم ، بل على العكس كان يشارك الأجانب فى فرض المزيد من الاضطهاد عليهم . وهكذا نشب النضال المسلح ، وتكونت حركة يى خه توان فى مختلف أنحاء البلاد تحت شعار " أبيدوا الأجانب " . وأصبحت هذه الحركة فى مجرى نضالها قوة مسلحة قوية قادرة على الحاق الهزيمة بالجحافل

التى كان البلاط يرسلها لمقاتلتهم . وكان السؤال الذى يواجه تسى شى هو : أ ينبغى لها ان تبيد رجال يى خه توان أم تستميلهم اليها . وكانت داخل البلاط مجموعة تضم والد ولي العهد تدافع عن فكرة مصالحتهم لبعض الوقت ، حتى يمكن استخدامهم لطرد الأجانب الذين كانوا يتدخلون فى ولاية العهد . وكانت هناك مجموعة أخرى تعارض هذه الفكرة تماما اعتقادا منها بأن من شأنها ان تؤدى الى عواقب وخيمة ، وكانت تدعو الى ضرورة استئصال شأفة يى خه توان .

وقد وصل مؤيدو كل من السياستين الى طريق مسدود ، وفى ذلك الوقت تسلمت تسى شى تقريرا عاجلا وغير مؤكد من المخابرات يفيد بأن أعمال العنف التى يقوم بها الأجانب فى أنحاء مختلفة من البلاد تهدف الى اجبارها على اعادة السلطة الى الامبراطور . وقد وضع هذا حدا لترددها ، فأمرت فى غضب عارم بالعمل على "مصالحة" يى خه توان ومهاجمة البعثات الأجنبية وثكناتها فى بكين . وحولت اموالا من المخصصات الامبراطورية الى يى خه توان ، كما قدمت مكافآت الى كل من يقطع رأس أجنبى . ولمزيد من الافصاح عن عزمها قامت بقطع أعناق عدد من الذين دعوا الى ابادة رجال يى خه توان .

وعندما أخفق الهجوم على البعثات الأجنبية وسقطت الدفاعات الساحلية فى داقو وتيانجين ، وأخذت جيوش الأجانب المتحالفة تقترب من بكين ، غيرت تسى شى تكتيكاتها ، فبدأت الاتصال بالأجانب سرا وأوفدت رسلها لفتح خط الاتصال مع البعثات الأجنبية ، والقتال ما يزال دائرا . وعندما سقطت بكين هربت الى شيآن ، وحتى تظهر انها لم تكن راضية فى البداية عن مقاومة الأجانب قطعت رؤوس عدد من كبار المؤيدين لسياسة "المصالحة" مع يى خه توان .

خلال كل هذه التقلبات السياسية بذل رونغ لو كل ما فى وسعه ليبقي

نفسه بعيدا عن المتاعب ، فلم يعارض أبدا رغبات تسى شى التى قنن سلوكه تبعا لتقلباتها ، وكان فى نفس الوقت يهيء لها خطوط الرجعة . فعندما أطاع أوامرها بارسال الجنود لمهاجمة ثكنات القوات الأجنبية فى حى البعثات الدبلوماسية لم يوزع عليهم قذائف المدفعية ، بل وأرسل الفواكه الى الأجانب فى كتمان وحذر واعرب لهم عن قلقه عليهم . وعقب دخول جيوش الدول الأجنبية الثمانية الى بكين وهروب تسى شى اقترح رونغ لو مبدأ وحيدا يجب ان يتمسك به المندوبون المسؤولون عن التفاوض من أجل السلام ، وهو : امكان قبول اى شرط مادام لا يحمل تسى شى مسؤولية الأمر ولا يعيد الامبراطور الى السلطة . وهكذا وقعت سنة ١٩٠١ اتفاقية الزمت الصين بدفع تعويضات قدرها مليار تايل فضة مع فوائدها . وسمحت للدول الأجنبية بابقاء قوات فى العاصمة . وقد كوفىء رونغ لو على هذه الخدمات بكثير من التشريفات الجديدة ، وكان من بينها الزواج الذى رتبته تسى شى بين ابنته والأمير تشون من السلالة الثانية .

وفيما بعد أخبرنى بعض المسنين من أهل البيت ان تسى شى قد خططت لزواج والدي بترو شديد . فقد كانت تسى شى تستريب نوعا ما فى أسرة الامير تشون منذ الحركة الاصلاحية عام ١٨٩٨ ، وكانت قد اصغت الى زعم يقول ان نمو شجرة جنكة عالية (شجرة المعبد) فوق قبر الأمير تشون الأول يعنى ان امبراطورا سيخرج من اصلابه ، باستغلال المجانسة بين اسم الشجرة والكلمة الصينية التى تعنى "أمير" . وما ان سمعت تسى شى بذلك حتى امرت بقطع الشجرة . غير ان السبب الحقيقى فى ريبتها كان الاهتمام الذى يظهره الأجانب بقوانغ شيوى وأسرته . فقبل أحداث سنة ١٩٠٠ كانت تشعر بأن الأجانب المزعجين لم يكونوا مؤدبين معها كثيرا . وعقب الأحداث طلب قائد الجيوش المتحالفة من شقيق الامبراطور ان يذهب الى ألمانيا مندوبا لتقديم الاعتذار عن قتل المفوض الألمانى خلال الاضطرابات . وقد تسبب الاستقبال الفخم الذى اختص به القيصر الألمانى والدي فى اثارة قدر كبير

من عدم الارتياح لدى الامبراطورة الأرملة وفي تقوية ريبتها وكان ربط تابعها الأمين رونغ لوبأسرة الأمير تشون من خلال الزواج هو الحل الذى اهتدت اليه أخيرا لهذه المشكلة الخطيرة . لقد كانت تسى شي مستعدة لالحاق أكبر ضرر بمن يسبب أدنى تهديد لأمنها . وقد أمرت باغراق زوجة قوانغ شيوى البالغة الجمال فى بئر قبل هربها سنة ١٩٠٠ خوفا من أنها قد تسبب لها بعض المتاعب فيها بعد . وكانت فى كافة الظروف تضع فى اعتبارها الأول دائما حماية سلطتها الشخصية . وهكذا تسلم أبي الأمر بترتيب زواجه فور عودته تقريبا من ألمانيا ، وتقديمه تقريره عن " الاستقبال المتسم بالمجاملة " الذى لقيه هناك :

قرار تسى شي

كان والد ولى العهد واحدا ممن تحملوا المسؤولية عن اضطرابات عام ١٩٠٠ ، ولذلك جرد ابنه من اللقب . ولم تطرح مسألة ولاية العهد صراحة بعد ذلك طوال سبع سنوات .

وفى نوفمبر ١٩٠٨ أصيبت تسى شي بالزحار بينما كانت تحتفل فى القصر الصيفى بعيد ميلادها الثالث والسبعين . وبعد ان رقدت على فراش المرض عشرة أيام قررت فجأة ان تعين وليا جديدا للعهد . وخلال اليومين التاليين مات الامبراطور قوانغ شيوى ، وماتت هى أيضا . وقبل وفاة الامبراطور بيوم استدعى أبي الى القصر وعين أميرا وصيا وأخذت أنا الى القصر . وفى اليوم التالى أصبحت امبراطورا تحت الوصاية ، وأعلنت تسى شي فى أمرها بأن على أبي ان يستشيرها فى ادارته لكل شؤون الدولة .

كانت تسى شي فى السنوات القليلة السابقة تضع سلطات متزايدة على الدوام بين يدى يوان شي كاي الموظف الهاني الموثوق به ، والذى قام بدور رئيسى

فى هزيمة الاصلاحيين عام ١٨٩٨ . ولكن سيطرته على جيش بيبانغ وانتهازيته قد سببتا لها فى الوقت نفسه كثيرا من القلق . وكانت تقلقها كذلك العلاقة الوثيقة بين يوان شى كاى والأمير تشينغ (يى كوانغ) ، هو مانشوى طموح بدأ نبيلا من الدرجة الدنيا ، ثم أصبح أميرا من الطبقة الأولى ومستشارا أعلى لدى البلاط . وفى محاولة لكبح نفوذهما سعت تسى شى عبثا لاستبعاد الأمير تشينغ . وفى عام ١٩٠٧ رقت يوان شى كاى ترقية اسمية جعلته يتخلى عن قيادة جيش بيبانغ .

كانت تسى شى تدرك تماما أنها لا تستطيع أن تنهى دفعة واحدة سيطرة يوان شى كاى الفعلية على جيش بيبانغ ، ولا تستطيع فى لحظة واحدة تحطيم العلاقات بين يوان والأمير تشينغ . وقد وقعت هى نفسها طريحة المرض تماما حينما كانت تخطط لخطوتها التالية . وعلى فراش مرضها تلقت أنباء مزعجة مفادها أن يوان شى كاى يخطط لخلع قوانغ شيوى ووضع ابن الأمير تشينغ مكانه . وعلى الرغم من مهارة الأمير تشينغ فى التعامل مع الأجانب وفى تملقها ، وعلى الرغم من كل ما صنعه يوان شى كاى لها ، بل على الرغم من أن هدف خطتهما كان الامبراطور قوانغ شيوى الذى تكرهه أشد الكراهية ، الا انها أدركت فورا الخطر الذى تمثله هذه المؤامرة على أسرة آيشين — جيولوه وعليها شخصيا . لذلك اتخذت قرارها فى منتهى العجلة . فأرسلت الأمير تشينغ فى مهمة خارج العاصمة ، ونقلت وحدة من جيش بيبانغ الى خارج بكين ، وأحلت محلها وحدة أخرى يمكن الاعتماد عليها أكثر من سابقتها . وعندما رجع الأمير تشينغ الى بكين كنت أنا قد أصبحت وليا للعهد بالفعل ، وكان أبي قد عين أميرا وصيا . وحفاظا على ولاء الأمير تشينغ الذى كان له كثير من الأصدقاء الأجانب جعلت تسى شى لقب الامارة وراثيا فى أعقابه الى الأبد .

ولقد سمعت ذات مرة من خصي عجوز عن الظروف المريبة لموت قوانغ شيوى ، وطبقا لروايته كان قوانغ شيوى فى حالة جيدة نوعاما فى اليوم

السابق لوفاته ، وان الذى جعل مرضه خطيرا هو جرعة من الدواء تعاطاها : وقد اكتشف فيما بعد ان هذا الدواء أرسله يوان شى كاى . كان الاجراء العرفى المتبع عندما يمرض الامبراطور ان يعطى كل من كبار الموظفين فى ادارة أسرة تشينغ الوصفات نفسها التى يقررها كبار الأطباء بعد التشخيص كل يوم . وفى حالات المرض الخطير توزع هذه الوصفات على جميع أعضاء مجلس البلاط . ولقد علمت فيما بعد من سليل لأحد موظفى ادارة أسرة تشينغ أن قوانغ شيوى لم يكن يعانى قبل وفاته الا من انفلونزا عادية ، وانه اطلع على التشخيص بنفسه ، وكان التشخيص يقول ان نبض قوانغ شيوى عادى . وأكثر من هذا أنه شوهد فى حجرته واقفا يتحدث كما لو كان سليما ، ولذلك دهش الناس بشدة عندما سمعوا بخطورة مرضه . والأكثر غرابة أنه فى ظرف أربع ساعات جاءت الأخبار بوفاته . لقد كانت وفاة قوانغ شيوى مريبة حقا كل الريبة . واذا كانت رواية الخصى صحيحة ، فذلك دليل آخر على أن هنا تآمرا . . تآمرا خفيا جدا بين يوان شى كاى والأمير تشينغ .

ومن المأثور أيضا أن تسى شى قد اغتالت قوانغ شيوى عندما تحققت من أن مرضها مميت ، وذلك حتى لا تموت قبله . وهذا محتمل ولكننى لا أعتقد بأنها كانت تظن أنها مريضة مرضا مميتا فى اليوم الذى عهدت فيه الي بولاية العهد . فبعد وفاة قوانغ شيوى بساعتين أمرت والدي ، الأمير الوصى ، قائلة : " عليك أن تدير شؤون الدولة وفقا لتعليماتي " . ولم تقل الا بعد ذلك بيوم : " ان حالتي الآن خطيرة وأخشى ألا أشفى أبدا . وفى المستقبل سيقرر الوصي كافة الشؤون المتعلقة بالدولة . واذا كانت هناك أمور هامة تستدعى توجيهات من الامبراطورة الأرملة الجديدة (زوجة قوانغ شيوى التى كانت ابنة اخيها) فسيظهر الأمير الوصى أمامها ، ويسألها عن تعليماتها قبل أن يتصرف فيها . " والسبب فى اختيارها وصيا مثل أبي ووليا للعهد مثلي هو أنها لم تكن تدرك فى ذلك الوقت أنها فى طريقها الى الموت . انها لم تكن

تستطيع بوصفها الامبراطورة الأرملة الجدة (اللقب الذى يعطى لجدة الامبراطورة) أن تمارس سلطتها عن طريق " الاستماع من وراء الستار " ، ولكنها كانت تستطيع أن تظل قابضة على كل شيء عن طريق وصي طيع بينها وبين الامبراطور الطفل .

وبالطبع لم تكن تخالجها الأوهام بأنها ستعيش أبدا . ولا بد أنها حسبت أنها بقرارها هذا قد فعلت كل ما تستطيع حماية عرش آيشين-جيولوه ، بل ربما ظنت أن قرارها هذا صحيح لأن الوصى الذى اختارته كان أخا لقوانغ شيوى . ومن الطبيعي تماما الاعتقاد بأن رجلا من هذا الطراز لن ينخدع بيوان شى كاى .

وصاية أبى

لم أعرف أبي الا فى نهاية السنوات الثلاث التى كنت فيها امبراطورا ، وكان هو وصيا . وذلك حينما جاء للتفتيش على دراستي بعد أن بدأتها بوقت قليل . وعندما دخل أحد الخصيان ليعلن أن " سموه الملكي " فى الطريق ، اضطرب معلمي جدا ، وأخذ يرتب المكتب بسرعة ويشرح لي كيف ينبغى ان أتصرف معه . ثم طلب منى ان أقف وأنتظر . وبعد لحظة ظهر من مدخل حجرة الدراسة رجل غريب حليق اللحية وفى قبعته ريشة طاووس ووقف جامدا أمامي . كان هذا هو أبي . حييته بالطريقة المتعارف عليها ثم جلسنا معا . وتناولت كتابي وبدأت أقرأ بصوت عال كما علمني معلمي .

وبعد جملتين اضطربت نظرا لانفعالى ، ولكن من حسن الحظ أن والدي كان أكثر ارتباكا منى ، وظل يهز رأسه مطرقا مغمغما : " جيد ، جيد ، جيد جدا ، يا صاحب الجلالة . اجتهد فى الدراسة ، اجتهد فى الدراسة." ثم هز رأسه عدة مرات ونهض واقفا ، ثم انصرف . وقد ظل معي دقيقتين

فقط :

وهكذا عرفت الآن شكل أبي : لم تكن له ــ بخلاف معلمي ــ لحية ، ووجهه يخلو من التجاعيد ، وكانت ريشة الطاووس فى قذاله تهتز دائما . لقد دأب على زيارتنا مرة كل شهرين ولكنه لم يكن يبقى معي أكثر من دقيقتين . واكتشفت أيضا أن به شيئا من التهتهة فى الكلام ، وأدركت أن السبب فى اهتزاز ريشة الطاووس أنه دائما يهز رأسه مطرقا . ولم يكن يقول الا كلمات قليلة مثل " جيد ، جيد ، جيد ! " وكانت كلمته الأخرى مبهمة جدا .

لقد سمع أخي ذات مرة أمي تحكى أنه عندما استقال أبي من الوصاية عقب ثورة ١٩١١ (٤) عاد الى البيت مباشرة ، وقال لها : " منذ اليوم أستطيع أن أبقى فى البيت وألازم أطفالي . " وغضبت أمي لما كان عليه من خفة الفؤاد حتى لقد أجهشت بالبكاء . وفيما بعد قالت لأخي : " لا تكن كأبيك عندما تكبر " . ان هذه القصة وبيتين من الشعر كتبهما أبي ذات مرة : ان تمتلك الكتب تكن ثريا . . . وان كان لك فراغ فأنت بوذا صغير " . . يدلان أنه لم يكن لديه رغبة أصيلة فى " اعتزال العالم " ، فقد كان يعتبر أن سنوات وصايته الثلاث كانت شدة عظيمة . فهذه السنوات يمكن أن تعد أكثر سني حياته اخفاقا .

وكان أعظم اخفاق أساسى له ــ من وجهة نظره ــ عجزه عن التخلص من يوان شى كاى . وهناك رواية تقول ان أخاه قوانغ شيوى فاتحه برغبته القلبية ، وهو مشرف على الموت وأعطاه أمرا مكتوبا بالحبر القرمزى من أربع كلمات " اقتل يوان شى كاى " . ولكن هذا اللقاء ــ فى حدود ما أعلم ــ لم يقع . وعلى الرغم من أن الأمير الوصي أراد أن يقتل يوان انتقاما لأخيه ، الا أن مجموعة من كبار رجال البلاط على رأسها الأمير تشينغ منعته من ذلك . وليس ثمة سبيل لمعرفة تفصيلات ذلك . ولكن هناك ملاحظة واحدة أبداها الأمير

تشينغ ثبطت عزيمته " لا مشكلة فى قتل يوان شى كاى ، ولكن ماذا يحدث اذا تمرد جيش بيبانغ ؟ " وكانت النتيجة أن الامبراطورة الأرملة الجديدة لونغ يو تركت يوان طليقا وارسلته الى موطنه ليعتنى بعلاج " قدمه المريضة " .

فى ذلك الوقت قدم كثير من الناس لأبي نصائح متضاربة حول التعامل مع يوان شى كاى . فبذل بعضهم أقصى الجهود للدفاع عنه ، وحاول آخرون تصفيته . ان مسألة قتل يوان أو مساندته لم تكن مسألة صراع بين الاصلاحيين والمحافظين ، أو بين " حزب الامبراطور " و" حزب الامبراطورة الأرملة " ، كما لم تكن مسألة صراع بين المانشوريين من جانب والهانيين من الجانب الآخر ، بل كانت بالأحرى صراعا على السلطة بين فريقين من النبلاء وكبار الموظفين . وكان مجلس البلاط فى ذلك الوقت المؤلف فى أغلبيته من العائلة المالكة منقسما الى فريق يرأسه الأمير تشينغ ، وفريق آخر يرأسه الشريف تساى تسه . وكان الفريق الأخير هو الذى اقترح السياسات على والدي بهدف الوصول الى السلطة . وكان أبي محصورا بين الفريقين ، يأخذ مرة بنصيحة الفريق الأول ، ومرة بنصيحة الفريق الثانى ، متفقا مع كليهما ولكن دون أن يرضى أحدا .

وكان التعامل مع الأمير تشينغ وتساى تسه أصعب . كان الأمير تشينغ قبل وفاة تسى شى كبير أعضاء مجلس البلاط ، وبعد وفاتها أصبح الوزير الأول فى مجلس الوزراء الذى تم تشكيله لأول مرة مما أثار نقمة تساى تسه رئيس ادارة الواردات والمالية ، الذى كان يغتنم كل فرصة للنيل من منافسه أمام الأمير الوصى . ولكن اذا كانت تسى شى قد عجزت عن ازاحة الأمير تشينغ ، فكيف تسنح للأمير الوصي فرصة لذلك ؟ وهكذا فعلى الرغم من موافقة أبي غالبا على اقتراحات تساى تسه فقد كان عاجزا عن العمل بمقتضاها ، بل وبقى الأمير تشينغ يعمل مستبدا برأيه . ان هزائم تساى تسه كانت هزائم حقيقية لأبي شخصيا ، أما انتصارات الأمير تشينغ فكانت فى حقيقتها

انتصارات ليوان شي كاي الذي كان يعيش في موطنه في حالة تقاعد صوري ؛ وعلى الرغم من أن أبي كان على معرفة بذلك الا أنه لم يفعل شيئا حياله .

عام ١٩١١ نشبت فجأة انتفاضة ووتشانغ (٥) ، وهزمت الجيوش التى ارسلت بأمرة قائد من المانشو لاخمادها . واستدعى أبي يوان شي كاى من تقاعده تحت ضغط شديد من الأمير تشينغ وجماعته ، وسلمه القيادة العسكرية العليا .

لم يكن أبي أحمق تماما . فمن خلال رحلته الى ألمانيا تعلم من القيصر الالمانى درسا ثمينا ، ألا وهو أن على الأسرة المالكة أن تسيطر على الجيش ، وأن على أفرادها أن يصبحوا ضباطا فيه . وتطبيقا لذلك عهد الى أخيه بمسؤولية حرس القصر ، وأسس جيشا خاصا تابعا للأسرة المالكة ، وعهد الى أقارب آخرين بمسؤولية الاسطول والأركان العامة . ويقال ان أبي كان يعتزم تصفية يوان شى كاى سواء نجح فى اخماد الانتفاضة أم لم ينجح . وعلى أية حال لم يكن ينوى أن يترك قيادة القوات المسلحة فى أيدى هانيين أقوياء ، أو على الأقل فى يد يوان شي كاى . غير أن خطط أبى لم تكن عملية اطلاقا ؛ وحتى اخوته أنفسهم كانوا يهزون رؤوسهم أسفا لعجزه .

وحدث ذات مرة أن أصيبت جدتي بقرحة فى صدرها عجز الأطباء التقليديون عن علاجها ، فاستدعى أبي ، بناء على نصيحة اخوته ، طبيبا فرنسيا . وأراد هذا الطبيب أن يعالجها جراحيا ، ولكن الأسرة بكاملها عارضته . وكان الشيء الوحيد الذى استطاع فعله هو أن يضع لها مرهما . وقبل أن يضع المرهم أشعل موقدا كحوليا ليعقم أدواته ، فأثر ذلك فى أبي خوفا هائلا وسأل المترجم :

ـــ آها . . ماذا يفعل ؟ هل يحرق السيدة العجوز ؟

ولما رأى أحد أعمامي مبلغ جهله أومأ الى المترجم ألا يترجم هذا السؤال . وترك الطبيب لها بعض الدواء وانصرف . وقد أدهشه فى الزيارة التالية عدم

تحسن حالة السيدة العجوز اطلاقا ، فطلب أن يرى علبة المرهم التى تركها فى المرة السابقة . فأحضرها أبي بنفسه ، واذا بغطائها لم يفض . ومرة أخرى لم يتمالك أعمامي عن هز رؤوسهم والتنهد أسفا .

كان كل واحد فى بيت أبي يعتبر نفسه—بعد موت تسى شى — اصلاحيا . ومن تفصيلات حياة أبي اليومية يستطيع المرء أن يرى كيف أنه كان الى حدما يعارض الخرافة ويقف فى صف الحداثة . فلم يعارض تلك الأشياء التى كان الموظفون القدامى يرونها بدعا غريبة غير صحيحة ، وكان أول من امتلك بين الأمراء سيارة وأدخل الهاتف الى بيته ، وكان أهل بيته أول من قصوا ضفائرهم ، وكان هو أول الأمراء والنبلاء فى ارتداء الزى الغربى . ولكن مدى فهمه الحقيقى لطريقة استخدام هذه الأشياء يمكن استشفافه من طريقة ارتدائه الزى الغربى . فقد سأل أخا لي فى حزن : " لماذا قمصانك مناسبة تماما بينما قمصاني دائما أطول من سترتي ؟ " وعندما نظر اليه أخي وجده يلبس قميصه خارج بنطاله ، وأنه ظل أياما يلبس بهذه الطريقة غير المريحة .

وقد طرد بعض الساحرات اللاتى جئن لعلاج مرض أصاب جدتي ، ورفس الى البالوعة ذات مرة قنفذا كان الخدم يحملونه فى رعب كشيء مقدس ، ولكن وجهه شحب بعد ان فعل ذلك شحوب الموت . وكان ضد عبادة الآلهة والتراتيل البوذية . ولكنه كان فى كل مرة يحل فيها عام جديد أو أحد الاحتفالات يهتم اهتماما بالغا باشعال البخور وتقديم القرابين .

لقد تصفحت يوميات أبي على أمل أن أفهم سنوات وصايته الثلاث . ولم أجد فيها معلومات كثيرة الا نوعين ممتعين من التدوينات . أولهما يشير الى السلوك التقليدى . . فكان مثلا كلما حل أيار يكتب دائما " فلأقصر شعري كالمعتاد " ، وكلما حل أغسطس يكتب " ولينمو شعرى كالمعتاد " . وكانت هناك أشياء أخرى يكتبها عن الملابس التى ارتداها فى أوقات مختلفة من العام طبقا للعادة وعن الأطعمة الطازجة التى أكلها . والنوع الآخر الممتع

من التدوينات كان تسجيلات تفصيلية لحركات الاجرام السماوية وملخصات لما تنشره الصحف فى علم الفلك . كان ثمة تناقض حاد بين تفاهات حياته اليومية وحماسته لعلم الفلك . ولو أنه كان رجلا من زماننا لأمكن أن يصبح فلكيا . ولكنه عاش فى تلك الأسرة فى ذلك المجتمع وأصبح أميرا من أمراء الأسرة المالكة فى سن التاسعة .

أسرة أمير

كانت لي أربع جدات . وقد ماتت قبل ولادتي بعشر سنوات السيدة يهونالا الزوجة الرئيسية للأمير تشون الأول التى لم تكن جدتي الحقيقية . وقيل لى ان هذه السيدة العجوز لم تكن على الاطلاق تشبه أختها تسى شى ، اذ كانت شغوفة بالتمسك بقواعد الفضيلة التقليدية . فحينما استمرت تسى شى فى مشاهدة العروض المسرحية كلمعتاد بعد وفاة الامبراطور تونغ تشى لم تفعل هى ذلك . وعلى الرغم من أنها أطاعت الأوامر باستدعائها الى القصر لمشاهدة العروض فقد أبقت عينيها مغمضتين باحكام وهى تجلس أمام المسرح ، وعندما سألتها تسى شى عن السبب أجابت دون أن تفتح عينيها : " هذا وقت حداد وطنى ، فأنا لا أستطيع مشاهدة المسرحيات . " وقد أربكت هذه الاجابة تسى شى . وكانت هناك كثير من الكلمات محرمة لديها . وكان على أفراد بيتها أن يلتزموا الحذر الشديد فى حديثهم معها ، خصوصا بصدد كلمات مثل : " انتهى " أو " ميت " . وكانت خلال حياتها بوذية ورعة ، ولم تكن تذهب الى الحديقة فى الصيف قائلة انها تخشى أن تطأ أية نملة فتقتلها . ولكن على الرغم من أنها كانت عطوفة على النمل الى هذا الحد ، فقد كانت عديمة الرحمة عندما يتعلق الأمر بضرب خدمها . ويقال ان الرعشة اللاارادية فى وجه أحد الخصيان ، والتى تعذر علاجها ، كانت نتيجة جلده

بالسياط بأمر منها :

وكان لها اربعة ابناء وبنت . وقد ماتت البنت ولحقها أكبر الابناء فى ظرف عشرين يوما . وكان ابنها الثانى هو الامبراطور قوانغ شيوى ، وقد أخذ منها فى سن الرابعة الى القصر ، وبعد ذلك أنجبت ولدا آخر لم يعش يومين . وعندما ولد ابنها الرابع قلقت عليه أشد القلق ، فكانت تخشى ألا يرتدى ملابس كافية فيتجمد من البرد ، أو يأكل كثيرا فيتخم . وكانت جدتي هذه تؤمن بفائدة الصوم يوما كاملا فى بعض الاحيان ، ولم تكن ابدا تسمح له بأن يأكل حتى يشبع . يقال انها كانت تقطع الجمبرى الواحد ثلاث قطع ، ثم تعطيه قطعة منها لكل مرة . وكانت النتيجة أن هذا الولد الرابع مات من نقص التغذية قبل أن يصل الى سن الخامسة . وكما لاحظ خصى عجوز ، " لو لم تكن جدتي قد قتلت أولادها بالعطف الزائد لما تمكن أبي اطلاقا من أن يرث لقب جدي . "

ووفقا للتشريع السلالى كانت هذه الجدة مسؤولة عن تنشئة أبي على الرغم من أنه لم يكن ابنها . وكانت لها سيطرة ادبية عليه وعلى اخوته الصغار على الرغم من أنها لم تكن لها السيطرة على نظام تغذيتهم . وقد قال الخصى الذى أشرت اليه سابقا انه كان عليهم أن يتحلوا بالحذر حتى عندما يبتسمون امامها ، فقد كانت السيدة تصيح فيهم اذا تحولت ابتساماتهم الى ضحكات : " لماذا تضحكون ؟ ما عندكم اداب ؟ "

ماتت زوجة جدي الأولى منذ زمن بعيد ، وكانت زوجته الثانية هى جدتي الحقيقية . وقد صارت المسؤولة عن البيت بعد وفاة زوجة أبي الأولى . وعلى الرغم من أنها لم تكن متزمتة كضرتها ، الا أنها لم تكن مستقرة عقليا ، وذلك بسبب المصير الذى آل اليه أولادها وأحفادها . فقد فقدت ابنة عمرها عامين ولكن الذى خلخل عقلها بادىء ذى بدء أن أولادها كانوا يؤخذون منها . لقد أنجبت ثلاثة أولاد كان أبي أكبرهم . ونشأ ثالثهم تساى تاو فى حضانتها .

وعندما اصبح فى الحادية عشرة تسلمت أمرا من الامبراطورة الأرملة تسى شى بأن يكون هذا الولد ابنا بالتبنـــى ليى مو ، أحد أبناء عم جدي وكانت هذه صدمة كبيرة اخلت باتزانها وجعلتها دائمة البكاء .

وبالطبع طاريى مو — الذى لم يكن لديه أولاد — فرحا عندما وهب غلاما ، وأقام وليمة عظيمة احتفالا بالحادث تماما كأنه ولد له طفل . ولم يكن يى مو ماهرا فى التزلف الى تسى شى مما كان يثير استياءها . وعندما علمت كيف استخفه الفرح زادت انزعاجا منه وقررت بألا يستمر انعامها عليه . ويقال انها كانت تردد دائما : " ان سبب لي أحد لحظة أسف فسوف أهبه الشقاء مدى الحياة . " اما يى مو فقد نفس عن مشاعره نحوها برسم لوحة تحتوى على قدم واحدة فقط اراد منها ان يشير الى ان تسى شى قد تخصصت فى اثارة المتاعب وأنها دفعت بشؤون أسرتها وبلادها الى مأزق . وكتب يى مو على اللوحة مقطوعة من الشعر الهزلى :

يا لي من مسكين ! حاولت أن أتفادى القوة الرهيبة للقدم ،
فبنيت برجا يجنبني اياها .
لكن على الرغم من أنى جعلت البرج عاليا جدا ،
الا أن القدم ماتزال تلاحقني الى السماء .

وبطريقة ما سمعت تسى شى بذلك ، فأصدرت للنكاية فيه قرارا آخر يأمر بأن يصبح تساى تاو ابنا بالتبنى لقريب آخر ، وكان قد مضى على تبنيه الاول خمس سنوات . فأمرضت الصدمة يى مو وزوجته كليهما . وعندما مات يى مو عقب ذلك تعمدت تسى شى ارسال تساى تاو ، الابن الذى انتزع منه ، ليكون ممثلها فى تقديم القرابين من أجله لأنه بهذه الصفة لم يكن فى استطاعته أن يركع أمام لوحته التذكارية (٦) . وماتت زوجة يى مو فى نفس العام كذلك .

وعندما أمرت تسى شى أن يصبح تعساى تاو ابنا بالتبنى مرة ثانية ، رتبت ايضا أن يتبنى أخ جدي الآخر أخاه تساى شون . وكان غرضها من ذلك تحقيق المقصود فى هذين البيتين :

لكن على الرغم من أني جعلت البرج عاليا جدا ،
الا أن القدم ماتزال تلاحقني الى السماء .

وكانت الخسارة المفاجئة لابن آخر صدمة غير متوقعة لجدتي :

ولم يمض وقت طويل حتى تلقت جدتي ضربة ثالثة ، وذلك عندما رتبت زواجا لوالدي فجاء مرسوم من تسى شى يقضى بأن عليه ان يتزوج من فتاة أخرى . وبالطبع لم تهتم تسى شى بموافقة العروسين المعنيين أوبموافقة والديهما . ولم يكن أحد يجرأ على التلفظ بكلمة واحدة حول أى شىء ترتبه . وكانت جدتي من ناحية مذعورة من اثارة استياء الأمبراطورة الأرملة ، ومن ناحية أخرى من وقوع فعل يائس قد تفعله خطيبة ابنها اذا فسخت الخطوبة . واذا ما حدث شيء من هذا القبيل ، فهذا يعنى معارضة أمر الامبراطورة ، وعندها تتحمل أسرة الفتاة وأسرتها المسؤولية . ومع أن الناس حاولوا تهدئة روعها بتوضيحهم أنه لن تكون هناك أية صعوبة بخصوص الغاء الخطوبة بناء على أوامر الامبراطورة الأرملة ، الا أن جدتي لم يهدأ لها روع وعادت الى ارتباكها العقلي .

وبعد ست سنوات تفاقم مرضها مرة أخرى عندما جاءها عضو كبير فى مجلس البلاط بمرسوم يأمر بان أرسل أنا الى القصر . فقد نشأت منذ نعومة اظفاري تحت رعايتها وكانت تحبني حبا جما . ووفقا لما قالته مربيتي ، كان من عادتها أن تنهض مرة او مرتين كل ليلة لتراني ، ولم تكن تلبس حذاءها مخافة ان يزعجني صوت احتكاكه بالخشب الذى كسيت به ارضية الغرفة . وبرعايتها لي على هذا النحو أكثر من سنتين أغمى عليها لدى سماعها

أن تسى شى ستأخذنى الى القصر . وظلت بقية حياتها عرضة لنوبات شديدة من الخبل . وقد ماتت عام ١٩٢٥ وهى فى الثامنة والخمسين .

بعد أن فقد الأمير تشون الثانى تساى فنغ والده وهو فى السابعة من عمره أشرفت على تنشئته السيدتان العجوزان وفقا للتعليمات للتى تركها الأمير تشون الأول ، وعاش حياة نبيل تقليدية . وعندما أصبح أميرا وصيا كان له دخل هائل ، وأدارت أمه شؤون بيته ، وكان هناك مكتب خاص للعناية بممتلكاته واكرام زواره ، وأصبح لديه حشد كبير من الحراس والخصيان والخدم للقيام على خدمته ، ناهيك عن جهاز من الأتباع للمشورة والتسلية . وبذلك لم يكن ليقلق على شؤون الأسرة ، ولم تكن لديه حاجة الى أية معرفة مفيدة . وكان له احتكاك قليل بالعالم الخارجى ، ولم يعش حياة اجتماعية اذا استثنينا تبادل الزيارات الرسمية .

وكان لأبي زوجتان، أنجبتا له أربعة أبناء وسبع بنات لم يبق منهم اليوم الا اثنان . وقد مات أبي عام ١٩٥١ وأمي عام ١٩٢١ .

كان أبـي وامي نموذجين مختلفين تمام الاختلاف . كان يقال أن نساء المانشو هن على الغالب أقدر من أزواجهن ، وهذا يمكن أن يكون صحيحا . فزوجتي وأمي كانتا أكثر معرفة مني ومن أبي بكثير ، خصوصا فى الحياة المنزلية والتمتع بها . والتفسير الوحيد لذلك هو ان نساء المانشوريا اللواتى استطعن تمشية هذه الحياة وحظين بالاحترام من رجالهن ، هن جميعا قد اتيحت لهن فرصة اختيارهن للخدمة فى القصر وتحولهن الى زوجات امبراطوريات ، ولكن رأيى الخاص هو انه بسبب كسل الرجال وانشغالهم بالعمل الرسمي وقعت ادارة البيت والشؤون المالية على كواهلهن ، وهذا ما جعل النساء بالطبع يصبحن أكثر قدرة الى حد ما . وكانت أمي أثيرة فى بيت أمها ، وقد قالت تسى شى عنها ذات مرة : " تلك الفتاة لا تخاف حتى مني . " وكان سخاؤها الزائد مبعث صداع كبير لوالدي وجدتي ، ولكن لم

يكن في وسعهما ان يفعلا شيئا ازاء ذلك . وكان لوالدي ، باستثناء ايجار أراضيه وراتبه عن الامارة و" مكافأة عدم الفساد " التى كانت تدفع للموظفين لاغنائهم عن الرشوة ، دخل يبلغ ٥٠ ألف تايل من الفضة سنويا كان يدفع كاملا على الدوام حتى فى عهد الجمهورية ، ولكنه لم يكن يمضى وقت طويل على تسلم أمي له حتى تنفقه كله . وفيما بعد جرب والدي جميع الحلول الممكنة بما فى ذلك ، اعطاؤها حصة ثابتة ، وكان يهم احيانا بتحطيم الزهريات وغيرها من الأوانى الخزفية ليظهر لها غضبه وتصميمه . ولما لم يحتمل فقدان كل هذه النفائس ، فقد استبدل بها أوانى من البرونز والرصاص غير قابلة للكسر . ولم ينفع معها كل ذلك واستمروالدي يدفع لها المزيد من الاموال حتى تفى بمصروفاتها . ولقد أنفقت الكثير الكثير حتى أن جدتي كانت تبكى وتتنهد ألما لرؤية الفواتير التى يرسلها مكتب المحاسبة ، ولم يكن أمام والدي من خيار الا ان يطلب من قهرمانه أن يبيع المزيد من التحف والأراضى .

كان من عادة أمي ان تبيع على نحو متكتم المجوهرات التى جلبتها معها عند زواجها ، واكتشفت أنا فيما بعد أنها قد أنفقت الاموال سرا على النشاطات السياسية فضلا عن بذخها اليومى . ولكن الاموال التى أنفقتها هى وغيرها من الزوجات الامبراطوريات فى محاولة لتحقيق أحلامهن باستعادة سلطاتهن قد عادت جميعها الى جيوب الخصيان وغيرهم .

لم يكن أخوتي واخواتي فى طفولتهم يخشون والدي وجدتي مطلقا ، ولكنهم كانوا مرعوبين من أمي . وبالطبع كان الخدم أشد ذعرا منهم . وذات يوم جاء والدي الى البيت ليجد أن الأبواب والنوافذ لم تغلق بعد ، فسأل خصيا عن السبب ، فأجابه الخصى بأنه لا حاجة للعجلة مادامت السيدة لم تعد بعد . فخرج أبي عن طوره وعاقبه بأن جعله يركع على الأرض . وقالت احدى الخادمات للخصى الراكع : " لوكان السيد حاضرا ، لظللت تضرب الى أن يسود جلدك ويزرق . " وقد عنت بكلمة " السيد " أمي التى أحبت ،

شأنها شأن تسى شى ، أن يشار اليها بلفظ " السيد " للمذكر .

ذهبت الى داخل القصر عندما كنت فى الثالثة من عمري تقريبا ، ولم أقابل أمي وجدتي ثانية الا بعد أن أصبحت فى العاشرة ، حيث استدعيتا الى القصر . وعندما قابلتهما شعرت بأننى غريب عنهما تماما ، ولكنني مازلت أذكر أن عينى جدتى قد تسمرتا علي طوال الوقت وبدتا ملتمعتين بالدموع . وتركت أمي لدي انطباعا مختلفا ، فقد وجدتها مخيفة كما كانت من قبل . فكانت كلما رأتنى تقول بلهجة صارمة : " ينبغى لجلالتك أن تدرس باجتهاد مبادىء أسلافك الخلقية " ، أو " ينبغى لجلالتك ألا تكون جشعا . ان جسد جلالتك جسد مقدس ، ينبغى لجلالتك أن تستيقظ باكرا وتنام باكرا . . " ومازلت أحمل ذلك الانطباع القاسى عنها كلما فكرت فيها اليوم . ويا له من فرق كبير فى الشخصية بين جدتى المنحدرة من أصل متواضع وأمي التى نشأت على أنها فى أسرة عريقة .

الفصل الثانى

طفولة

ارتقاء وتنازل

في مساء ١٣ نوفمبر ١٩٠٨ ساد الاضطراب قصر الأمير تشون . فقد أغمي على جدتي قبل سماعها نهاية مرسوم الامبراطورة الأرملة الذى جلبه الأمير الوصي الجديد ، وانهمك الخصيان والخادمات فى صب الشاى المنعش واستدعاء الاطباء ، بينما كان فى الجانب الآخر من الغرفة صبى يبكى وبعض الكبار يحاول تهدئته . اما والدي الوصى فكان يتردد بين غرفة واخرى مستضيفا الموظف الكبير فى مجلس البلاط الذى جاء بالمرسوم ومن رافقه من الخصيان ، مصدرا أوامره بالباس الصبى دون التفات الى ما جرى للسيدة العجوز . ثم يدعى الى رؤيتها فينسى ان هذا الموظف الكبير فى مجلس البلاط والخصيان ينتظرون ليأخذوا أمبراطور المستقبل الى داخل القصر . وخلال ذلك الاضطراب استعادت السيدة العجوز وعيها ، ثم ساعدوها على الانتقال الى غرفة داخلية لتستريح ، وكان امبراطور المستقبل فى الغرفة الأخرى ما يزال "يقاوم المرسوم" صارخا وضاربا الخصيان الذين كانوا يحاولون حمله وكان عليهم ان يتكلفوا الابتسام فيما هم ينتظرون الموظف الكبير فى مجلس البلاط ليخبرهم بما سيفعلونه ، بينما كان هذا الموظف نفسه ينتظر فى يأس قدوم الأمير الوصى ليعالج الوضع . ولكن كل ما استطاع الوصى فعله هو هز رأسه . .

وفيما بعد وصف لي بعض أفراد الأسرة الكبار ذلك المشهد ، ولكنه اختفى من ذاكرتى منذ أمد طويل . فقد قالوا ان الاضطراب قد انتهى حين أعطتنى مرضعتى الثدى فتوقف بذلك صراخى . وتصرفها هذا نبه والدي وعضو مجلس البلاط من غفلتهما ، فقررا ان تأخذنى المربية الى القصر قبل تسليمى

الى الخصيان الذين سيحملونني لرؤية تسى شي :

وماتزال ذاكرتي عن مقابلتي لتسى شي غائمة . ولو أنها تركت فى نفسي انطباعا عميقا . أذكر أنني وجدت نفسي فجأة محاطا بالغرباء ، وكان تتدلى أمامي ستارة رمادية اللون استطعت أن أرى من خلالها وجها هزيلا ومرعبا فى بشاعته ، وكانت هذه هى تسى شي . وقيل انني انفجرت البكاء لدى رؤيتها وارتجفت على نحو يتعذر ضبطه . فطلبت تسى شى من أحدهم اعطائي عودا محملا بالزعرور المغلف بالسكر ، ولكنني رميته الى الأرض وصحت باكيا : " أريد ماما ، أريد ماما " ، وهذا ما أثار الاستياء الشديد فى نفس تسى شي . فقالت : " يا له من طفل سيء الطبع ! خذوه ليلعب . "

وبعد يومين من دخولي القصر ماتت تسى شي ، وفى ٢ ديسمبر أقيم " الاحتفال الكبير باجلاسي على العرش " ، ذلك الاحتفال الذى أفسدته بصراخي .

لقد أقيم الاحتفال الكبير فى قاعة الوئام الأعظم (تاى خه ديان) . وقبل أن يبدأ كان علي أن أتلقى انحناءات الاحترام من قادة حرس البلاط فى قاعة الوئام الأوسط (تشونغ خه ديان) ، ثم أتلقى انحناءات الاحترام من كبار الضباط والقواد . ووجدت هذا كله مملا ومتعبا . وكان هذا اليوم فوق ذلك باردا جدا ، لذلك عندما حملت الى قاعة الوئام الأعظم لأرفع على العرش العالى والضخم لم أستطع الاحتمال طويلا . فطلب منى والدي الذى كان راكعا تحت العرش وهو يسندني ، الا أتململ ، ولكنني قاومت وصرخت : " لا أحب هذا المكان ، أريد أن أذهب الى البيت . لا أحب هذا المكان ، أريد ان أذهب الى البيت . " فأصيب والدي بخيبة أمل شديدة حتى انه أخذ يتصبب عرقا . وفيما استمر رجال القصر يركعون لي استمرت صيحاتي فى الارتفاع . وحاول والدي تهدئتي بقوله : " لا تصرخ ، لا تصرخ . سينتهى ذلك حالا ، سينتهى ذلك حالا . "

وعندما انتهى الاحتفال سأل رجال القصر بعضهم بعضا خلسة : " كيف يقول ' سينتهى ذلك حالا ؟ ' ماذا يعنى قوله ' أريد ان أذهب الى البيت ؟ ' " تمت هذه المناقشات كلها فى جو كئيب كأن تلك الكلمات كانت نذير شؤم . وقالت بعض الكتب ان تلك الكلمات كانت تنبىء بأن أسرة تشينغ " ستنتهى " حقا فى ظرف ثلاث سنوات وأن الصبى الذى أراد أن " يذهب الى البيت " ذهب الى البيت حقا ، وادعت هذه الكتب أيضا أن رجال القصر كان لديهم شعور مسبق بذلك .

ولكن الذى أوحى لهم بنذر الشؤم حقا كان بالطبع أكثر بكثير من تلك الجملتين العرضيتين . فتسجيلات ذلك الوقت تبين أن العاصفة الثائرة المعادية للمانشويين والتى اشتدت خطورتها فى السنوات الاخيرة من حكم قوانغ شيوى ، أصبحت أكثر تهديدا خلال حكمي . ان السلطة المتزايدة لدى يوان شى كاى تشكل صداعا آخر لكبار الموظفين والأمراء ، وأفراد الأسرة المالكة الذين رأوا أنفسهم فى مجابهة خصمين : يوان شى كاى فى الداخل والثوار فى الخارج ، واعتبروا عهدي من أشد العهود شؤما فى التاريخ .

بعد القيام بعرض بائس كامبراطور حكم ثلاث سنين ، قمت بعرض بائس للتنازل . وأحد أحداث تلك الأيام الماضية ما يزال ماثلا فى ذاكرتي بكل وضوح : كانت الامبراطورة الأرملة لونغ يوى جالسة على سرير كانغ (٧) فى غرفة جانبية داخل قاعة تهذيب النفوس (يانغ شين ديان) تمسح عينيها بمنديل بينما ركع عجوز بدين على سجادة حمراء أمامها ، والدموع تنهمر على وجهه . وكنت أنا جالسا الى يمين الامبراطورة الأرملة شاعرا بشىء من الارتباك ومتسائلا عن سبب بكاء هذين الكهلين . ولم يكن فى الغرفة أحد غيرنا نحن الثلاثة ، وكانت الغرفة هادئة جدا ، وكان الرجل السمين يتنشق بصوت عال فيما راح يتكلم ، فلم أستطع فهم ما كان يقول . وعلمت فيما بعد أن هذا الرجل السمين كان يوان شي كاى ، وتلك كانت المرة الوحيدة التى

رأيته فيها وآخر لقاء له مع الامبراطورة الأرملة . واذا كان ما نمى الي صحيحا فتلك كانت المناسبة التى قدم فيها يوان مباشرة طلب التنازل عن العرش . وبعد هذا اللقاء صار يوان شى كاى يتذرع بمحاولة اغتيال جرت عليه لعدم دخول البلاط ثانية .

لقيت انتفاضة وو تشانغ استجابة واسعة فى كافة أنحاء البلاد ، وعندما أثبت القائد المانشوى الأعلى للقوات الامبراطورية عجزه عن توجيه جيش بييانغ ضد القوات الجمهورية لم يبق أمام الأمير الوصى من خيار الا اللجوء الى يوان شى كاى . ويوان هذا ، الذى عرف كيف ينتظر فرصته وظل يحاط علما على الدوام بالتطورات داخل العاصمة ، ظل يرفض العروض بالعودة الى ان عرضت عليه رئاسة الوزارة ومنصب القائد العسكرى الأعلى . وعندها فقط قبل المرسوم الامبراطورى وأمر جيش بييانغ بالزحف على الجمهوريين . وبعد استيلائـه على هانيانغ أوقف جنوده هناك وعاد الى بكين لاجراء مقابلة مع الأمير الوصى والامبراطورة الأرملة لونغ يوى .

ولم يعـد يوان شى كاى هو ما كان عليه سابقا . فبالاضافة الى سلطته السياسية والعسكرية كسب أشياء أكثر قيمة : فبعض الأجانب ، من بينهم المفوض البريطانى فى بكين ، كانوا مهتمين به . وكسب الى جانبه أيضا أصدقاء من الجمهوريين ، من بينهم وانغ جينغ وى (٨) الذى أسر بعد محاولته المخفقة لاغتيال الامير الوصى ، ولكن أنقذت حياته بتوسط عدد من اليابانيين الذين أوضحوا أن اليابان لن ترتاح اذا هو اعدم وأطلق سراح وانغ من السجن بعد انتفاضة ووتشانغ وبعد ذلك اصبح وسيطا بين يوان شى كاى وبعض القادة الجمهوريين ، وظل يحيطه علما كذلك بالتطورات داخل المعسكر الثورى ، وقد بدأ عدد من الملكيين الدستوريين يشعرون بالود التام تجاه يوان .

وبفضل أصدقائه الجدد والقدامى وقدرته على التلون أصبح مركز يوان أقوى من السابق . وفى غضون شهر من عودته الى بكين استخدم الأمير تشينغ

لطرد الأمير الوصى . ثم تولى بعد ذلك الاشراف على خزينة القصر التابعة للأمبراطورة الأرملة لونغ يوى بحجة الحاجة اليها لتغطية النفقات العسكرية ، وفى الوقت نفسه جعل أفراد الأسرة المالكة والنبلاء يسلمون مدخراتهم الى الجيش . ومع قبضه على السلطة السياسية والعسكرية والمالية استمر فى التداول مع المبعوثين الصينيين فى روسيا وغيرها من البلدان لكى يبرقوا الى بلاط تشينغ طالبين تنازل الامبراطور من العرش ، وقدم فى نفس الوقت مذكرة سرية الى الامبراطورة الأرملة باسم مجلس الوزراء بأكمله تقول ان الجمهورية هى المخرج الوحيد . ولابد أنه قدم تلك المذكرة فى المناسبة التى رأيته فيها ، وهذا يفسر لماذا كانت لونغ يوى تبكى بكاء شديدا لما قالته المذكرة من أنه لم يكن هناك أمل أمام الأسرة المالكة حتى فى الهروب وان التأخر فى التنازل يمكن أن يؤدى الى مصير مشابه للمصير الذى لقيه لويس السادس عشر وأسرته فى الثورة الفرنسية .

دعت الامبراطورة الأرملة التى استبد بها الرعب الى اجتماع طارىء للمجلس الامبراطورى لتسمع آراء أفراد الأسرة المالكة . وعندما أبلغوا بالمذكرة السرية وبما قاله يوان شى كاى ذعروا ذعرا شديدا ، ليس من الاشارة الى لويس السادس عشر ، بل من التغير المفاجئ فى ولاء يوان .

لقد عارض يوان شى كاى فى البداية اقامة جمهورية ، وأيد الملكية الدستورية فى المفاوضات مع الجانب الجمهورى . وفيما بعد اتفق جانب أسرة تشينغ والجانب الجمهورى مبدئيا على أن مسألة تركيب الدولة يجب أن يقررها مجلس وطنى موقت ، ولكن العراقيل من جانب أسرة تشينغ حالت دون تطبيق الاتفاقية . ومع بقاء هذه المسائل دون حل ، أنشأ الجمهوريون حكومة موقتة فى نانجينغ وانتخبوا صون يات صن رئيسا مؤقتا . وهذا دفع يوان شى كاى الى سحب اعتماد وفده فى المفاوضات والتفاوض مباشرة مع المندوبين الجمهوريين عن طريق اللاسلكى . أما اقتراح مجلس وزراء يوان الذى رأى

أن من واجب الأسرة المالكة أن تتنازل عن العرش فى وقت لم يقرر فيه بعد تركيب الدولة ، فقد جاء بالطبع صدمة عنيفة للبيت الملكى .

وكان يوان شى كاى قد حصل على دعم أجنبى وأصبح لديه اصدقاء كثيرون من الجانب الجمهورى ، مما جعله قادرا على التأثير فى نشاطات الجيش الجمهورى . وكان بعض المنخرطين فى الثورة من الملكيين الدستوريين يرون فيه أملهم . وقد أثروا بدورهم على بعض الجمهوريين الخلص ولكن البسطاء . ومن هنا قرر الجانب الجمهورى انه اذا اتفق يوان معه فان جمهورية يمكن ان تقام بسرعة ويكون يوان رئيسها الاول . وهذا ما اراده يوان بالطبع . وقد عرف فوق ذلك أن الأمير الوصى السابق كان محاطا بمجموعة معادية له عداء مستحكما وقد عزمت على قلعه سواء نجح فى الحاق الهزيمة بالثوريين أم لم ينجح . ولذلك قرر يوان قبول عرض الجمهوريين ، واضعا فى اعتباره كيف سيتعامل مع بيت تشينغ ، لا سيما بعد أن جعلت الأنباء المفاجئة عن انتخاب صون يات صن رئيسا موقتا فى نانجينغ حل المسألة أكثر الحاحا . واذا تم انشاء مجلس وطنى للجمهوريين فى الجنوب فهو غير عاجز عن التخلص منه . ولذلك قرر أن يضغط على البيت الامبراطورى بترهيب الامبراطورة الأرملة لونغ يوى وترغيبها فى نفس الوقت ببنود المعاملة التفضيلية . وبهذه الطريقة كان يأمل أن تعلن التنازل اختياريا وتمنحه السلطات الكاملة لتأسيس حكومة موقتة . وكان هذا هو التفسير الصحيح لتغير يوان شى كاى المفاجىء .

وعلى الرغم من أنه خان بيت تشينغ الا أن المرء لم يكن بوسعه أبدا أن يحزر ذلك من ملامح وجهه الباكى فى لقائه الخاص مع الامبراطورة الأرملة لونغ يوى . ولكن أفراد البيت الملكى الذين وثقوا به من قبل قد عرفوا الآن حقيقة موقفه .

وكان بعض الأمراء والنبلاء المانشويين والمغول الذين كانوا دائما ضد يوان ميالين الى خوض قتال مستميت والى الانتقام من مذبحة المانشويين

والمغول التى وقعت فى بعض أنحاء البلاد . وعندما دعت الامبراطورة الأرملة الى الاجتماع الأول للمجلس الامبراطورى كان الجو مشحونا بالغضب . وهوجم هجوما عنيفا اقتراح من حليف يوان شى كاى القديم الأمير تشينغ وآخرين بوجوب موافقة البلاط على التنازل ، ولذا لم يأت الأمير تشينغ الى البلاط فى اليوم التالى ، بينما غير نصيره الرئيسى فى المجلس نبرته ، وأعلن رسميا أنه وافق على فكرة الملكية الدستورية .

ولم يستمر هذا الوضع طويلا . ومن التسجيلات المتعددة يمكن تكوين فكرة تقريبية عن احدى الجلسات على النحو التالى : لدى تأكد الامبراطورة الأرملة من أن جميع الحاضرين مؤيدون للملكية ومعارضون للجمهورية مضت تقول ان الأمير تشينغ قد أخبرها بأن القوات الامبراطورية عاجزة عن الحاق الهزيمة بالجمهوريين وأن الأجانب سيأتون لمساعدة حكومة تشينغ بعد أن يستقيل الأمير الوصى .

فاعترض بو وى ، قائد مجموعة النبلاء المعارضين ليوان ، بأن هذا كذب صريح لأن الأمير الوصى قد استقال ، والأجانب لم يفعلوا شيئا لمساعدتهم . وقال هو وآخرون حينذاك ان المتمردين ليسوا بالذين يخشى جانبهم . ثم أبلغوا الامبراطورة الأرملة بأن فنغ قوه تشانغ ، جنرال من جيش بييانغ قد أكد أن الاعتمادات العسكرية للأشهر الثلاثة تكفى لالحاق الهزيمة بهم ، ولكن يوان شى كاى كان ، وفقا لما ذكرته الامبراطورة الأرملة ، قد تولى الاشراف على خزينة القصر ، فلذلك لم يكن لديها أموال . ومضت تقول : " وبالاضافة الى ذلك ، ماذا يحدث لو خسرنا ؟ من المؤكد أننا لن نكون قادرين على اللجوء الى بنود المعاملة التفضيلية ؟ "

وقال بو وى : " ان هذه البنود ليست الا خدعة . " وعندما سألت الامبراطورة الأرملة عن حالة الجيش لم تحصل الا على جواب ملتبس . وكانت اجتماعات المجلس الامبراطورى تتوالى بدون أية نتيجة ، فأخذ

مؤيدو القتال يقلون تدريجيا . وحينذاك أرسل دوان تشي روى ، جنرال آخر من جيش بييانغ ، برقية يطالب فيها بتنازل الامبراطور . وغادر قائدان من مؤيدى القتال داخل الأسرة المالكة مدينة بكين ، هرع أحدهما الى تشينغداو التى يحتلها الألمان والآخر الى ليوشون التى فى يد اليابانيين ، فكانا ينويان السفر الى ألمانيا واليابان ، لكنهما منعا من ذلك اذ كان من الواضح ان القوى الأجنبية كانت مستعدة حينذاك للاعتراف بحكومة يوان شى كاى .

وفى ٢ فبراير ١٩١٢ أعلنت الامبراطورة الأرملة لونغ يوى تنازلى أنا . ولجأ بعض أفراد الأسرة المالكة والنبلاء الى حى المفوضيات الأجنبية ، بينما أخذ الامير تشينغ أسرته ونفائسه الى منطقة الامتيازات الاجنبية فى تيانجين . أما والدي الذى لم يقل أية كلمة خلال اجتماعات المجلس الامبراطورى ، فقد عاد الى البيت لكى " يلازم أولاده " . وكان يوان شى كاى فى تلك الأثناء يؤسس حكومة جمهورية موقتة وفقا لأمر الامبراطورة الأرملة ، ويعمل فى الوقت نفسه على عقد اتفاق مع الثوريين وقد تحول بذلك من رئيس مجلس الوزراء الامبراطورية تشينغ العظمى الى رئيس موقت لجمهورية الصين . وأصبحت أنا جار الرئيس حيث بدأت حياتى فى " البلاط الصغير " وفقا لبنود المعاملة التفضيلية الممنوحة لبيت تشينغ .

تتضمن هذه البنود التى سميت "بنود المعاملة التفضيلية الممنوحة لامبراطور تشينغ العظيم بعد تنازله " ، مايلى :

١– بعد تنازل امبراطور تشينغ العظيم يظل لقب العظمة محفوظا ولا يلغى . وجمهورية الصين ستعامله بالاحترام الذى يستحقه عاهل أجنبى .

٢– بعد تنازل امبراطور تشينغ العظيم سيتسلم تخصيصا سنويا يبلغ أربعة ملايين تايل من الفضة . او أربعة ملايين يوان بعد اصدار العملة الجديدة . وهذا المبلغ ستدفعه جمهورية الصين .

٣– بعد تنازل امبراطور تشينغ العظيم يمكنه ان يقيم موقتا فى القصر

الامبراطورى ، وبعد ذلك سينتقل الى القصر الصيفى . ويمكنه ان يحتفظ بحرسه المعتاد .

٤- بعد تنازل امبراطور تشينغ العظيم ستصان الى الأبد القرابين فى معابد أسلافه والقبور الامبراطورية . وجمهورية الصين ستقدم حرسا لضمان حمايتها .

٥- الضريح غير المكتمل للامبراطور قوانغ شيوى (ده تسونغ) سيكمل بناؤه وفقا للخريطة الأصلية . والاحتفالات الجنائزية ستتم وفقا للمراسم القديمة . والنفقات الفعلية ستدفعها جمهورية الصين .

٦- جميع العاملين فى القصر على اختلاف درجاتهم يمكن ان يستمروا فى عملهم كالسابق ، بشرط عدم استخدام أى خصى آخر .

٧- بعد تنازل امبراطور تشينغ العظيم تتلقى ممتلكاته الشخصية القائمة حماية خاصة من جمهورية الصين .

٨- حرس القصر الحالى سيدمج فى جيش جمهورية الصين ، وعدد افراده ورواتبه ستستمر كالسابق .

العيش امبراطورا

نصت " بنود المعاملة التفضيلية " على ان بوسعي الاقامة موقتا فى القصر الامبراطورى دون تحديد مدة معينة . وباستثناء القاعات الواسعة الثلاث التى سلمت الى الجمهورية ظلت بقية المدينة المحرمة تابعة للقصر الامبراطورى . وفى هذا العالم الضئيل تعين علي ان أمضى أسخف طفولة فى الدنيا الى ان طردت منه على يد الجيش الوطنى عام ١٩٢٤ . أدعوها أسخف طفولة لأننى فى الوقت الذى سميت فيه الصين جمهورية ودخلت البشرية القرن العشرين كنت ما أزال أعيش حياة امبراطور ، متنفسا غبار القرن التاسع عشر .

كلما تذكرت طفولتى غشى عقلي ضباب أصفر . فالآجر للمزجج كان

أصفر ، ومحفتي كانت صفراء ، ومفارش كرسى صفراء ، وبطائن قبعاتي وملابسي صفراء والطوق الذى حول خصري كان أصفر ، والأطباق والطاسات التى أكلت فيها وشربت ، الغلاف المبطن لباطية عصيدة الأرز ، واللفائف التى تلف بها كتبي ، وستائر النوافذ ، ولجام حصاني . . . كل ذلك كان أصفر . وكان هذا اللون المسمى " أصفر فاقع " ، والذى استخدمه البيت الامبراطورى جيلا بعد جيل قد جعلنى أشعر منذ سنواتى الأولى بأنني فريد فى العالم ، ولي طبيعة " سماوية " تختلف عن طبيعة أى انسان آخر .

وعندما أصبحت فى العاشرة من عمري بدأت جدتي وأمي تأتيان لزيارتي بناء على أوامر من الزوجتين العليتين (٩) ومعهما أخي بو جيه وأختي الأولى ليلعبا معي بضعة أيام . تمت الزيارة الأولى بشكل محزن : أنا وجدتي على سرير الكانغ وهى تراقبنى وأنا ألعب الدومينو ، بينما وقف أخي وأختي أسفل منا وقفة منتظمة يحدقان الي بعيون لا تطرف كأنهما من خدم القصر . وفيما بعد خطر لي أن آخذهما الى قاعة تهذيب النفوس داخل القصر ، حيث سألت بو جيه :

— أية ألعاب تلعبها فى البيت ؟

فقال أخي الذى يصغرني بسنة واحدة بطريقة تنم عن الاحترام الشديد :

— بو جيه يستطيع ان يلعب الغميضا .

فقلت متحمسا :

— اذن أنت تلعب الغميضا أيضا ؟ انها لعبة جيدة سارة .

وكنت قد لعبتها مع الخصيان ، ولكنني لم ألعبها أبدا مع صبيان أصغر منى وهكذا بدأنا نلعب الغميضا . وفى حماسة اللعبة نسى أخي وأختي ضوابطهما . وأسدلنا الستائر بهدوء لنجعل الغرفة شديدة الظلمة . وكانت أختي التى تصغرني بسنتين مبتهجة ومذعورة فى آن واحد ، وفيما مضيت أنا وأخي فى اخافتها ضحكنا وعربدنا كثيرا . وعندما أحسسنا بالتعب تسلقنا سرير الكانغ لنستريح

عليه ، وطلبت منهما التفكير فى لعبة أخرى جديدة . فمكث بو جيه لحظة يفكر ، ثم بدأ يحدق الي فى صمت وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة باهتة .

ـ على ماذا تبتسم ؟

لكنه ظل يبتسم . فحثثته على الاجابة وقد عيل صبرى :

ـ قل لي ! قل لي !

وظننت انه لا بد ان يكون قد اهتدى الى لعبة جديدة . ولكنه قال لشدة دهشتي :

ـ اننى فكرت ، آوه ، بو جيه فكر فى ان جلالتكم ستكون مختلفا عن الناس العاديين . فالأباطرة على المسرح لهم لحى طويلة . .

وتظاهر وهو يتكلم بأنه يمسد لحيته . وكانت هذه الملاحظة هى جوابه . وحدث أن رفع يده فلاحظت أن بطانة ردنيه كانت ذات لون مألوف جدا . فامتقع وجهي :

ـ يا بو جيه ! أمسموح لك بلبس هذا اللون .

ـ ولكن . . و . . ولكنه ليس بلون المشمش ؟

ـ يا للسخافة ! انه الأصفر الفاقع الامبراطورى ؟

ـ نعم ، يا سيدي . .

ووقف بو جيه بعيدا وذراعاه مسبلتان على جانبيه باحترام وراحت أختى تقف الى جانبه مذعورة تكاد تبكى . واردفت قائلا :

ـ انه الاصفر الفاقع . لا يحق لك ان تلبسه !

ـ نعم ، يا سيدى .

ومع عبارة " نعم ، يا سيدى " عاد أخى ليكون تابعي : لقد اندثر صوت " نعم ، يا سيدى " منذ أمد طويل ، وانه ليبدو مضحكا جدا ان يفكر المرء فى هذه المناداة اليوم . ولكننى تعودتها منذ طفولتى المبكرة ، واذا لم يستخدم الناس تلك المناداة فى الرد علي فاننى لا أحتمل ذلك . ونفس الشيء بالنسبة

للركوع والسجود . فقد تعودت منذ نعومة أظفاري ان أرى الناس يسجدون لي ، ولا سيما الناس الذين يكبرونني بأكثر من عشرة أضعاف ، وكان من بينهم كبار الموظفين السابقين في أسرة تشينغ وكبار العشيرة واناس في ثياب البلاط الخاص بأسرة تشينغ ورجال الجمهورية في الزى الغربى .

وشيء آخر غريب ، بدا طبيعيا تماما في ذلك الوقت ، هو الموكب اليومى :

فكل مرة كنت أذهب فيها الى حجرة الدرس ، او أزور الزوجتين العليتين لتقديم احتراماتي ، او أخرج للتنزه في الحديقة كانت تصحبني حاشية كبيرة . وكل رحلة قمت بها الى القصر الصيفي كلفت آلاف الدراهم الفضية الكبيرة ، حيث يطلب من البوليس الجمهوري الاصطفاف على طول الطرقات لحمايتي ، وكان يرافقني من عشرات السيارات .

وكلما خرجت للتنزه في الحديقة لابد ان ينظم موكب . ينطلق في المقدمة خصى من المكتب الادارى ، لم تكن وظيفته الا وظيفة بوق السيارة : فكان يمشي على بعد عشرين او ثلاثين ياردة امام الموكب مرددا الصوت التالى " تشير . . تشير . . " تحذيرا لكل واحد يمكن ان يكون في ذلك الجوار كي يبتعد في الحال . ثم يليه خصيان رئيسيان يسيران مثل الاوز على كل جانب من جانبـــي الطريق ، وخلفهما بعشر خطوات يمشي عمدة الموكب — الامبراطورة الأرملة أو أنا . واذا كنت محمولا في محفة فسيكون ماشيا الى جانبي اثنان من الخصيان الصغار لتلبية طلباتي في لحظتها ، واذا كنت ماشيا يسنداني . ومن ورائى خصى يحمل مظلة حرير واسعة ، تتبعه مجموعة كبيرة من الخصيان بعضهم خالى اليدين وآخرون يحملون أشياء مختلفة : كرسى لاستراحتى وغيارات من الثياب ، ومظلات للمطر وأخرى للشمس . وبعد هؤلاء الخصيان المقربين للامبراطور يأتي خصيان من مكتب الشاى الامبراطورى يحملون علبا فيها مختلف أنواع الكعك والمأكولات الشهية وطبعا أباريق ملأى بالماء الساخن والشاى ، ثم يتبعون بخصيان الصيدلية الامبراطورية يحملون حقائب

الأدوية ومواد العلاج الاولى . وهذه الأدوية التى تحمل دائما تضم جرعات معدة من السعادى ، وأزهار الأقحوان ، وجذور القصب ، وأوراق الخيزران ولحاؤه . وفى الصيف كان هناك على الدوام منقوع حب البطن للغازات وست حبات تناسق لحفظ توازن الوسط ، وزنجفر طارد للحرارة مغطى بالذهب ، وحبات عشبة الشذا وحبات نافعة لكل شيء ودواء للمغص ومسحوق ضد الأوبئة . وعلى مدى الفصول الأربعة يكون هناك شراب الآلهة الثلاثة الهاضم والخ . وفى نهاية الموكب يأتى الخصيان الذين يحملون القعادات والمباول . واذا كنت ماشيا فتكون فى المؤخرة محفة مفتوحة او مغلقة بحسب الفصل . وهذا الموكب المتعدد الألوان المتكون من عشرات الناس يواصل تقدمه فى هدوء تام وانتظام .

ولكنني كنت أثير الفوضى فيه غالبا . فعندما كنت صغيرا كنت أحب ان أجرى هنا وهناك ينتابنى شعور بالفرح ، تماما كما يفعل أى طفل ، ويهرع الجميع خلفي لاهثين فيتحول الموكب الى فوضى . وعندما كبرت قليلا وتعلمت كيف أصدر الأوامر أخذت أطلب منهم ان يتوقفوا وينتظرونى كلما أردت ان أعدو هنا وهناك . وباستثناء الخصيان المقربين الذين يكونون معي ، يقف الجميع فى سكون بما فى أيديهم من أحمال . وبعد ان أنتهى من الجرى كانوا ينتظمون ثانية خلفي . وعندما تعلمت ركوب الدراجة أمرت بنزع جميع العتبات الخشبية المرتفعة داخل القصر بحيث استطيع ان أركب دراجتي دون أى عائق ولم يعد الموكب قادرا على اللحاق بي ، ولذلك تعطل موقتا . ولكن عندما كنت أذهب لأقدم احتراماتي الى الزوجتين العليتين او الى حجرة الدرس ظل من المفروض ان ترافقنى بعض الحاشية ، ومن دون ذلك كنت أشعر ببعض الغرابة . وعندما سمعت الناس يروون قصة امبراطور أسرة مينغ الذى لم يبق معه فى النهاية الا خصى واحد شعرت بعدم ارتياح شديد .

اما نموذج التباهى المفرط الذى استنفد معظم الجهد والمال والمواد

فهو وجبات الطعام . كانت هناك مصطلحات خاصة بأكل الامبراطور ، وكان من المحظور تماما الخطأ فى استخدامها . فالطعام لم يكن يدعى " طعام " بل " يوى شان " اى الطعام الامبراطورى ، والأكل كان يدعى " جين يوى شان " اى تناول الطعام الامبراطورى ، وتقديم الوجبات كان يدعى " تشوان شان " اى استدعاء الطعام الامبراطورى ، والمطبخ " يوى شان فانغ " اى غرفة الطبخ الامبراطورى . وعندما كان يحين موعد الأكل (أوقات الوجبات لم تكن محددة بل كانت حسب شعور الامبراطور بالرغبة فى الأكل) كنت أصدر الأمر قائلا " تشوان شان ! " فيكرر خصيان الحضرة جملة " تشوان شان " على مسامع الخصيان الواقفين فى القاعة الرئيسية للقصر الذى كنت أقيم فيه ، وهم بدورهم يبلغون نفس الجملة الى الخصيان الواقفين فى الخدمة خارج القاعة ، وأولئك بدورهم ينادون على خصيان " يوى شان فانغ " الواقفين فى الممر الغربى من المدينة المحرمة . وبذلك ينفذ أمري مباشرة الى المطابخ ، وقبل ان يتلاشى صداه يخرج من " يوى شان فانغ " موكب شبيه الى حد ما بالموكب الذى يحمل جهاز العروس يتكون من صف منتظم من عشرات الخصيان بملابس أنيقة يهرعون الى قصر تهذيب النفوس بسبع موائد ذات أحجام مختلفة وعشرات الصناديق من اللك الأحمر رسمت عليها تنانين ذهبية وعندما يصلون الى القاعة الرئيسية يسلمون احمالهم الى خصيان شبان يلبسون أردانا بيضاء ويضعون الوجبة فى غرفة شرقية من القصر .

وكان هناك عادة مائدتان للأطباق الرئيسية مع مائدة أخرى لأطباق الموقد (١٠) تقدم فى الشتاء ، وكانت هناك ثلاث موائد للكعك والأرز والعصيدة ، ومائدة أخرى صغيرة للخضار المملح . وجميع الآنية الخزفية كانت من الخزف الأصفر الامبراطورى الذى نقشت عليه التنانين والكلمات التالية " عمرا مديدا غير محدود " (١١) . وفى الشتاء كنت آكل من صحون فضية توضع فى طاسات خزفية ملأى بالماء الساخن . وكل صحن وطاسة

عليه قطعة من الفضة كأنها حرز ضد السم ، ولهذا السبب نفسه يذوق الطعام كله خصى قبل ان يقدم الى القاعة ، وهذا كان يدعى " تشانغ شان " . وبعد ان يذاق كل شيء ويمد على الموائد قبل ان آتخذ مكانى ، يصيح خصى شاب " ارفعوا الأغطية " ، وهذه كانت اشارة الى أربعة او خمسة من الخصيان لرفع الأغطية الفضية عن جميع الصحون ووضعها فى صندوق كبير وحملها الى خارج القاعة . وعندها أبدأ أنا مرحلة " جين يوى شان " اى تناول طعامى الامبراطورى .

وماذا كان ذلك الطعام الذى يمد على " مساحة عشر أذرع " ؟ كان للامبراطورة الأرملة لونغ يوى حوالى مائة صحن رئيسى توضع على ستة موائد ، وهذا بذخ ورثته عن الامبراطورة الأرملة تسى شى . وكان لي حوالى ثلاثين صحنا ، ولكن هذه الصحون لم تكن الا لمجرد العرض . أما السبب فى ان الطعام كان يؤتى به الي حالما أصدر الأمر تقريبا فهو انه كان يعد قبل عدة ساعات او حتى قبل يوم بكامله ، وكان يحتفظ به ساخنا بوضعه فوق مواقد المطبخ . وقد عرف الطباخون منذ زمن قوانغ شيوى على الأقل ان الامبراطور لا يأكل هذا الطعام . كنت آكل الطعام الذى يرسل الي من لدن الامبراطورة الأرملة ، وبعد موتها من الزوجات العليات الاربع . وكان لها ولكل من الزوجات العليات مطابخ يديرها الطهاة ذوو المهارة العالية الذين يقدمون أكثر من عشرين طبقا لذيذا فى كل وجبة . هذا كان هو الطعام الذى يوضع أمامى ، أما ذلك الذى يعد فى المطابخ الامبراطورية فكان يوضع على مبعدة لأجل التباذخ .

وحتى تظهر الزوجات العليات مدى حبهن لي وعنايتهن بي كن يرسلن أيضا خصيا مسؤولا ليبلغهن بكيفية " تناول الطعام الامبراطورى " . وهذه أيضا كانت مجرد شكلية ، لأنى مهما كنت آكل كان الخصى يذهب اليهن ثم يركع أمامهن ويقول : " عبدكم يبلغ سادته : السيد الطويل العمر قد تناول طاسة من الأرز القديم (او الأرز الأبيض) ، وخبزا صينيا (او فطيرة

واحدة) وطاسة من العصيدة . واكل بشهية !

وفى عيد رأس السنة الصينية وغيره من الأعياد وفى أعياد ميلاد الزوجات العليات كان مطبخي يرسل مأدبة اليهن علامة على بري بهن . وهذا الطعام يمكن ان يوصف بأنه غال ومبهرج ولكن دون ان يكون جيدا ، او شهيا او طيب المذاق .

ووفقا للمدون فى أحد أشهر السنة الثانية من عهدى استهلكت أنا والامبراطورة الأرملة لونغ يوى والزوجات العليات ٣٩٦٠ جين (١٢) من اللحم (أكثر من طنين) و٣٨٨ دجاجة وبطة ، كان نصيبي منها ٨١٠ جينات من اللحم و٢٤٠ دجاجة وبطة وكان عمري حين ذاك أربع سنوات . وبالاضافة الى ذلك كانت هناك حصة شهرية لاهل القصر الذين لا يحصى عددهم ممن يخدموننا : أعضاء مجلس البلاط ، الحرس الامبراطورى ، المعلمين الخصوصيين ، أكاديميي هانلين ، المصورين والناس الذين يرسمون الشكل الخارجى للشخصيات ، الخصيان ذوى المكانة ، عرافي سامان الذين كانوا يحضرون كل يوم للتضحية للأرواح ، وكثير غيرهم . وقد بلغ استهلاك لحم الخنزير لي وللامبراطورة الأرملة وللزوجات العليات ولهذه الحاشية الكبيرة ١٤٦٤٢ جينا قيمتها ٢٣٤٢,٧٢ تايلا من الفضة . وعلى رأس ذلك الأطباق الاضافية التى كانت تقدم الينا كل يوم ، والتى كانت تكلف غالبا أضعاف المبلغ السابق . وفى نفس الشهر الذى سبق ذكره كان هناك ٣١٨٤٤ جينا من اللحم الاضافى ، و٨١٤ جينا من شحم الخنزير الاضافى ، و٤٧٨٦ دجاجة وبطة ، ناهيك عن السمك والاربيان (الجمبرى) والبيض . وجميع هذه المواد الاضافية كلفت ١١٦٤١,٠٧ تايل من الفضة ، ومع المواد المتنوعة الأخرى التى تضاف الى النفقة الاجمالية يصل المبلغ الى ١٤٧٩٤,١٩ تايل من الفضة . وواضح ان كل هذه النقود (عدا ما كان يختلس) كانت تبذر لاظهار عظمة الامبراطور . وهذا الرقم مع ذلك لا يشمل كلفة الكعك والفاكهة والحلويات والمشروبات التى كانت تبدد على الدوام .

وكما ان الطعام كان يطبخ بكميات هائلة ولا يؤكل كانت كمية كبيرة من الملابس تفصل ثم لا تلبس أبدا . لا أستطيع الآن ان أتذكر الكثير بهذا الصدد ، ولكنني أعرف انه بينما حددت الامبراطورة الأرملة والزوجات العليات لأنفسهن حصصا سنوية ثابتة ، لم تكن هناك حدود لحصة الامبراطور الذى كانت خياطة ثيابه الجديدة تستمر على مدار السنة . ولا أعرف بالضبط ما كان يفصل ، ولكن كل ما لبسته كان دائما جديدا . وامامي حساب عديم الميعاد فيما يلي " قائمة المواد التى استخدمت فعلا فى تفصيل ملابس جلالته المستخدمة بدءا من اليوم السادس من الشهر العاشر الى اليوم الخامس من الشهر الحادى عشر " ، ووفقا لهذه القائمة فصلت لي فى ذلك الشهر الثياب التالية : احدى عشرة سترة من الفرو ، وستة أثواب داخلية وخارجية من الفرو ، وصدريتان من الفرو ، وثلاثون صدرية وبنطالا مبطنة بالقطن . وباستثناء كلفة المواد الرئيسية وأجرة التفصيل وصلت فاتورة المواد الصغيرة مثل الحواشى والجيوب والأزرار والخيطان الى ٢١٣٧٫٦٣٣٥ درهم فضى كبير .

وغياراتى من الثياب كانت تتم كلها بانتظام ، وكان ذلك من مسؤولية خصيان مخازن الثياب . ويبلغ عدد الأزياء التى اغيرها فى مدة معينة حوالى ثمانية وعشرين زيا بدءا من الثوب ذى الفرو الأسود و الابيض المطعم الذى بدأت لبسه فى اليوم التاسع عشر من الشهر القمرى الاول الى ثوب فرو والسمور الذى لبسته فى اليوم الاولى من الشهر الحادى عشر . وغنى عن القول ان ملابسى كانت أكثر تعقيدا فى الأعياد والاحتفالات .

ولترتيب كل هذه الابهة الباذخة كان هناك طبعا تكاثر ملائم من المكاتب والعاملين . فادارة أسرة تشينغ التى كانت تدير شؤون الأمبراطور الداخلية كان تحت سلطتها سبعة مكاتب كبيرة وثمانية وأربعون مكتبا صغيرا والمكاتب السبعة هى : مكتب الخزن ومكتب الحرس ، ومكتب التشريفات ، ومكتب الحساب ، ومكتب حفظ المخزون ، ومكتب الانضباط ، ومكتب البناء .

وكان لكل من هذه المكاتب غرف للخزن ومشاغل وغير ذلك . فمكتب الخزن مثلا كان لديه مخازن للفضة والفرو والخزف والساتان والملابس والشاى . ووفقا لقائمة مؤرخة فى سنة ١٩٠٩ وصل عدد العاملين فى ادارة أسرة تشينغ الى ١٠٢٣ شخصا (باستثناء حرس القصر والخصيان والخدم المعروفين باسم " السولا ") . وفى السنوات الأولى من الجمهورية انخفض هذا العدد الى حوالى ٦٠٠ وفى الوقت الذى غادرت فيه القصر الامبراطورى كان مايزال هناك أكثر من ٣٠٠ . وليس من الصعب ان نتخيل منظمة كبيرة كهذه تضم هذا العدد الكبير من الناس ، ولكن تفاهة بعض وظائفها كانت مما لا يمكن التفكير فيه تقريبا . ان أحد الثمانية والأربعين مكتبا كان ، مثلا ، غرفة روبى قوان ، مهمتها الوحيدة مساعدة الامبراطورة الأرملة والزوجات العاليات على الكتابة والرسم ، فاذا أرادت الامبراطورة الأرملة ان ترسم شيئا ما فان هذه الغرفة تقوم بالرسم الاولى بدلا منها ، بحيث يكون كل ما تفعله هو ان تملأ الألوان وتكتب عليه عنوانا . اما خط المقاطع الصينية المكتوبة على الألواح الكبيرة فكان يرسمه خبراء " قاعة الاجتهاد الكبيرة " ، أكاديميو هانلين . ان تخطيطات أسرة تشينغ الأخيرة التى يزعم انها بخط يد امبراطورة أرملة او امبراطور قد تمت كلها تقريبا بهذه الطريقة .

كانت المبانى التى تحيط بي من كل ناحية وأثاث القصر ، مما أوحى به تفكيرى . وبالاضافة الى الآجر المزجج الأصفر الذى كان مخصصا لاستخدام الامبراطور كان ارتفاع المبانى يعتبر امتيازا امبراطوريا علمنى من سنى المبكرة انه ليس فقط كل ما تحت السماء أرضا للامبراطور ، بل حتى السماء التى فوق رأسي ليست ملكا لأى شخص آخر . وكانت كل قطعة من الأثاث ومادة تعليمية تذكرنى مباشرة بمركزى هذا . ويقال ان الامبراطور تشيان لونغ قد أمر ذات مرة بأنه يجب ألا يفقد شيء من القصر ، ولا حتى نصلة عشب . وكى يطبق هذا المبدأ وضع بعض نصلات العشب على طاولة

فى القصر وأصدر أوامره بأن تعد كل يوم ليرى أنه لم تفقد منها أية نصلة . وهذا كان يدعى " اتخاذ العشب مقياسا " . وحتى زمنى كانت هذه الست والثلاثون نصلة الذاوية ما تزال محفوظة فى علبية نحاسية مزخرفة بالميناء داخل قصر تهذيب النفوس . وقد ملأنى هذا العشب اعجابا بسلفى لا يحد وكراهية لثورة ١٩١١ لا يكبح لها جماح .

ليست هناك بعد أية طريقة أخرى لحساب التكاليف الهائلة لحياة الامبراطور اليومية حسابا دقيقا ، ولكن تسجيلا يدعى " مقارنة بين نفقات السنة السابعة من عهد شيوان تونغ (١٩١٥) والسنوات الثلاث الماضية " وضعته ادارة أسرة تشينغ ، يبين ان النفقات سنة ١٩١٥ قد بلغت ٢٧٩٠٠٠٠ تايل من الفضة ، وقد انخفض هذا المبلغ فى كل من السنوات الثلاث التالية ، ولكنه ظل دائما أكثر من ١٨٩٠٠٠٠ تايل من الفضة . وهكذا وبالتشجيع من السلطات الجمهورية ، واصلنا تبذيرنا الهائل لعرق ودم أبناء الشعب كى نحافظ على أبهتنا السابقة ونستمر فى طريقتنا الطفيلية فى الحياة .

على ان بعض الأنظمة داخل القصر لم يكن أصلا لمجرد الأبهة . فالنظام الذى يقضى بأن تكون لجميع أطباق الطعام شرائط من الفضة ضد السم وان يذاق الطعام قبل ان يأكله الامبراطور ، واجراءات الأمن الاحتياطية الواسعة كلما خرج الامبراطور كانت كلها أساسا لحمايته من أية محاولة اغتيال . وقد قيل ان السبب فى عدم وجود مراحيض خارجية للاباطرة هو ان احد الأباطرة تعرض لمهاجمة سفاك بينما كان خارجا لقضاء الحاجة . وهذه القصة مع كل هذا العرض قد تركت عندى نفس الانطباع : أعتقد بأننى كنت شخصا مهيبا عظيم الأهمية وانسانا فريدا فى حكم الكون وملكه .

الأمهات والابن

عندما دخلت القصر بصفة ابن بالتبنى للامبراطورين تونغ تشى وقوانغ شيوى أصبحت جميع زوجاتهما أمهاتى . وهذا معناه ، وفقا للتسجيلات السلالية الرسمية فى أسرة تشينغ ، انى أصبحت على نحو أولى ابنا لتونغ تشى وعلى نحو ثانوى فقط ابنا لقوانغ شيوى . ولكن الامبراطورة زوجة قوانغ شيوى ، الامبراطورة الأرملة لونغ يوى ، تجاهلت ذلك واستخدمت سلطتها بوصفها أمبراطورة أرملة لابعاد الزوجات الثلاث لتونغ تشى لتجرئهن على مناقشة هذا الأمر معها . وقد ظللن بقية حياتها لا يحسبن أمهاتى ، وكذلك لم تحصل العقيلة جين زوجة قوانغ شيوى على معاملة أم ثانوية . وعندما كنا أنا ولونغ يوى نأكل معا جالسين كان عليها أن تأكل واقفة . وبعد موت لونغ يوى اتحدت زوجات تونغ تشى الثلاث مع العقيلة جين زوجة قوانغ شيوى ليقدمن قضيتهن الى الأمراء والنبلاء ونجحن فى الحصول على لقب الزوجات العليات ، ومنذ ذلك الحين بدأت أخاطبهن جميعا بـ " أمى الجليلة " .

وعلى الرغم من انه كان لي كثير من الأمهات الا اننى لم أعرف الحب الأمومى ابدا . وغاية ما أستطيع تذكره اليوم هو أن الاهتمام العظيم الذى كن يظهرنه دائما كان ارسال الطعام لي فى كل وجبة وسماع تقرير الخصى بأننى اكلت " بشهية " .

والحقيقة اننى لم أكن قادرا على " تناول الطعام الامبراطورى بشهية" وأنا صغير ، حيث كنت أشكو من ألم فى المعدة ، ذلك الألم الذى ربما تسبب عن " حبهن الأمومى " . وذات مرة ، وأنا فى الخامسة من عمرى ، أتخمت نفسى بالكستناء ، فبقيت طوال شهر أوأكثر لا تسمح لي الامبراطورة الأرملة لونغ يوى أن آكل الا عصيدة الأرز المسفوعة ، ومع اننى كنت أبكى

من الجوع الا أنه لم يلتفت الي أحد . وأتذكر أنني كنت ذات يوم خارجا للتنزه على شاطىء احدى البحيرات داخل القصر ، فطلبت الامبراطورة الأرملة من احد العاملين أن يحمل الي قطعا من خبز البخار اليابس كي أطعم السمك ، فلم أستطع كبح نفسى عن دفع أحد هذه الأقراص الى فمى . ولقد شددت لونغ يوى تحريماتها علي غير شاعرة بأدنى عطف ازاء جوعي ، وقد زادت ذلك فى رغبتى فى سرقة الطعام . وذات يوم لاحظت ان " طعام الاجلال " الذى أرسله الأمراء الى الامبراطورة الأرملة قد وضع فى الممر الغربى من القصر ، فشققت طريقى مباشرة الى احدى علب الطعام وفتحتها ، فرأيتها ملأى بلحم الخنزير البارد ، فقبضت على قطعة وغرزت فيها أسنانى . فشحبت وجوه الخصيان الذين كانوا معي من شدة الخوف واندفعوا نحوى لينتزعوها مني . فأبديت مقاومة مستميتة ، ولكن بسبب صغري وضعفي اختطفت تلك اللقمة اللذيذة حالما رفعتها الى فمي .

وحتى بعد ان سمح لي ثانية بالأكل على نحو طبيعى ظللت أعانى من المتاعب . فذات مرة لاحظ خصى من المرتبة الدنيا أننى قد التهمت ستة فطائر محشوة باللحم ، فخشى ان أكون قد أتخمت ، لذلك فكر فى طريقة لمساعدتي على هضمها ، فطلب من خصيين آخرين أن يرفعانى من ذراعى ثم يدقا بي الأرض دقا شديدا . وقد أحسوا عندها بالزهو قائلين ان الفضل يرجع اليهم فى اننى لم أعان اى ألم من أكلي تلك الكعكات .

يبدو هذا غير معقول الى حد ما ، ولكنى واجهت من اللامعقول الحقيقى ما يزيد عليه غرابة . لقد كنت كلما فقدت صبري أو خرجت عن طوري ، وانا فى السابعة او الثامنة من عمرى ، يقوم الخصى الرئيسى بالتشخيص ووصف العلاج التالى : " السيد المديد العمر فى قلبه نار . فليقم بالغناء لفترة من الوقت كى يطردها . " فيغلق علي حينذاك داخل غرفة صغيرة غالبا ما تكون غرفة مهملة فى جناح المدرسة تلقى فيها الكراسى غير المستعملة . وبمجردما

كنت أخلو فيها لنفسي ، لا يعود مهما كم أشتم او أركل الباب او أتوسل او أصرخ ! ولا يدعونني أخرج الا عندما انهى الصراخ والبكاء ، او ما يسمونه " الغناء " و" طرد النار " .

هذا العلاج الغريب لم يكن من اختراع الخصيان او الامبراطورة الأرملة لونغ يوى ، لقد كان تقليدا عائليا عانى منه اخوتي واخواتي كذلك فى منزل والدي .

عندما بلغت السابعة ماتت الامبراطورة الأرملة لونغ يوى . وكل ما أستطيع تذكره عن " حبها الأمومى " هو ما ذكرته آنفا .

وقد عشت مدة أطول الى حد ما مع الزوجات العليات الأربع . وكان طبيعيا أننى لم أرهن الا قليلا ، وانني لم أجلس وأتحدث معهن أبدا على نحو مألوف وودى . كان علي كل صباح ان أذهب لأقدم لهن احتراماتى . فيضع خصى وسادة مغطاة بحرير أصفر على الأرض كى أركع عليها ، وبعد الركوع لهن لحظة أنهض وأقف جانبا منتظرا منهن ابداء ملاحظاتهن المعتادة . وفى ذلك الوقت من النهار يكن قد مشطن شعورهن على أيدى الخصيان ، ثم يسألنني : " هل نام الامبراطور جيدا ؟ " او ينصحنني بلبس ثياب أكثر دفئا بسبب برودة الجو ، او يسألننى الى أين وصلت فى الكتاب الذى أدرسه . وهكذا دائما — بضع ملاحظات فاترة ومكرورة . وأحيانا كن يعطينني بعض اللعب الفخارية ، ثم يقلن لي : " اذهب الآن والعب أيها الامبراطور. " ثم أخرج ، ولا أراهن بعدها بقية النهار .

كانت الامبراطورة الأرملة والزوجات العليات يخاطبنني بكلمة " امبراطور " كما كان يفعل والداي الحقيقيان وجدتي . وكل من سواهم كان يدعونى بكلمة "جلالتكم" . وعلى الرغم من أنه كان لي اسم عادى و" اسم حليب " (١٣)، الا أن جميع أمهاتى لم يستخدمن هذا الاسم فى طفولتى . لقد سمعت الآخرين يقولون انهم عندما يتذكرون " أسماء الحليب " التي كانت لهم

كان ذلك يذكرهم بطفولتهم وبحب أمهاتهم . أما اسمي فلم يكن يسبب لي مثل هذا التداعى . ولقد أخبرنى أناس أيضا أنهم كلما شعروا بالمرض خلال دراستهم بعيدا عن بلدهم بدأوا التفكير فى أمهاتهم ، وكيف كانت أمهاتهم تريحهم عند مرضهم وهم أطفال . وغالبا ما كنت مريضا فى سنى الراشدة ، ولكن الزيارات التي تلقيتها من الزوجات العليات ، عندما كنت أمرض وأنا طفل ، لم تجعلنى أبدا أشعر بالحنين اليهن .

كنت دائما ما أصاب بالزكام ، والأنفلونزا عندما يصبح الجو باردا . وكلما كان هذا يحدث كانت الزوجات العليات يحضرن لرؤيتي واحدة بعد الأخرى . وكل منهن تسأل نفس السؤال : " هل الامبراطور فى حالة أفضل ؟ هل تعرقت على نحو جيد ؟ " ولا تطول زيارتها لي على دقيقتين او ثلاث . ولدي ذاكرة قوية نوعا ما عن حشود الخصيان الذين كانوا يصاحبونهن ويحتشدون فى غرفة نومي الصغيرة . كانوا يروحون ويجيئون فى غضون بضع دقائق مثيرين بذلك الفوضى فى جو غرفتي وحالما تغادر زوجة علية تصل أخرى ، فتزدحم الغرفة ثانية . ومع أربع زيارات فى اليوم الواحد يضطرب الجو أربع مرات . ومن حسن الحظ اننى كنت أتحسن دائما فى اليوم التالى ، فيعود الهدوء الى غرفة نومي ثانية .

وعندما كنت أمرض كانت الأدوية تعد فى صيدلية داخل قصر الزوجة العلية دوان كانغ التى تمتعت بعد وفاة لونغ يوى بنفس مركزها بمساعدة يوان شى كاى ، رغم انها أصغر الزوجات العليات ، وبذلك أصبحت أمى الرئيسية .

وهكذا بلغت سن الثانية عشرة أو الثالثة عشرة تحت " عناية " أمهاتي الأربع وكنت شأني شأن أى طفل آخر ، مولعا باللعب الجديدة ، وقد حاول بعض الخصيان ادخال السرور الى نفسى بشراء أشياء مسلية لي من الخارج . وذات مرة جاءنى خصى ببدلة رسمية احتفالية لجنرال من الجمهوريين مع ريشة فى قبعتها مثل مذبة من الريش وسيف وحزام عسكريين . وعندما لبستها

شعرت بالزهو الشديد ، ولكن عندما سمعت الزوجة العلية دوان كانغ بذلك غضبت غضبا شديدا وأمرت باجراء التحقيق فى هذا الأمر . وقد انكشف لها ايضا اننى كنت لابسا جوارب أجنبية اشتراها خصيان من خارج القصر . فاعتبرت كل هذا شيئا لا يحتمل ، واستدعت الخصيين الى مقرها ، وأمرت بضرب كل منهما مائتى ضربة بعصا غليظة وخفضت مرتبتيهما ، وأرسلتهما الى مكتب التنظيف ليعملا هناك خادمين وضيعين . وبعد ان عاقبتهما هذه العقوبة ارسلت فى طلبي وألقت علي محاضرة عن عار امبراطور أسرة تشينغ العظيم فى لبسه ملابس الجمهوريين والجوارب الأجنبية . ولم يكن أمامى من خيار الا ان أخلع عنى بدلتي المحبوبة وسيفي ، وكذلك جواربي الأجنبية ، وأستبدل بها ملابس البلاط والجوارب القماشية المطرزة بتصاميم التنين .

لو ان الزوجة العلية دوان كانغ حصرت سيطرتها علي فى حدود البدلات والجوارب الأجنبية لما ثرت عليها فيما بعد . ومع ذلك فان سيطرة كهذه لم تزد على ان جعلتنى أكثر ادراكا لتفردى عن عامة الناس ، وعززت الدروس التى كنت أتعلمها فى حجرة درسي حيث اعتقدت انها من أجل تربيتي أمرت بضرب الخصيين ووبختني ذلك التوبيخ .

لقد اتخذت دوان كانغ من الامبراطورة الأرملة تسى شى مثالا تحتذيه ، رغم ان شقيقتها ماتت على يدها ، وهي لم تتعلم من تسى شى كيفية الجلد الوحشى للخصيان فقط بل وصارت ترسلهم للتجسس علي كما كانت تسى شى تفعل . ثم ابعدت الخصيين المقربين وخصصت لخدمتي خصيها المقرب فكان يزودها بتقرير يومى عن سلوكي . وهذا بالضبط ما كانت تفعله تسى شى ازاء قوانغ شيوى . ومهما كان دافعها الى ذلك ، فان هذا التصرف كان يجرح كبريائي . ثم ان معلمي الخصوصى تشن باو تشن الذى سخط أشد السخط لهذا التصرف شرح لي النظرية المتعلقة بالفرق بين الزوجات الأوليات والزوجات الثانويات ، تلك الفئة التى تنتمى اليها دوان كانغ ، فزاد من حنقي وغيظي .

حدث الانفجار بعد مدة غير طويلة من طرد دوان كانغ لأحد الأطباء الامبراطوريين . والقضية لم يكن لها فى الواقع علاقة بى حيث ان الطبيب صاحب المشكلة كان واحدا من أولئك الذين يعنون بدوان كانغ ، ولكننى سمعت بعض الامور المثيرة كملاحظة معلمى الخصوصى التالية : " مع انها مجرد زوجة علية الا ان تصرفها آخذ فى الاشتطاط . " كما قال لي أحد الخصيان : " ألن يصبح السيد المديد العمر قوانغ شيوى آخر ؟ " ان شؤون كلية الأطباء يجب ألا يتم تصريفها الا على يد السيد المديد العمر . فحتى عبدكم لا يستطيع ان يتحمل رؤية أشياء كهذه تحدث . فانطلقت أزمجر فى ثورة غضب قاصدا قصر دوان كانغ ، وحالما رأيتها صحت قائلا : " لماذا طردت الطبيب ؟ لقد اسرفت كثيرا . ألست انا امبراطورا ؟ من يعطيك هذا الحق ، لقد مضيت بعيدا ! "

ولم أنتظر رد دوان كانغ التى امتقع وجهها غضبا ، بل خرجت مباشرة آتيا بحركة من كمى . وعندما عدت الى حجرة الدرس غمرنى المعلمون الخصوصيون بالثناء .

وأرسلت دوان كانغ الملتهبة غضبا فى استدعاء والدى وأمراء آخرين ، وطلبت منهم المشورة وهى تنحب ، فلم يجرؤ اى منهم ان يشير عليها . وعندما سمعت هذا الخبر دعوتهم الى مكتبتى وقلت لهم بمعنويات عالية : " من تكون هى ؟ انها مجرد ضرة . لم يحدث قط فى تاريخ أسرتنا ان دعا الامبراطور الضرة ' أما ' . ألا ينبغى ان نحافظ على التمييز بين الزوجات الرئيسيات والزوجات الثانويات ؟ اذا كان لا ، فلماذا لا يدعو أخى زوجات الأمير الثانويات ' امهات ' له ؟ لماذا ينبغى لي ان أدعوها ' أما ' ؟ لماذا ينبغى لي ان أطيعها . "

وتلقى الأمراء تقريرى هذا بالصمت .

وجاءتنى احدى الزوجات العليات ، وكانت على علاقة سيئة بدوان

كانغ خصيصا لتخبرني بأن دوان كانغ قد استدعت أمي الحقيقية وجدتي للقائها ، ويحسن لي ان أكون حذرا . وقد جاءتا بالفعل ، وحيث ان دوان كانغ لم تكن لها مكانة عند الأمراء فان صخبها قد ترك بعض التأثير عليهما : فجدتي خاصة ذعرت وسقطت على الأرض راكعة مع أمي متوسلتين الى دوان كانغ ان تخفف من حدة غضبها ، ووعدتاها باقناعي بالاعتذار . ورأيت أمي وجدتي في احد أجنحة قصر السلام الدائم (يونغ خه قوانغ) الذى كانت تقيم فيه دوان كانغ وسمعت ان الزوجة العلية ما تزال تعربد غاضبة في القاعة الرئيسية . وودت في البداية ان أذهب وأشتمها ، ولكن لعدم قدرتي على التماسك أمام دموع أمي وجدتي وتضرعهما المستميت لنت ووعدت بالاعتذار من دوان كانغ .

وذهبت ممتعضا وحييت دوان كانغ دون أن أنظر اليها متمتما : " أمي الجليلة ، لقد أخطأت . " وعدت ثانية ، فكفت دوان كانغ عن البكاء ، واستعاد وجهها حيويته . وبعد يومين سمعت ان أمي قد قتلت نفسها .

ان أمي لم يسبق لها أن عنفت قط . وكانت لها شخصيتها القوية ، لذلك كانت هذه الصدمة شيئا كبيرا جدا بالنسبة اليها ، فعندما عادت من القصر ابتلعت جرعة مميتة من الأفيون . وخوفا من أن أمعن التدقيق في ظروف موت أمي غيرت دوان كانغ معاملتها لي تغييرا تاما .

فلم تعد تقيد نشاطاتي نهائيا ، وأصبحت معتدلة جدا . وبذلك عادت حياتي العائلية داخل المدينة المحرمة مستقرة كالسابق ، وعدت والزوجات العليات ابنا وأمهات . ولكن حياة أمي كانت ثمنا لذلك .

الدراسة في قصر يوى تشينغ

عندما أصبحت فى الخامسة من عمري اختارت لي الامبراطورة الأرملة لونغ يوى معلما خصوصيا ، وأمرت منجما بأن يختار يوما ميمونا أبدأ فيه دراساتي . وكان اليوم هو ١٠ سبتمبر ١٩١١ .

كانت حجرة درسى الأولى فى جزيرة فى احدى بحيرات القصر ، ولكننى غيرتها بعد ذلك الى قصر يوى تشينغ ، وهو مبنى صغير نوعا ما داخل المدينة المحرمة . وقد ضم مكتبتين أثثتا على نحو أبسط مما كانت عليه حجرات القصر الأخرى . وكانت تحت النافذة الجنوبية منضدة طويلة ، وضع عليها مشجب للقبعة وزهريات . وبمحاذاة الجدار الغربى بنى سرير كانغ كنت أجلس عليه فى البداية وأدرس على منضدة كانغ صغيرة واطئة . وبعد ذلك جلست الى طاولة ، وكانت هناك طاولتان أخريان بمحاذاة الجدار الشمالى عليهما كتب وقرطاسية . وعلى الجدران علقت لوحات مواعظ خطها جدي ، الأمير تشون الأول ، لابنه الامبراطور قوانغ شيوى . وأكثر ما يلفت الانتباه فى تلك الغرفة كان ساعة ضخمة قطرها متران وعقاربها أطول من ذراعي . وآلتها كانت على الجانب الآخر من الجدار ، ولكى تديرها كان لابد لك من الذهاب الى الغرفة الأخرى واستخدام شيء كمقبض الانطلاق فى السيارة . ولا أذكر من أين جلب هذا الشيء الضخم الغريب ولماذا وضع هناك ، كما اننى لا أذكر كيف كان صوتها أو الى أى مدى كان ارتفاع رنين أجراسها كلما مضت ساعة من الوقت .

ولكن على الرغم من الحجم الهائل لتلك الساعة ، الا ان الصبى الذى كان يدرس هناك لم تكن عنده أية فكرة عن الوقت ، حيث أننى كنت أقدر ذلك من الكتب التى أدرسها . فنصوصها الأساسية هى الكلاسيكيات

الثلاث عشرة ، ولقد درست أيضا كتبا مثل « شرح العلم العظيم » و« مآثر أسلافى » و« تاريخ تأسيس أسرة تشينغ » والخ . وعندما بدأت دراسة الانكليزية فى سن الثالثة عشرة كان الكتابان الوحيدان اللذان درستهما باستثناء كتاب القراءة الانكليزية هما « اليس فى بلاد العجائب » والترجمة الانكليزية لـ « الكتب الأربعة الكبرى » وأخذت بعض الدروس الأساسية فى لغة المانشو ، ولكن قبل ان أصبح قادرا على استخدام أبجديتها مات معلمي يي كه تان وتوقفت دروسي . ولم أتعلم شيئا من الرياضيات ، ناهيك عن العلوم حتى عام ١٩٢٢ . أما فيما يتعلق ببلادى ، فقد درست فقط أحداثا مثل « اصلاح تونغ تشى وقوانغ شيوى » ومعرفتي عن البلدان الأجنبية كانت مقصورة على الرحلة مع " اليس الى بلاد العجائب " . وكنت أجهل تماما جورج واشنطن ونابليون واختراع وات للمحرك البخارى ونيوتن وتفاحته . وكل ما عرفته عن الكون هو فقط أن " القطب الكبير أنتج الصيغتين ، والصيغتان أنتجتا الرموز الأربعة ، والرموز الأربعة أنتجت الشكل الثمانى الزوايا (١٤) . " ولو لم يكن المعلمون الخصوصيون على استعداد للثرثرة معى عن الأشياء التى لم تكن ضمن مواد دراستى ، ولو اننى لم أقرأ شخصيا المزيد من الكتب لما عرفت أين موقع بكين فى الصين أو أن الارز يزرع فى الأرض . وفى التاريخ لم يجرؤ أحد على نسف الخرافات المتعلقة بأصول أسلافى من أسرة تشينغ ، أما بالنسبة للاقتصاد ، فلم تكن عندي فكرة عن سعر جين واحد من الأرز . ولذلك ظللت لفترة طويلة أعتقد أن أول سلف لي قد ولد بعد ان ابتلعت الآلهة فوكولون ثمرة حمراء ، وان عامة الناس كانت لهم دائما مائدة مغطاة بالأطباق فى كل وجبة .

ونظرا الى اننى قرأت عددا هائلا من الكتب القديمة خلال مدة طويلة كان من المتوقع ان تكون لي خبرة وافية بالأدب الصينى الكلاسيكى . وفى الحقيقة أننى لم أفعل وفقا لما يمليه الضمير . وفيما عدا تعللي بالأمراض البسيطة ،

كنت أطلب أحيانا من أحد الخصيان أن يبلغ المعلمين الخصوصيين بأن عليهم أن يأخذوا عطلة يوم واحد اذا كنت لا أشعر برغبة فى الدراسة وليس لدى عذر أفضل . وبقيت حتى سن العاشرة مهتما بشجرة سرو خارج قصر يوى تشينغ أكثر من اهتمامي بكتبى . وفى الصيف كانت هناك على الدوام نمال تتسلق هذه الشجرة صاعدة هابطة ، فكنت أهتم بها اهتماما شديدا وأقرفص غالبا عند الشجرة مستغرقا فى مراقبة النمال ، او أقوم باطعامها فتات الكعك وأساعدها على نقل طعامها بحيث أنسى وجباتي . وفيما بعد أخذت أهتم بالجداجد وديدان الأرض ، لذلك كثيرا ما اقتنيت طاسا خزفيا وجرة لحفظ هذه الحشرات فى داخلهما . ولم أكن شديد الشوق الى دروسى ، وعند قراءتي كتبي كنت أشعر بارهاق لا يحتمل وينحصر تفكيرى فى الخروج لرؤية أصدقائى الحشرات .

فى اوائل عشرياتى بدأت أفهم ان كتبي المدرسية فيها ما يخصنى ، وكبرت وانا اهتم فى كيف أكون " امبراطورا جيدا " وفى " كيف يكون الامبراطور امبراطورا " وفى " اى مغزى سماوى يكمن فى هذا " . وقد انشد انتباهى فى هذه الكتب الى المحتوى اكثر مما الى اللغة والى حقوق الامبراطور اكثر من واجباته . نعم كانت هناك بعض الاقوال الجيدة ، مثل : " الشعب مهم ، وأرواح الأراضى والحبوب تأتى بعده والملك ليس مهما " ، " اذا الملك اعتبر رعاياه كالعشب الكثير فان الرعايا سيعتبرون الملك عدوهم " ، وأشياء أخرى من هذا القبيل . ولكن أكثر هذه التحذيرات كانت موجهة الى الوزراء والناس العاديين . ومثال ذلك القول المأثور التالى : " الحاكم يجب ان يكون حاكما ، والرعية يجب ان تكون رعية ، والآباء يجب ان يكونوا آباء والأبناء يجب ان يكونوا أبناء" . وكتاب النصوص الأول « كتاب البر الكلاسيكى » ، قد تضمن المبدأ الأخلاقى الذى يلزم للمرء بأن " يبدأ بخدمة أحد والديه وينتهي بخدمة سلطانة " وقبل شروعي فى القراءة حول هذه التعاليم الأخلاقية

التى بدت مبهجة لي ، سمعت عنها خلال المحادثة مع المعلمين الخصوصيين ، وفيما بعد كان ما يقولونه لي حول ذلك أكثر مما فى النصوص . وكانت أحاديثهم بشأنها أبعد تأثيرا من نصوص القراءة الكلاسيكية القديمة .

ان كثيرا من الناس الذين درسوا فى مدارس قديمة الطراز قد تعين عليهم ان يحفظوا الكتب عن ظهر قلب ، وبالرغم من بذل الجهود العظيمة المرهقة فى ذلك يقال انها قد اعطتهم بعض النتائج الجيدة . اما انا فلم أتمتع أبدا بهذه الفوائد لأن المعلمين الخصوصيين لم يطالبونى باستظهار النصوص ، مكتفين بجعلى أقرأها عدة مرات .

وربما لمساعدتى على تذكر ما قرأت قرروا ان علي ان أتلو النص للامبراطورة الأرملة لونغ يوى كلما ذهبت لأقدم لها احتراماتى ، وان على الخصى الرئيسى ان يقف خارج غرفة نومي عندما أنهض صباحا ويقرأ دروس اليوم السابق بصوت عال عدة مرات كى أسمعها . ولم يكن أحد مهتما بمقدار ما أتذكر او بمعرفة ان كنت أريد أن أتذكر أو لا أريد .

ولم يجر المعلمون أى اختبار لي لمعرفة اجتهادى ، ولم يعطوني أى موضوع انشائى . وأذكر اننى كتبت بعض الأبيات والقصائد ولكن المعلمين الخصوصيين لم يعلقوا عليها أبدا ، ناهيك عن تصحيحها ، ولكننى كنت قادرا على الكتابة وانا غلام . ونظرا الى ان المعلمين الخصوصيين لم يهتموا بمثل هذه الترهات ، فقد كتبتها سرا بقصد التسلية . ومن سن الثانية عشرة او الثالثة عشرة بدأت أقرأ الكثير للمتعة . فقرأت كتب التاريخ غير الرسمية عن أسرتى مينغ وتشينغ ، والروايات التاريخية الرومانسية ، وحكايات الفرسان والمقاتلين مع القوى السحرية والقصص البوليسية من عهد تشينغ الأخير والفترة الجمهورية الأولى وسلسلة الروايات الصادرة عن المطبعة التجارية . وعندما كبرت قليلا قرأت بعض القصص الانكليزية . وتقليدا منى لجميع هذه الأعمال الصينية والغربية ، القديمة والحديثة اخترعت ودبجت كثيرا من

القصص الخيالية المستقاة من أحلام يقظتى من أجل متعتى الخاصة ليس الا . وأرسلتها للنشر تحت أسماء مستعارة ولكننى كنت أمنى دائما بخيبة أمل . وأذكر اننى نسخت مرة قصيدة لشاعر من أسرة مينغ ، وأرسلتها الى صحيفة صغيرة تحت اسم مستعار " دنغ جيونغ لين " فانطلى ذلك على المحرر ونشرها . ولم يكن هو الوحيد الذى انخدع بى فمعلمى الخصوصى للغة الانكليزية ريغنالد جونستون ترجمها الى الانكليزية ووضعها فى كتابه « الشفق داخل المدينة المحرمة » شاهدا على " الموهبة الشعرية " لتلميذه :

ان المادة التى كنت فيها ضعيفا جدا هى المانشوية : فقد تعلمت كلمة واحدة فقط خلال كل السنوات التى درستها فيها ، وكانت تلك الكلمة هى يى لي (انهض) ، وهى الجواب الذى كنت استخدمه عندما كان وزرائى المانشويون يركعون أمامى وينطقون مجموعة من عبارات التحية فى لغتهم .

وعندما أصبحت فى الثامنة فكروا فى طريقة أخرى تجعلنى أدرس على نحو أفضل : فضموا الي بعض الزملاء من الطلبة . خصصوا لكل منهم مرتبا شهريا يعادل ثمانين تايل من الفضة مع ما يشتهون من الامتيازات ، كأن يسمح لهم بركوب الخيل داخل المدينة المحرمة . ومع ان تلك الفترة كانت فترة الجمهورية ، الا أن ذلك كان ما يزال يعتبر شرفا عظيما من شباب العشيرة الامبراطورية ، والمتسلمون الثلاثة لهذه النعم هم أخي بو جيه ويوى تشونغ (ابن عمي بو لون) وبو جيا (ابن عمى تساى تاو) . وقد منحوا شرفا آخر هو ان يعنفوا نيابة عن امبراطورهم فى المدرسة : فعندما كنت أخطىء فى قراءة دروسى كان المعلم يوبخ واحدا من هؤلاء الزملاء . وبما ان بو جيه كان أخى فان الضحية كان دائما تقريبا يوى تشونغ الذى ساءت دراسته بالطبع عندما وجد نفسه يوبخ سواء قرأ قراءة جيدة او سيئة .

وعندما لم يكن معى زملاء يدرسون كنت كثير الحركة . فاذا شعرت بملل خلعت حذائى وجواربى فيما أنا أقرأ ، ثم وضعت الجوارب على الطاولة ،

فاضطر المعلم الخصوصي الى اعادتهما لي . وذات مرة أحببت ان ألهو بحاجبي معلمي الخصوصي شيوى فانغ ، فطلبت منه ان يقترب منى بحيث أمسدهما له ، وعندما جاءنى طائعا خافضا رأسه انتزعت فجأة شعرة من حاجبيه . وبعد ان مات قال الخصيان جميعا ان سبب موته هو ان " السيد المديد العمر " قد اقتلع حاجبه الذى يشير الى طول العمر . ومرة أخرى جعلت معلمى الخصوصى لو رون شيانغ يغضب منى أشد الغضب بحيث نسى التمييز بين حاكم ومحكوم وذلك حين رفضت قراءة احد النصوص لاننى كنت أرغب فى الخروج الى الحديقة ومراقبة نمالي . وقد حاول فى البداية أن يقنعنى بالقراءة فاستشهد بقول مأثور : " لايمكن للمرء ان يكون سيدا حقيقيا الا اذا ملك التهذيب والمعرفة " ، ولكننى لم أستطع فهم ما كان يرمى اليه ، ومضيت أتململ وأتحرك فى مقعدى . ولما رأى معلمي الخصوصى اننى مازلت مضطربا القى علي قولا آخر : " اذا السيد لم يكن جادا فلن يتسلم سلطة ، وتعلمه لن يكون متينا " . ولكننى نهضت فى نزق وأوشكت على النزول من المقعد ، فخرج عن طوره فجأة وصاح فى وجهى مرعدا : " لا تتحرك ! " فجفلت من الخوف وحسنت فعلا من تصرفى ، ولكن لم يمض وقت طويل حتى عدت أفكر فى نمالي وأتململ ثانية .

وعندما أصبح لدي زملاء فى دراستي تحسنت الأمور بعض الشيء وأصبحت قادرا على تحمل الجلوس فى حجرة الدرس . وكان المعلمون يقومونني كلما أخطأت . أذكر مرة أننى جئت الى حجرة الدرس أعدو فقال المعلم ليوى تشونغ الذى كان جالسا هناك جلوس تلميذ جيد " انظر . . كم أنت طائش ! "

كنت أدرس الصينية كل يوم من الثامنة حتى الحادية عشرة صباحا ، والانكليزية بعد الظهر من الواحدة حتى الثالثة . وقبل الساعة الثامنة كل صباح كنت أحمل فى محفة ذات مظلة صفراء الى قصر يوى تشينغ . وبكلمة منى

" ادعهم " يذهب خصي ويدعو المعلم الخصوصي وزملائي من غرفة الانتظار . وكانوا دائما يدخلون حجرة الدرس وفقا لنظام محدد : أولا خصي يحمل الكتب ، ثم يدخل معلم الدرس الأول ، وأخيرا زملائي . وكان المعلم يقف بالباب وينظر الي في شكل تحية ، ولكن وفقا لقواعد البروتوكول لم أكن مضطرا الى الرد على تحيته لأنه على الرغم من كونه معلمي ، الا انه يظل واحدا من رعيتي ، وانا على الرغم من انني تلميذه أظل سيده . ومن ثم يتقدم بو جيه ويوى تشونغ ويركعان ويقدمان احتراماتهما لي . ومع انتهاء هذه الشكليات نجلس جميعا . فأجلس وحدي في الناحية الشمالية من الطاولة متجها الى الجنوب ، والمعلم يواجه الغرب ، وزملائي يجلسون بجانبه . ويعلق الخصيان قبعات الآخرين على مشجب القبعات ويخرجون ، وعندها يبدأ الدرس .

لقد عثرت على صفحات من يومياتي لعام ١٩٢٠ عندما كنت في الرابعة عشرة . وهذا مقتطف يمكن ان يصلح لاعطاء فكرة عن حياتي عندما كنت أدرس :

٢٧ يوم جميل . نهضت في الرابعة ، وكتبت بالفرشاة ثماني عشرة ورقة بمقاطع صينية كبيرة مثل كلمة " رفاه " ، الدروس في الثامنة . قراءة في مختارات كونفوشيوس شعائر تشو ، سجل الشعائر ، وشعر تانغ مع بو جيه ويوى تشونغ . استمعت الى المعلم الخصوصي تشن يلقي محاضرة في « التاريخ العام مع تعليقات من الامبراطور تشيان لونغ » . انتهيت من الاكل في ٩:٣٠ ، قرأت « سجلات تسوه التاريخية » و« سجلات قو ليانغ التاريخية » . وأستمعت الى المعلم الخصوصي تشو يتحدث عن « شرح التعليم العظيم » وكتبت مقاطع شعرية . انتهت الدروس في الساعة ١١ ، فذهبت لأقدم احتراماتي الى الزوجات العليات الأربع . جونستون لم يحضر اليوم لاصابته بالأنفلونزا ، لذلك عدت الى قصر تهذيب النفوس وكتبت ثلاثين ورقة أخرى بالمقاطع الصينية الكبيرة مثل " الرفاه " و" طول العمر " . قرأت الصحف ، أكلت في الرابعة ، ذهبت

الى الفراش فى السادسة . قرأت « مقتطفات من الادب القديم » فى السرير مستمتعا جدا .

كان معلمي الخصوصى لو رون شيانغ ، من أهالى جيانغسو وهو اكاديمى كبير وقد مات قبل ان ينهى سنة من تعليمى . ويى كه تان الذى علمنى المانشوية أكثر من تسع سنوات كان مانشويا من راية تشنغباى المانشوية ، وقد حصل على مؤهله عبر امتحان القصر بصفة مترجم للمانشوية . وتشن باو تشن ، وهو من فوجيان ، جاء فى نفس الوقت الذى جاء فيه لو رون شيانغ ويى كه تان ، وكان اكاديمى مجلس البلاط ونائب رئيس كتب المراسم ، وهو الوحيد بين المعلمين الخصوصيين الذى مكث معي أطول مدة . وبعد موت لو رون شيانغ تعاقب علي ثلاثة مدرسين آخرين للغة الصينية : نائب رئيس الأكاديمية الامبراطورية شيوى فانغ ، وعضو أكاديمية هانلين تشو يى فان وليانغ دينغ فن الذى اشتهر بزرع الأشجار أمام ضريح قوانغ شيوى .

والمعلم الخصوصى الذى أثر في أعمق تأثير كان تشن باو تشن ، ويليه فى التأثير معلم اللغة الانكليزية ريغنالد جونستون . وكان لتشن شهرة هائلة بصفته معلما فى مسقط رأسه فوجيان ، وبعد اجتيازه امتحان القصر فى عهد تونغ تشى عين عضوا فى أكاديمية هانلين فى سن العشرين ، وبعد دخوله مجلس البلاط الأعلى لمع اسمه بفضل محاججاته مع الامبراطورة الأرملة تسى شى . ولأنه لم يشبه تشانغ تشي دونغ فى تغيير ميوله مع الأهواء السياسية ، خفض خمس درجات من منصبه عام ١٨٩١ بحجة عدم الكفاءة . ثم عاد الى موطنه ليعيش فى عزلة مدة عشرين عاما . وعشية ثورة ١٩١١ رد اليه اعتباره وعين حاكما فى شانشى ، ولكن قبل ان يغادر لتسلم منصبه استبقى فى بكين معلما خاصا لي . ومنذ ذلك الحين الى أن ذهبت الى الشمال الشرقى ظل ملازما لي لم يبرحنى أبدا . لقد كان من أكثر كبار موظفى أسرة تشينغ السابقين ثباتا وحرصا بين حاشيتى ، وفى ذلك الوقت اعتقدت انه أكثر افراد الحاشية ولاء

لي ولـ" أسرة تشينغ العظيمة " . وكنت انا أعول عليه فى جميع الشؤون الكبيرة والصغيرة قبل ان يصبح افراطه فى الحذر قيدا على حريتى فى التصرف .

وكان يردد فى اشادته بى عبارة " مع ان الملك صغير الا انه يستحق لقب ابن السماء " ، مبتسما خلالها حتى تغدو عيناه شقين ضئيلين خلف نظارته ، وممسدا كذلك لحيته البيضاء الرقيقة .

كنت دائما أجد محادثاته ممتعة . وعندما بدأت أكبر أخذت أسأله كل يوم تقريبا عن آخر أخبار الجمهورية . وكان عندما ينتهى من مناقشة هذا الأمر ينتقل ، دائما تقريبا ، الى الحديث عن " اصلاح تونغ تشى وقوانغ شيوى " و" العصر الذهبى لكانغ شى وتشيان لونغ " . وكان مولعا على نحو خاص بسرد القصص عن محاججاته مع الامبراطورة الأرملة تسى شى ، وكلما أشار الى كبار موظفى أسرة تشينغ السابقين الذين أصبحوا يخدمون الجمهورية كان يعتبرهم مرتدين ، وهو فى غاية الاستياء . كان يتكلم كأن الثورة والجمهورية هما أصل جميع الشرور ، والناس المؤيدين لهما ليسوا بأفضل من قطاع الطرق . وكان تعقيبه العام على كل ما يسوؤه العبارة التالية " أولئك الذين يتحدون الحكماء ليست عندهم شريعة ، واولئك الذين يتحدون الطاعة النبوية ليس لديهم آباء وأمهات : وهذا مصدر الفوضى الكبيرة " . وقد أخبرنى بقصة ملك دولة يوه المهزوم الذى نام على الحطب وذاق المر كى يذكر نفسه بخزيها ، وشرح مبدأ " الانسحاب من الشؤون العامة وانتظار الفرصة المناسبة " . وبعد شرحه الوضع الراهن كان غالبا ما ينتهى الى هذا الرأى : " ان الجمهورية لم تظهر الى حيز الوجود الا منذ بضع سنوات ، ولكن كلا من السماء والشعب كانا منذ البداية غاضبين منها ومستائين . وبسبب الخير والسخاء العظيمين اللذين كانا لأسرة تشينغ التى حكمت أكثر من مائتى سنة ، يكن الشعب لهذه الأسرة خالص الود . فالسماء والشعب سينتهيان حتما الى اعادة هذه الأسرة الى السلطة . "

ومن بين المعلمين الخصوصيين الآخرين كان تشو يى فان يحب لعب الماجيانغ (١٥) طول الليل ، مما يجعله نتيجة ذلك يميل الى السبات خلال النهار . كما كان ليانغ دينغ فن مولعا فى سرد القصص عن نفسه . لقد تعودت أن أجد روحا ادبية مستعدة لدى هؤلاء المعلمين الخصوصيين ، ولكنهم لم يظهروا شيئا من زهد الأديب فى الربح عندما دعوتهم ليختاروا لأنفسهم هدايا من مجموعة التحف والكنوز التى فى القصر . وكانوا خبراء أيضا فى اصطياد مراتب الشرف ، وعرفوا كيف يتملقوننى فى تقديم لوحات التهنئة .

وجميع هؤلاء المعلمين الخصوصيين منحوا ألقابا سامية بعد الوفاة بحيث أصبحوا موضع حسد من الأحياء من أسرة تشينغ . ويمكن القول انهم حصلوا منى على كل ما يريدون وانهم أعطونى ردا على ذلك كل ما أريد بالرغم من ان كل ما كسبته فى الدراسة لم يخضع للامتحان فقد أرضيتهم ارضاء عظيما لقدرتي على التمييز بين الولاء والخيانة حين لم أتجاوز بعد الحادية عشرة من عمرى .

وفى السنة التى مات فيها الأمير تشينغ قدمت أسرته طلبا بأن يمنح لقب ما بعد الوفاة ، وأرسلت الي ادارة الأسرة قائمة اقتراحات . وبديهى ان تناقش مسألة كهذه مع المعلمين الخصوصيين ، ولكننى لم أذهب الى حجرة الدرس فى ذلك الوقت بسبب اصابتى بالأنفلونزا . لذلك اضطررت الى اتخاذ قرار بنفسي . ولما وجدت قائمة ادارة الأسرة غير مرضية نبذتها جانبا وكتبت قائمة أخرى بألقاب مهينة جدا ثم أرسلتها الى ادارة الأسرة . فجاء والدي الي بسبب ذلك وطفق بصوته المتلعثم يرجونى ان أتذكر أن الامير ينتمى الى الأسرة الامبراطورية . فرفضت بكل عناد بحجة ان الأمير تشينغ كان خائنا للأسرة .

وعندما ذهبت الى حجرة الدرس فى اليوم التالى وأخبرت تشن باو تشن بالأمر سر غاية السرور وابتسم حتى تحولت عيناه الى مجرد شقين ضئيلين ،

وعبر عن اعجابه واستحسانه التامين بالطريقة التى واجهت فيها أبي . وكان اللقب الذى أختير أخيرا للأمير تشينغ هو اللقب الذى رأيته فى الأصل مهينا ، ولكنه كما اكتشفت فى وقت متأخر فيما بعد ــ يلمح الى أننى قد صفحت عنه .

الخصيان

لن يكتمل وصف طفولتى دون ذكر الخصيان . لقد قاموا على خدمتى فى مأكلى وملبسى ومنامى ، وصاحبونى فى نزهاتى ودروسى ، وقصوا علي القصص ، وتلقوا منى المكافآت والعقوبات . وكانت هناك أوقات لا يكون معى فيها أناس آخرون الا الخصيان الذين لم يبرحونى أبدا . لقد كانوا المصاحبين الرئيسيين لي فى طفولتى ، وكانوا كذلك عبيدى ، وكانوا لي المعلمين الاوائل .

واذا كنت غير متأكد متى بدأ استخدام خصيان البلاط ، فاننى أعرف بالضبط متى انتهى : فى اليوم الذى خلعت فيه عن العرش للمرة الثالثة فى النهاية المنصورة للحرب العالمية الثانية . وهذا ربما كان الوقت الذى كان فيه الخصيان أقل عددا ، اذ لم يكن قد بقى منهم الا عشرة . وقيل انهم كانوا لا يحصون عددا خلال أسرة مينغ (١٣٦٨ــ١٦٤٤) ، حيث وصلوا الى مائة ألف خصى . وعلى الرغم من أنه كانت هناك تحديدات لأعدادهم ووظائفهم خلال أسرة تشينغ ، الا انه كان ما يزال هناك ثلاثة آلاف خصى فى زمن الامبراطورة الأرملة تسى شى . وقد هرب معظمهم بعد نشوب ثورة ١٩١١ ، ومع ان بنود المعاملة التفضيلية نصت على عدم استخدام المزيد من الخصيان ، الا ان ادارة الأسرة استمرت فى استخدامهم سرا . ووفقا لقائمة مؤرخة فى سنة ١٩٢٢ كان ما يزال هناك ١١٣٧ خصيا . وبعد سنتين ، حين أمرت بعزل جماعي للخصيان بقى منهم حوالى ٢٠٠ كان معظمهم يعملون

فى خدمة الزوجات العليات وخدمة زوجاتى (اللاتى كان لديهن ما يقارب مائة وصيفة) . ومنذ ذلك الحين تألف عاملو القصر من الحراس والمرافقين والخدم الذكور وقد بدأ هؤلاء يقتصرون على الحضور نهارا والمغادرة مساء بحيث لا يبقى من الذكور الحقيقيين داخل المدينة المحرمة غير الحراس المناوبين ورجال أسرة الامبراطور .

لقد كانت واجبات الخصيان مكثفة جدا فالى جانب قيامهم بالخدمة طوال ساعات الليل والنهار كانت مهامهم الأخرى وفقا لأنظمة القصر تضم ما يلى : نقل المراسيم الامبراطورية ، اخذ المسئولين الى المقابلات ، تسليم الوثائق الرسمية الصادرة عن مكاتب ادارة الأسرة المختلفة ، استلام الأموال والحبوب التى ترسلها الخزائن من خارج القصر ، مراقبة الحرائق ، العناية بكتب المكتبة والمحافظة على التحف والخطوط والصور والثياب وبنادق الصيد والأقواس والسهام والجوائز الامبراطورية والبرونزيات القديمة والأحزمة الصفراء والفواكه الطرية والجافة ، احضار الاطباء الامبراطوريين للعمل داخل القصور المتعددة ، الاشراف على المواد التى يستخدمها داخل القصر بناؤون من الخارج ، اشعال البخور أمام سجلات ووصايا أسلاف الامبراطور وصورهم وأمام الآلهة ، تفتيش القادمين والخارجين من موظفى الدوائر المختلفة ، تدوين اسماء الزائرين من أعضاء أكاديمية هانلين واسماء ضباط الحرس ، حفظ الأختام الامبراطورية ، تسجيل تصرفات العاهل ، جلد الخصيان والوصائف المذنبين ، اطعام مختلف الكائنات الحية داخل القصر ، تكنيس مبانى القصر وترتيب الحدائق ، اختبار دقة الساعات المنبهة ، حلاقة شعر الامبراطور ، تحضير الدواء ، الاشراف على الأوبرا ، القيام بالتراتيل البوذية وحرق البخور بوصفهم رهبانا تاوين فى معبد المدينة ، الحضور بوصفهم لامات (١٦) فى معبد يونغ خه قونغ بالنيابة عن الامبراطور ، وواجبات أخرى كثيرة .

وينقسم الخصيان داخل القصر الى فئتين رئيسيتين : العاملين من جهة

فى خدمة الامبراطورة الأرملة والامبراطور والامبراطورة والزوجات ، والعاملين فى المجالات الأخرى من جهة ثانية . وكانوا مرتبين ترتيبا محددا جدا ، ويمكن تقسيمهم الى قهارمة كبار ، ورؤساء خصيان وخصيان عاديين . وكان هناك قهارمة كبار ورؤساء خصيان فى خدمة الامبراطورة الأرملة والامبراطورة ، أما زوجات الامبراطور فلم يكن عندهن الا رؤساء خصيان . وأعلى مرتبة وصل اليها خصى بالتسلسل الطبيعى هى المرتبة الثالثة ، ولكن لي ليان ينغ الخصى المفضل لدى الامبراطورة الأرملة تسى شى حصل لأول مرة على المرتبة الثانية الأعلى ، وقد منح تشانغ تشيان خه القهرمان الكبير فى خدمتى هذا الشرف أيضا . والخصيان الآخرون كانوا مصنفين ما بين المرتبة الثالثة الى التاسعة ، ودونهم يأتى الخصيان العاديون الذين لا مراتب لهم ، وبينهم ذوو المكانة المتدنية الذين كانوا يرسلون بقصد العقوبة الى العمل خداما فى مكتب التنظيف . وكانت الرواتب الرسمية للخصيان منخفضة نوعا ما ، فأعلاها كان ثمانية تايل من الفضة وثمانية جينات من الأرز وثلاثمائة قطعة نحاسية من النقود شهريا ، مع " زيادات " متنوعة شرعية وغير شرعية ، ولكن دخلهم الفعلى كان أكثر من ذلك بكثير ، لاسيما أولئك الخصيان الأعلى مرتبة . مثلا روان جين شو ، القهرمان الثانى فى خدمتى ، كان غنيا جدا بحيث كان يغير فى الشتاء ثوبا من الفرو كل يوم ، ومع أن هذه الأثواب قد تضمنت عددا من فراء السمور المختلفة الا أنه لم يكن يلبس الثوب مرتين . وقد لبس فى عيد رأس السنة عباء من فرو القضاعة البحرية تساوى وحدها نفقة موظف صغير مدى حياته . وكانت لكل القهارمة الكبار تقريبا وكثير من رؤساء الخصيان مطابخهم الخاصة ، بل كانت لبعضهم " عوائل " كاملة تتألف من الوصائف والخادمات .

وكانت حياة الخصيان البسطاء من جهة ثانية فى غاية الصعوبة ، فقد كانوا بائسين ومعرضين باستمرار للعقوبات كالجلد وغيره . ولم يكن لهم من يخدمهم

فى شيخوختهم ، وكانوا مضطرين الى العيش على "حصيلة" امبراطورية ضئيلة جدا . واذا ما طردوا بسبب ارتكابهم خطأ ، فلن يجدوا سبيلا غير التسول أو الموت جوعا .

والخصيان الذين كانوا على أوثق صلة بى هم خصيان قصر تهذيب النفوس ، لا سيما الصغار الذين كانوا يلبسوننى ويخدموننى على المائدة وكانوا يعيشون فى مجازين ضيقين خلف قصر تهذيب النفوس ، وكل من هذين المجازين كان تحت اشراف أحد رؤساء الخصيان . وجميع هؤلاء الخصيان كانوا تحت امرة القهرمان الكبير تشانغ تشيان خه ونائبه روان جين شو . عندما كانت الامبراطورة الأرملة لونغ يوى على قيد الحياة أرسلت أحد قهارمتها الكبار ليصبح "آندا" لدي ، وظيفته العناية بى وتعليمى قواعد التشريفات فى القصر . ولكننى لم أوليه أدنى ثقة أو مودة مما كنت أمنح تشانغ تشيان خه . فقد كان معلمى الأول حقا وكان فى ذلك الوقت كهلا يقارب الخمسين مع حدبة صغيرة فى ظهره . وقد علمنى بأمر من لونغ يوى ان أميز بين المقاطع المطبوعة بالحجم الكبير على البطاقات ومن ثم قرأ معى فى النصوص الأولية : « كتاب الثلاثيات » و« أسماء الأسر المائة » . وبعد ان بدأت دراستى الرسمية أصبحت مهمته عادة ان يقف خارج غرفة نومى ويقرأ بصوت جهورى دروس اليوم السابق ليساعدنى على تذكرها . وكان ، شأنه شأن للقهرمان الكبير لدى أى امبراطور ، ينتهز كل فرصة سانحة ليظهر ولاءه لي . وكنت غالبا أتنبأ بالتطورات فى الوضع الخارجى من تغيراته المزاجية ، كما كنت أستطيع أن أحكم من خلال نبرة صوته وهو يقرأ لي الدروس صباحا ان كان قلقا او سعيدا بخصوص شؤونى .

كان تشانغ تشيان خه أول مرافق لي فى ترحالي : وكان من عادته ان يسابقنى فى الالعاب ، ولكننى بالطبع كنت دائما أفوز بسهولة . وأذكر أنه فى أحد أعياد رأس السنة ، عندما دعتنى الزوجة العلية جينغ يى الى قصرها

لألعب النرد ، كان هو راهن المال ، وقد ظل الرقم الذى رهنت عنده نقودي يربح الى ان جردته من كل ما فى خزنته . فلم يبال بذلك لأن النقود كلها كانت من مال الزوجة العلية .

وكنت ، كأى صبى آخر ، مولعا بالاستماع الى القصص . والقصص التى رواها لي تشانغ تشيان خه وكثير من الخصيان الآخرين يمكن تقسيمها الى نوعين : قصص الأشباح حول القصر وقصص الخرافات حول "جميع الأرواح التى تساعد ابن السماء المقدس" . ووفقا لهذه القصص فان كل شيء فى القصر — الغرانيق البرونزية ، والجرار الذهبية والحيوانات المائية والأشجار والآبار والصخور وما الى ذلك — قد تحول فى وقت ما الى روح وأظهر قواه السحرية ، ناهيك عن تماثيل البوذا الطينية كقوان يوى ، آله الحرب ، وآله تشن وو . ومن خلال هذه القصص التى لم أمل سماعها اعتقدت ان جميع الأشباح والأرواح تحاول كسب عطف الامبراطور ، وأنه كان بينها من لم ينجح فى مسعاه ، وانها جميعا سعت لاظهار ان الامبراطور أسمى مخلوق فى الوجود .

وقال الخصيان ان غرنوقا فى احدى قاعات القصر قد حدث له انبعاج فى ساقه اليسرى لانه ، عندما حول نفسه الى روح ليحمى الامبراطور تشيان لونغ خلال رحلته الى جنوبى الصين ، أصيب صدفة بسهم من قوس الامبراطور . فخاب أمله خيبة شديدة بحيث انسل عائدا ليقف فى موقعه الأصلى داخل القصر . ويقال ان الانبعاج الصدىء فى ساقه اليسرى هو اثر الجرح المتسبب عن السهم . وقالوا أيضا ان الصنوبرة المعمرة المنتصبة عند بركة السمك الغربية داخل الحديقة الامبراطورية قد ظللت تشيان لونغ خلال رحلة من رحلاته تلك الى الجنوب ، وبعد عودته كتب قصيدة فى مدحها لتنقش على جدار مجاور . وما تضمنته هذه القصيدة كان شيئا مما لا يأبه له هذا الخصى الجاهل .

وكانت هناك خرافة حول الدرة فى القبعة الامبراطورية . فقد قيل انه بينما كان تشيان لونغ ذات يوم يتمشى بجانب جدول داخل قصر يوان مينغ يوان لحظ شيئا يشع فى الماء وما لبث ان اختفى عندما أطلق عليه ببندقية صيد . فأمر بالبحث عنه فى الجدول ، فوجدوا درة فى داخل سمك بطلينوس الضخم . وبعد ان أصبحت درة قبعة أخذت تطير من تلقاء نفسها وتعود الى مكانها حتى ثقبت بأمر من الامبراطور وصنعت لها ركوبة ذهبية ، فلزمت مكانها لا تبرحه .

عندما كنت طفلا اعتقدت بهذه القصص اعتقادا مطلقا ، ويمكن رؤية ذلك من الحادثة التالية : مرة كنت مريضا وانا فى سن السابعة او الثامنة تقريبا ، فجلب لى تشانغ تشيان خه حبة دواء ارجوانية لأتناولها . وعندما سألته عن نوع هذا الدواء قال : " لقد رأى عبدكم فى حلمه رجلا عجوزا بلحية بيضاء امسك بيده حبة دواء وقال لي انها حبة الخلود جلبها خصيصا كهدية متواضعة الى السيد المديد العمر . " فسررت لسماع ذلك بحيث نسيت مرضى وأخذت الحبة الى مقار الزرجات العليات الأربع ليقتسمنها بينهن متذكرا فى ذلك قصص الأبناء الابرار الأربعة والعشرين . ولابد ان يكون تشانغ تشيان خه قد نبه أمهاتى الأربع الى ذلك لأنهن جميعا ظهرن مغمورات بالسرور ، واشدن ببري لهن . وعندما صادف ان ذهبت مرات الى الصيدلية الامبراطورية لآخذ بعض الدواء لاحظت بعض الحبوب العادية التى بدت مثل " حبة الخلود " تماما . ولكم ان تصدقوا أو لا تصدقوا اننى على الرغم من خيبة الأمل الصغيرة التى أصبت بها بقيت أعتقد بقصة ذلك العجوز ذى اللحية البيضاء .

وفى الوقت الذى جعلتنى فيه هذه القصص فخورا بنفسى على نحو مفرط جعلتنى كذلك أخاف الأشباح منذ نعومة أظفارى . فاستنادا الى ما رواه الخصيان كانت هناك أشباح وأرواح فى كل ركن من أركان القصر . فالممر

خلف قصر يونغ خه قونغ (قصر السلام الدائم) كان المكان الذى تقبض فيه الأشباح على الناس من رقابهم ، والبئر خارج بوابة جين خه من كانت بيتا لحشد من الشيطانات ، ولو لم تكن هناك قطعة من الحديد فوق البوابة تبقى هذه الشيطانات فى الداخل لكن يخرجن كل يوم . ويقال انه كل ثلاث سنوات يخرج شبح ويجر أحد المارة عبر أحد الجسور الى البحيرات التى فى داخل القصر . وكنت كلما ازددت استماعا لهذه القصص ازددت خوفا ، وكلما تعاظم خوفى اشتدت رغبتى فى سماعها . وبدءا من سن الحادية عشرة تقريبا أصبحت مدمنا على كتب القصص الخرافية (التى جلبها لي الخصيان) ، وهذه القصص مع تقديمات الاضاحى الاسلافية للآلهة والطقوس البوذية ورقصات الأرواح التى كان يؤديها سحرة سامان طوال سنة وما الى ذلك جعلتنى أكثر خوفا من الأشباح والأرواح ومن الظلمة ومن الرعد والبرق ومن بقائى وحيدا فى الغرفة .

وكان ينبعث مع كل غروب عندما ينصرف العاملون فى القصر الى أماكنهم نداء يثير القشعريرة من داخل قصر تشيان تشينغ (قصر السماء الصافية) — مركز المدينة المحرمة الهادئ : " اسحبوا المزاليج ، اقفلوا ، انتبهوا الى المصابيح . " ومع تلاشى آخر هذه الأصوات تنبعث موجات مع الأصداء الشبحية من الخصيان المناوبين فى جميع زوايا القصر . وهذا العرف الذى سنه الامبراطور كانغ شى للخصيان قد ملأ القصر بجو مخيف . فلم أكن أجرؤ على الخروج لقضاء الحاجة مساء ، وأشعر كأن أشباح القصص وشياطينها جميعا قد احتشدت حول النوافذ والأبواب .

ولم يكن القصد من هذه القصص التى تعود الخصيان ان يغذونى بها هو مجرد اخافتي او تملقي بها ، فقد كانوا هم أنفسهم مؤمنين بالخرافة الى أبعد حد . وكان تشانغ تشيان خه ، الذى لم يكن استثناء ، كلما تواجهه مشكلة يستخير «سجلات علبة اليشب» قبل اتخاذ القرار . وكان الخصيان العاديون

يقدمون بورع شديد قرابينهم الى "آلهة القصر" : المكونة من الأفاعى والثعالب وبنات عرس والقنافذ . وكان هناك تنوع كبير فى اشكال العبادة داخل القصر التى كان يمارسها البيت الامبراطورى ، ولكن آلهة القصر كانت آلهة للخصيان فقط ، ولم تكن مشمولة بالقرابين التى تقدمها الأسرة المالكة . واستنادا الى ما رواه الخصيان فان آلهة القصر قد جعلها أحد الأباطرة آلهة خالدة من المرتبة الثانية . وقد أخبرنى خصى ذات مرة انه بينما كان يسير ذات مساء على السلم خارج قصر السماء الصافية (تشيان تشينغ قونغ) أمسك به رجل يلبس قبعة من المرتبة الثانية وثيابا رسمية وشارات وألقى به الى أسفل السلم : هذا كان واحدا من آلهة القصر . والخصيان لا يأكلون لحم البقر ، وأحدهم قال لي انهم اذا ما خالفوا هذا التحريم فان آلهة القصر ستعاقبهم بأن تجعلهم يفركون شفاههم فى لحاء شجرة الى ان تدمى . وكلما دخل الخصيان قاعة فارغة صاحوا بصوت عال "افتحوا القصر" قبل ان يفتحوا الباب ، وبذلك يتجنبون عقوبة عدم الاستئذان على الآلهة . وفى اليوم الأول واليوم الخامس عشر من كل شهر ، كما فى عيد رأس السنة والأعياد الأخرى ، يقدمون لهذه الآلهة ، قرابين من البيض وجبنة فول الصويا المجففة والمشروبات الكحولية والكعك ، ويضيفون فى عيد رأس السنة والأعياد الأخرى خنازير وخرافا كاملة الى جانب مقادير هائلة من الفواكه وبالنسبة للخصيان ذوى الأجر الزهيد والمراتب المتدنية فان قرابينهم هى الأعباء ، ولكنهم كانوا ينهضون بها مسرورين أملا منهم ان تحميهم آلهة القصر من الجلد والأشكال الأخرى من المعاملة الرديئة التى كانوا يتعرضون لها غالبا .

وكان لدى الخصيان طرق كثيرة لزيادة دخولهم الاضافية . وهناك وصف فى المسرحيات والروايات يبين كيف اضطر الامبراطور قوانغ شيوى الى اعطاء لى ليان ينغ نقودا ، ولي هذا هو قهرمان قصر الامبراطورة الأرملة تسى شى ، والا فانه كان يصعب عليه الأمور ويرفض اشعاره عندما كان

يذهب لتقديم احتراماته الى تسى شى . ومع أن أشياء كهذه لا يمكن ان تحدث فى الحقيقة فقد سمعت الكثير عن ان الخصيان تعودوا ابتزاز النقود من المسئولين الكبار . ففى وقت زواج الامبراطور تونغ تشى أهملت ادارة الأسرة تقديم الرشاوى لبعض الخصيان فى القصر ، فاستدعى خصيان القسم المذكور فى يوم الزفاف موظفا من ادارة الأسرة وقالوا ان لوح زجاج فى احدى نوافذ القصر قد تصدع . ولما كان هذا الموظف لا يستطيع ان يرقى عتبة القصر حسب العرف السائد فقد اضطر ان ينظر الى الصدع من بعيد . وكان خائفا من الوقوع فى ورطة شديدة اذا سمعت تسى شى ان هناك شيئا مشؤوما كنافذة مكسورة فى يوم الزفاف ، فقال الخصيان حينذاك انه لا حاجة الى البحث عن عامل لأن بوسعهم هم ان يبدلوا لوح الزجاج . ومع ان موظف ادارة الأسرة تأكد ان هذه كانت عبارة عن خدعة ، الا انه لم يكن أمامه من خيار سوى ارسال مبلغ من النقود اليهم لاصلاح الصدع ، الذى لم يكن فى الحقيقة غير جديلة شعر ألصقت عليه .

عندما كان تشونغ لون ، والد شيه شو ، واحدا من كبار موظفى ادارة الأسرة أخفق ذات مرة فى توزيع الرشاوى الكافية ، فانتظره يوما أحد الخصيان الذين لم يرضوا بنصيبهم من الرشوة عندما كان ذاهبا الى اجتماع مع الامبراطورة الأرملة ، وألقى متعمدا طستا مملوءا بالماء ، وبلل سترته المخيطة من فرو السمور ، ثم تظاهر الخصى بالذهول ورجاه ان يعاقبه . وكان تشونغ لون فى حالة لا تمكنه من اظهار الغضب حيث ان الامبراطورة الأرملة تنتظره . لذلك رجا الخصى ان يفكر فى مخرج . فأخرج له الخصى سترة أخرى من فرو السمور قائلا : " مكاننا المتواضع هذا سيكون شاكرا جدا لسيادتكم اذا تمكنا من ان نشارك حظكم السعيد ، ونحن نعرف أنكم ستكونون فى غاية السخاء . " وكان الخصيان يحتفظون دائما بمجموعة كاملة من ملابس البلاط كى تؤجر الى كبار الموظفين فى الساعات الحرجة . ولم يكن أمام تشونغ

لون من خيار الا أن يخضع لهذا الابتزاز ويدفع "أجرة" فاحشة .

وأخبرني موظف سابق في ادارة الأسرة انه عندما تزوجت قام القهرمان الكبير الذى كان عندي واسمه روان جين شو (الذى حل محل تشانغ تشيان خه) بابتزاز مبلغ ضخم من النقود من ادارة الأسرة . فقد كانت الادارة حددت ، بناء على أمر مني ، نفقات الزفاف فى حدود ٣٦٠ ألف تايل من الفضة ، وكان قسم من هذا المبلغ بعد حساب التكاليف الفعلية قد خصص للخصيان لكنهم استقلوه ، لذلك أحبط القهرمان الكبير الخطة بكاملها . فاضطر أحد موظفى ادارة الأسرة الى الذهاب الى مقره لحل المشكلة ، ولكن توسلاته وتملقه لم تجد نفعا الا بعد ان تمت الموافقة على طريقته فى تصريف الأمور .

ولكنني أعتقد ان تشانغ تشيان خه وروان جين شو لا يقاسان بتشانغ يوان فون ، القهرمان الكبير لدى الامبراطورة لونغ يوى . فعندما كنت فى تيانجين كان هو الآخر يقيم هناك فى قصر فاخر داخل منطقة الامتيازات البريطانية ويعيش حياة أمير حرب مع عدد من الحظايا وحشد من الخدم . وهناك هربت احدى حظياته الى دائرة الشرطة التابعة لمنطقة الامتيازات البريطانية لتنجو بنفسها من قسوته ، ولكن النفوذ العجيب لثروته جعل دائرة الشرطة البريطانية لا تهتم أدنى اهتماما بحمايتها بل أعادتها الى تلك الأسرة الجهنمية حيث أمر القهرمان بضربها حتى الموت ، ولم يجرؤ أحد على لمسه .

مربيتي

جاء فى دفتر يومياتى الذى دون فيه معلمى الخصوصى ليانغ دينغ فن نشاطاتى وأقوالى ما يلى عن يوم ٢١ فبراير ١٩١٣ :

جلالته غالبا ما يضرب الخصيان ، فقد أمر مؤخرا بجلد سبعة عشر خصيا على ذنوب بسيطة . وتابعه تشن باو تشن وآخرون حاولوا اقناعه بالعدول عن ذلك ، ولكن جلالته رفض قبول نصحهم .

وهذا أذكره لأبين كيف ان جلد الخصى كان جزءا من روتين حياتى اليومية وانا فى سن الحادية عشرة . ان قسوتى وحبى استخدام سلطتى كانا راسخين كل الرسوخ بحيث لم تؤثر في النصائح أدنى تأثير .

كنت كلما تعكر مزاجى او شعرت بالاكتئاب يؤتى الي بالخصيان لأعذبهم ، ويكون كذلك اذا كنت منشرح الأسارير ورغبت فى بعض ضروب التسلية . لقد كانت لي فى طفولتى كثير من الأمزجة الغريبة ، ففيما عدا اللعب مع الجمال وحفظ النمال وتربية الديدان ومراقبة العراك بين الكلاب والثيران ، كنت أجد متعة عظيمة فى تدبير مكايد للناس . وقبل فترة طويلة من تعلمي كيف أجعل المكتب الادارى يضرب الناس تعرض كثير من الخصيان لأذى ألاعيبى السمجة . فذات مرة ، عندما كنت فى السابعة او الثامنة من عمرى تقريبا ، خطرت لي فكرة بارعة : أردت ان أرى ان كان أولئك الخصيان الارقاء مطيعين حقا لـ " ابن السماء المقدس " ، فناديت أحدهم وأشرت الى قطعة من القذارة فى أرضية الغرفة وأمرته قائلا : " كل هذا أمامى ! " فجثا وأكلها . ومرة أخرى أوشك خصى ان يموت نتيجة رشي له بمضخة اطفاء .

وكبرت والناس من حولي ينقادون لكل نزوة من نزواتي ويطيعونني طاعة تامة فطورت هذا المزاج الى القسوة . ومع ان معلمي الخصوصيين حاولوا اقناعي بالعدول عن ذلك من خلال حديثهم عن " سبيل الشفقة والاحسان "، الا انهم اعترفوا في الوقت نفسه بسلطتي كما علموني ما يتعلق بهذه السلطة . وعلى الرغم من القصص الكثيرة التي رووها لي عن الملوك المشهورين والحكام الحكماء في التاريخ ، فقد بقيت الامبراطور " المختلف عن الناس العاديين " ، لذلك لم يترك حديثهم علي الا تأثيرا ضئيلا .

لكن هناك شخصا واحدا داخل القصر استطاع ان يحد من قسوتي هو مربيتي السيدة وانغ . فمع انها كانت أمية تماما وغير قادرة على التحدث عن " سبيل الشفقة والاحسان " او عن الملوك المشهورين والحكام الحكماء في التاريخ ، الا انني لم أستطع تجاهل النصح الذي كانت تقدمه لي .

ذات مرة سررت سرورا عظيما بعرض للدمى قدمه أحد الخصيان بحيث قررت ان أكافئه بكعكة . ثم خطر لي خاطر سيء ، ففتحت حقيبة ملأى ببرادة الحديد التي كنت أستخدمها في اجراء التمارين ، ووضعت قليلا من هذه البرادة داخل الكعكة . وعندما رأت مربيتي ما أقوم به قالت لي :

ــ أيها السيد ، من يقدر على أكل هذه البرادة ؟

ــ أريد ان أرى كيف سيبدو عندما يأكل الكعكة .

ــ ولكنه سيكسر أسنانه . اذا كسر أسنانه فلن يقدر على أكل أي شيء آخر ، واذا لم يستطع ان يأكل شيئا فأين سيصبح عند ذلك ؟

واستطعت ان أتبين أنها محقة ، ولكنني لم أشأ التخلي عن هذه التسلية ، فقلت :

ــ أريد فقط ان أراه يكسر أسنانه هذه المرة .

فاقترحت المربية عندها ان أضع حبات عدس بدلا من البرادة وهكذا أنقذت ذلك الخصي من كارثة .

وذات مرة عندما كنت ألعب ببندقية هوائية واطلق مقذوفاتها على مساكن الخصيان محدثا ثقوبا صغيرة فى نوافذهم ، كنت اذذاك أمتع نفسى حقا . فأرسل أحدهم الى مربيتى لتأتى لانقاذ الخصيان .

— أيها السيد ، يوجد أناس داخل المساكن . . ولابد من ان تؤذيهم اذا أطلقت الرصاص على البيت !

وعندها فقط خطر لي انه يمكن ان يكون هناك أناس فى الغرفة وانهم يمكن ان يتعرضوا لأذى . لقد كانت الشخص الوحيد الذى دأب يخبرنى بأن الناس الآخرين بشر مثلي تماما ، فأنا لم أكن الانسان الوحيد الذى يملك أسنانا ، فالناس الآخرون يملكون أسنانا كذلك . وأسنانى ليست الوحيدة التى لم تخلق لقضم البرادة الحديدة . وكما اننى احتاج الى الأكل فان الآخرين يشعرون بالجوع اذا هم لم يأكلوا . فالناس لهم مشاعر ، ويشعرون بنفس الألم اذا أصابهم رصاص البندقية الهوائية . كانت هذه هى المعرفة المشتركة التى عرفتها كما عرفها غيري . ولكن فى ذلك المحيط وجدت من الصعب الى حدما ان أتذكرها لاننى لم أكن أبدا أقيم للآخرين اعتبارا ، ناهيك عن التفكير فى أنهم يتمتعون مثلى بنفس الصفات البشرية . فى ذهني لم يكن الآخرون الا عبيدا لي اوأتباعا . وخلال سنواتي كلها التى قضيتها داخل القصر كانت كلمات مربيتى الأمية وحدها هى التى تذكرنى بأن الآخرين هم أناس مثلي .

ترعرعت فى حضن مربيتى الى ان بلغت الثامنة ، وحتى ذلك الحين بقيت غير مفصول عنها كما الطفل لا يمكن فصله عن أمه . وعند هذا العمر طردتها الزوجات العليات دون معرفتى . وكنت أريدها ان تبقى معى بدلا من أمهاتى الأربع جميعهن ، ولكن على الرغم من صراخى وبكائى الا انهن لم يرجعنها . وأرى الآن انه لم يبق حولى فى ذلك الوقت أحد يفهم الانسانية حقا منذ ذهبت مربيتى . وقد فقدت بعدها ذلك اللون من الانسانية

الذى تعلمته منها قبل سن الثامنة :

وبعد زواجى ارسلت أناسا يبحثون عنها فوجدوها ، وكنت أحيانا أجلبها لتقيم معى بضعة أيام . وفى أواخر عهد " امبراطورية مانشوريا " جلبتها الى تشانغتشون وبقيت أعيلها هناك الى ان تركت الشمال الشرقى . وفى كل ذلك لم تستغل مطلقا مركزها الخاص لترجو منى أى احسان . وكانت لها طبيعة هادئة فلم تتخاصم مع أحد أبدا . وعلى وجهها الوسيم كانت ترتسم دائما ابتسامة رقيقة ، وكانت على الغالب صامتة . واذا لم يبادرها شخص آخر بالكلام ، فانها تكتفى بالتبسم دون التلفظ بأية كلمة . وعندما كنت صغيرا تعودت ان أجد ابتساماتها تلك غريبة نوعا ما . فقد بدت عيناها كأنهما مثبتتان على شىء بعيد ، بعيد جدا جدا ، وكنت أتساءل غالبا ان كانت قد رأت شيئا ممتعا فى السماء خارج النافذة او فى صورة معلقة على الجدار . ولم تتكلم أبدا عن حياتها الخاصة وتجاربها . وبعد العفو الخاص عنى زرت ابنها بالتبنى واكتشفت أية معاناة واى اذلال الحقتهما " أسرة تشينغ العظيمة " بهذه المرأة التى أرضعت " امبراطور تشينغ العظيم " من حليبها .

لقد ولدت سنة ١٨٨٧ فى أسرة فلاحية فقيرة تدعى جياو فى احدى قرى محافظة رنتشيوبمقاطعة تشيلى (مقاطعة خبى اليوم) . وكانت أسرتها تضم ثلاثة أفراد عداها هى والديها وأخ أكبر منها بست سنوات . وحين كان والدها فى خمسين من عمره كان يستأجر قطعة أرض منخفضة كانت تجف اذا انقطع المطر وتغرق اذا أمطرت . وبسبب أجرة الأرض والضرائب لم يكن يتوفر لديهم ما يكفى لسد رمقهم حتى فى سنى الخصب . وفى عام ١٨٩٠ حدثت فيضانات مدمرة فى شمالى تشيلى ، فاضطرت أسرتها الى ترك القرية والتشرد . وقد فكر والدها فى التخلى عنها عدة مرات خلال ترحالهم ، ولكنه كان دائما يعيدها الى احدى السلتين المتدليتين من على كتفيه . وكانت السلة الأخرى تحتوى على أسمال وفراش مهترىء هى كل ما يملكونه فى .

هذا العالم ، ولم يكن لديهم ذرة من طعام . وعندما حدثت فيما بعد ابنها بالتبنى كيف كان والدها يلقيها من السلة لم تتفوه بكلمة تذمر واحدة تجاهه ، بل كانت تكتفى بالقول انه كان جائعا منذ وقت طويل بحيث لم يعد يقوى على حملها ، ولم يكن قادرا على ان يستجدى فضلات الطعام خلال ترحالهم لان كل من قابلوه كانوا مثله او أسوأ منه حالا .

وأخيرا تمكن الولدان من الوصول مع ابنهما الذى كان فى التاسعة وابنتهم التى فى الثالثة الى بكين . وتوجهوا الى بيت خصى من أقربائهم ، لكنه رفض استقبالهم فاضطروا الى الطواف فى الشوارع متسولين . كانت بكين حينذاك غاصة بعشرات الآلاف من المشردين الذين كانوا ينامون فى الشوارع ويئنون من شدة الجوع والبرد . وفى ذلك الوقت بالذات كان البلاط ماضيا فى أعمال بناء واسعة النطاق عند القصر الصيفى ، وكانت أسرتى تبدد الاموال على جنازة جدي الأمير تشون كما تبدد التراب . وفى تلك الأثناء كان ضحايا الفيضانات الذين جمعت هذه النقود من عرقهم ودمهم على شفا الموت فأخذوا يبيعون أبناءهم . وقد أرادت أسرة جياو ان تبيع ابنتها ، ولكنها لم يجدوا شاريا . وقد استطاعوا البقاء على اى حال فى بكين بقية الشتاء بعد ان فتح والى شونتيانغو مطبخ حساء الرز للمشردين كوسيلة للحد من القلاقل . كما انضم الولد الى حلاق ليخدمه ويتعلم منه المهنة .

ومع قدوم الربيع فكر الفلاحون المشردون بأراضيهم وقوبلوا باحتمال اغلاق مطبخ حساء الأرز قريبا ، لذلك انطلقوا الى موطنهم ثانية . وهناك فى القرية أمضى أفراد أسرة جياو عدة سنوات أخرى فى البرد والجوع وفى عام ١٩٠٠ قامت جيوش الدول الأجنبية المتحالفة بتدمير تلك المنطقة . وكانت ابنة تلك الأسرة حينذاك فتاة فى الثالثة عشرة من عمرها ، ففرت ثانية الى بكين حيث أقامت مع أخيها الحلاق . ولكنه لم يكن قادرا على اعالتها ، فسلمت نفسها حين بلغت السادسة عشرة الى ساع فى السراى يدعى وانغ لتعيش معه

نصف جارية ونصف زوجة . وكان زوجها مساولا ويعيش حياة ماجنة . وقد انجبت منه طفلة بعد ثلاث سنوات . وبعد ذلك بوقت قصير توفى زوجها تاركا زوجته وابنته ووالدين معوزين .

كان هذا تقريبا فى الوقت الذى ولدت انا فيه ، وكانت أسرة الأمير تشون تبحث عن مرضعة لي . وقد اختيرت هى من بين عشرين متقدمة لما كانت تتمتع به من صحة ومظهر سار ووفرة فى حليبها . ومن أجل الأجرة التى استطاعت ان تعيل بها والدى زوجها وابنتها قبلت بالشروط الممعنة فى الاذلال : لم يكن مسموحا لها بالعودة الى البيت او برؤية طفلتها ، وان تأكل كل يوم صحنا من اللحم السمين غير المملح ، وما الى ذلك . وهكذا مقابل تايلين من الفضة كل شهر تحولت المخلوقة الى بقرة حلوب .

وفى السنة الثالثة من دخولها القصر ماتت طفلتها من سوء التغذية ، ولكن أسرتى ظلت تخفى عنها هذا الخبر لئلا يؤثر ذلك على نوعية حليبها . وفى السنة التاسعة تعاركت احدى الخادمات مع خصى ، فقررت الزوجات العليات طردهما وطرد مربيتى أيضا . وعندها فقط اكتشفت هذه المرأة الطيعة التى عانت طويلا وتحملت كل شيء خلال تلك السنوات التسع بابتسامة ضئيلة ونظرة متروية ان طفلتها قد ماتت منذ وقت طويل !

الفصل الثالث

من المدينة المحرمة الى المفوضية اليابانية

عهد يوان شي كاي

كان أمرا غريبا فى الصباح داخل المدينة المحرمة ان يسمع المرء أحيانا فى أعماق القصر أصوات العالم الخارجى . فبوسعك ان تستوضح تماما صيحات الباعة المتجولين وصرير العجلات الخشبية للعربات الثقيلة ، وأحيانا أصوات الجنود يغنون . وكان من عادة الخصيان ان يسموا هذه الظاهرة " مدينة الأصوات " . وبعد ان تركت المدينة المحرمة كنت أتذكر غالبا " مدينة الأصوات " والصور الغريبة التى كانت تخطر فى مخيلتى . والذى ترك عندى أعمق الانطباعات هو الموسيقى العسكرية التى كانت تسمع أحيانا من داخل قصر رئيس الجمهورية المجاور . وقد قال لي القهرمان الكبير تشانغ تشيان خه ذات مرة : " ان يوان شى كاى يأكل الآن . ان الموسيقى تعزف فى أثناء الوجبات ، وهى أفخم من موسيقى جلالتكم ! "

ومن ملامح وجهه بدا واضحا انه كان فى غاية الاستياء . وعلى الرغم من اننى لم أكن قد تجاوزت الثامنة من عمري فى ذلك الوقت ، الا اننى استطعت ان أستبين لمسة الحزن من صوته الصارم . كان ضجيج الأجواق العسكرية قد جلب لي صورة من أكثر الصور اذلالا : يوان شى كاى جالس هناك وأمامه من الاطباق أكثر مما لدى الامبراطورة الأرملة ، وجيش من الخدم يقوم على خدمته ، يعزفون له الموسيقى ويهزون المراوح . . .

وكانت هناك " مدينة أصوات " أخرى أصبحت أكثر فأكثر اهتماما بها عندما كبرت ، تلك هى الاشاعات التى سمعت عنها من معلمى الخصوصيين حول اعادة الملكية .

ان اعادة الملكية فى لغة المدينة المحرمة كانت تعنى " استرداد الميراث السلفى " ، وفى لغة كبار الموظفين السابقين من أسرة تشينغ كانت تعنى " العودة المجيدة للنظام القديم " او " اعادة السلطة الى أسرة تشينغ " : والنشاطات لتحقيق هذا الهدف لم تبدأ مع اعادة الملكية القصيرة الأمد عام ١٩١٧ ، ولم تنته كذلك مع الهروب الى المفوضية اليابانية عام ١٩٢٤ . ويمكن القول بأن هذه النشاطات لم تتوقف قط ، بدءا من اعلان التنازل عام ١٩١٢ وحتى تأسيس " امبراطورية مانشوريا " عام ١٩٣٤ (١٧) . لقد لعبت دوري فى البداية تحت توجيه الكبار ، ولكننى أصبحت فيما بعد قادرا على التصرف بمبادرتى الذاتية ، مسترشدا بمواهبى الطبقية . فى صباي كان المعلمون الخصوصيون هم موجهي ، ومن ورائهم كان بالطبع كبار الموظفين فى ادارة الأسرة ووالدي ، الذين اشرفوا على شؤون البيت الامبراطورى بموافقة رئيس الجمهورية . ومع ان حماستهم لم تكن بأقل من حماسة اى شخص خارج القصر ، الا اننى فهمت بعد ذلك تدريجيا انهم لم يحصلوا على تخويل بالعمل على اعادة الملكية ، اذ لم تكن لديهم القوة الكافية لذلك ، بل انهم ادركوا ذلك بأنفسهم . ان المدينة المحرمة قد علقت آمالها ، وان بدا ذلك مضحكا ، على الارستقراطيين الجدد الذين أمسكوا بزمام الحكم بدلا من أسرة تشينغ . وأول وهم من هذه الأوهام كان هو الرئيس يوان شى كاى الذى أثار استياء المدينة المحرمة .

فى ٣٠ ديسمبر ١٩١٢ جاء معلمى تشن باو تشن الى حجرة الدرس ، وجلس ، وبدلا من ان يتناول ريشته الحمراء ليضع علامات الترقيم على المادة الدراسية نظر الي لحظة بابتسامة ساحرة وقال :

" غدا عيد رأس السنة وفقا للتقويم الغربى ، والجمهورية سترسل شخصا ما يقدم الى جلالتكم التهانى . وسيكون ذلك الشخص ممثل رئيس الجمهورية . "

لا أذكر ان كانت هذه هي المرة الأولى التي تصرف فيها بصفة موجه

سياسى لي ، ولكنها كانت المرة الأولى التى رأيته فيها فى احدى لحظاته النادرة التى يبدو خلالها مزهوا . وقال لي اننى يجب ان أعامل هذا الزائر الرسمى المبعوث من الجمهورية كما أعامل سفيرا لدولة أجنبية ، وعلي الا أقول شيئا ، وشاو ينغ ، احد كبار الموظفين فى ادارة الأسرة ، سيكون هناك ليصرف كل شىء ، وكلما سأفعله هو ان أجلس خلف طاولة التنين وأراقب ما يجرى .

وفى اليوم التالى ألبست الملابس الامبراطورية الكاملة المؤلفة من معطف وثوب عليهما رسم تنين ذهبى ، وقبعة محلاة بدرة وقلادة من اللؤلؤ ، وجلست على العرش بوقار فى قصر تشيان تشينغ (قصر السماء الصافية) . ووقف الى جانبي موظفان من الحضرة الامبراطورية ، والى جانبهما مشاورو الامبراطور والحرس الامبراطورى حاملا السيوف . ودخل تشو تشى تشيان مبعوث الرئيس يوان الى القاعة وانحنى لي من بعيد ، ثم تقدم بضع خطوات وانحنى ثانية ثم صعد منصة عرشي وقام بانحناءة ثالثة أشد من السابقتين ثم القى خطابه المشتمل على التهنئة . وعندما انتهى منه تقدم شاو ينغ من منصة العرش وركع أمامى . فأخذت كلمة الجواب التى كانت قد كتبت مسبقا من علبة خشبية مغطاة بحرير أصفر وسلمتها الى شاو ينغ الذى نهض ليقرأها للمبعوث . ثم ردها الي . وانحنى تشو تشى تشيان ثانية وانسحب . وانتهت المراسم هكذا .

وكان التغير فى الجو أكثر اتضاحا فى الصباح التالى . فقد رن صوت تشانغ تشيان خه بكل وضوح ، وهو يقرأ على مسمعى دروس اليوم السابق . وفى حجرة الدرس قبض معلمى تشن باو تشن على لحيته ، وهزرأسه فيما راح يقول : " ان بنود المعاملة التفضيلية محفوظة فى السجلات الرسمية ومعترف بها من جميع الدول ، وحتى رئيسهم ذاك لا يستطيع ان يستهين بها ! "

وبعد ذلك بمدة غير طويلة أرسل الرئيس مبعوثين ينقلون لي تهانيه بعيد ميلادي الذى يصادف اليوم الثالث عشر من الشهر الأول فى التقويم القمرى

الصينى . وهذه الاهتمامات من يوان شى كاى شجعت الأمراء وكبار موظفى أسرة تشينغ السابقين الذين اختفوا من الصعيد السياسى خلال السنة الاولى من الجمهورية على ارتداء ثيابهم الرسمية المصورة بالتنانين ولبس قبعاتهم الحمراء ذات ريش الطاووس ، وذهب بعضهم الى أبعد من ذلك فأحيا عادة استخدام مرافقين لافساح الطريق ووضع حاشية الخلف عند السير فى الشوارع . وماجت بوابة القصر الشمالية والمدينة المحرمة بالنشاط فترة من الوقت . وفى السنة الأولى من الجمهورية كان هؤلاء الناس جميعهم تقريبا يأتون الى القصر بملابس عادية ولا يستبدلون بها ثياب البلاط الا بعد وصولهم اليه ، ولكن منذ بداية السنة الثانية بدأوا يجرؤون على السير فى الشوارع وحدهم بالبدلة الامبراطورية الكاملة .

كان عيد ميلاد الامبراطورة الأرملة لونغ يوى وموتها عام ١٩١٣ مناسبتين استعيد فيهما استعادة تامة زهو الأيام الماضية . كان يوم ميلاد لونغ يوى فى ١٥ مارس ، وماتت بعد ذلك بسبعة أيام . وقد أرسل يوان شى كاى مبعوثه ليانغ شى يى ، رئيس سكرتارية ، ليهنئها بعيد ميلادها ، وكتب فى رسالته الرسمية يقول فى وقار : " رئيس جمهورية الصين العظيمة يكتب الى جلالة امبراطورة أسرة تشينغ العظيمة الامبراطورة الأرملة لونغ يوى . " وبعد ان غادر هذا المبعوث وصل تشاو بينغ جيون ، رئيس مجلس الوزراء ، مع جميع أعضاء مجلس الوزراء ليقدم احتراماته .

وكانت ردة فعل لدى يوان شى كاى على موت لونغ يوى مؤثرة أكثر فأكثر : فقد وضع هو نفسه شريط حداد على ذراعه ، وأمر بأن تنكس الأعلام فى كافة أنحاء البلاد ، وان يضع الموظفون المدنيون والعسكريون شريط الحداد على أذرعهم مدة ٢٧ يوما ، وأرسل جميع أعضاء مجلس الوزراء ليلقوا عليها النظرة الأخيرة . وأقيم ما يسمى التأبين الوطنى فى قصر الوئام الأعظم برئاسة رئيس المجلس الاستشارى بصفته عريف المراسم ، وانعقد اجتماع مماثل فى

الجيش ترأسه تابع آخر من أتباع يوان الموثوقين هو الجنرال دوان تشي روى . وفي داخل المدينة المحرمة مشى الناس هنا وهناك بملابس البلاط السوداء والثياب الغربية على صدى نحيب الخصيان . وكانت وجوه أفراد الأسرة المالكة الذين أمروا بلبس ثياب الحداد مدة ١٠٠ يوم تشع بالبهجة التى زادها اشعاعا حضور شيوى شى تشانغ من تشينغداو وقبول درجة الشرف التى خلعها عليه بيت تشينغ بلبسه ريشة طاووس . فبعد تنازل أسرة تشينغ هرب هذا المعلم الخصوصى الكبير الذى هو أحد أفراد بيت تشينغ الى تشينغداو المحتلة من الألمان بصفة لاجىء سياسى . ولدي شيء سأقوله فيما بعد بخصوص مغزى وصوله الى بكين .

قبل أن ينتهى مأتم لونغ يوى بدأت فى جنوب الصين الحملة المضادة ليوان شى كاى التى كانت تعرف باسم " الثورة الثانية " ، وانتهت بعد قليل بانتصار يوان . وبعد هذا حاصر يوان المجلس الوطنى ببوليسه العسكرى ، وأجبره على انتخابه رئيسا رسميا (بدلا من رئيس بالوكالة كما كان سابقا) . وأرسل الي تقريرا يقول فيه انه قد نظم فى السابق حكومة جمهورية موقتة تنفيذا لمرسوم الامبراطورة الأرملة لونغ يوي ، وانه قد انتخب الآن رئيسا رسميا ، وذلك بفضل الطيبة المألوفة فى شخص " امبرطورة تشينغ العظيمة الامبراطورة الأرملة لونغ يوى " و" امبراطور تشينغ العظيم " ، وانه سيقود الشعب الى انشاء حكومة صالحة والى اقرار النظام ، مع الالتزام الصارم ببنود المعاملة التفضيلية لتعزية روح لونغ يوى فى السماء .

وقد غير كثير من الموظفين القدامى رأيهم بيوان شى كاى وقالوا ان يوان قد وافق على اقامة جمهورية لمجرد الخدعة حتى يهزم الجنوب ، وان الشرط الذى استخدم لتنازلي ربما لا يعنى فى الواقع الا استراحة موقتة ، وانه عندما يشير الى " اقامة " جمهورية فان ذلك يعنى مجرد تجربة . وفعلا ، هكذا كان العرف فى ذلك الوقت انه عندما جاء رئيس مجلس الوزراء لحضور جنازتى

الامبراطور قوانغ شيوى والامبراطورة الأرملة لونغ يوى بدل ملابسه الى ثياب حداد البلاط وادى الركوع التساعى أمام التابوتين . وعندما رأى معلمى الخصوصى ليانغ دينغ فن ان وزير الجارجية الجمهورية الذى كان موظفا من أسرة تشينغ ، مايزال فى الزى الغربى ، وبخه وجها لوجه وجعله يعترف بأنه أقل من تافه :

كانت سنة ١٩١٤ هى السنة الثالثة للجمهورية ، وكان هناك شعورما بأن هذه هى سنة اعادة الملكية . ولم يكن هذا الشعور بدون اساس : فقد قدم يوان شى كاى القربان لكونفوشيوس ، ورجع الى استخدام الألقاب الادارية الاقطاعية ، وأسس دارا لكتابة التاريخ الرسمى لأسرة تشينغ ، ورفع كبار الموظفين السابقين من أسرة تشينغ . والذى أذهلهم أشد الذهول هو تعيين تشاو أر شيون ، وهو حاكم سابق للمقاطعات الثلاث الشمالية الشرقية ، رئيسا لدار تاريخ أسرة تشينغ المستحدثة . ومع ان معلمى الخصوصى تشن وآخرين اعتبروه مرتدا ، فقد قال عن نفسه : " اننى موظف من أسرة تشينغ ، اننى أحرر تاريخ أسرة تشينغ ، وآكل أرز تشينغ ، أؤدى عمل تشينغ . " وكتب لاو ناى شيوان ، نائب وزير تربية سابق ومستشار فى كلية العاصمة فى أسرة تشينغ مقالة فى تشينغداو التى لجأ اليها ، دعا فيها صراحة : " يجب اعادة السلطة الى أسرة تشينغ " . وحث شيوى شى تشانغ فى رسالة اليه على اقناع يوان شى كاى بتنفيذ ذلك . فأطلع شيوى شى تشانغ الذى كان حينذاك معلما خصوصيا أعلى لدى بيت تشينغ وسكرتير دولة لدى الجمهورية ، أطلع يوان شى كاى على رسالة لاو ناى شيوان ، فوجه يوان الدعوة الى لاو ليأتى الى بكين كمستشار . وكان كتاب آخرون كذلك مؤيدين لاستعادة امبراطورية تشينغ ، بل قيل عن قاطع طريق معروف بلقب " الأخ الثالث عشر " فى مقاطعة سيتشوان انه اخذ يلبس ثياب بلاط تشينغ ويركب محفة مغطاة بقماش صوفى أخضر ، زاعما بأنه احد كبار الموظفين السابقين فى

أسرة تشينغ ، منتظرا ان يستمتع بنصيبه فى المملكة المستعادة .

وداخل المدينة المحرمة لم يعد هناك حديث عن الانتقال الى القصر الصيفى كما كان ذلك اثر التنازل وقد ذهب شى شو الرئيس الحذر لادارة الأسرة لرؤية يوان شى كاى وهو أخوه بالمؤاخاة وعاد بأخبار أكثر اثارة . فقد قال له يوان : " ألا ترى يا أخى ان تلك البنود قد وضعت لمجرد الانقلاب على الجنوبيين ؟ ان المعبد السلفى الامبراطورى داخل المدينة المحرمة ، فكيف يمكن لجلالته ان ينتقل ؟ وبالاضافة الى ذلك من يمكنه ان يقيم فى القصر اذا لم يكن جلالته فيه ؟ " أبلغنى ذلك بعد وقت طويل رجل كان يعمل فى ادارة الأسرة . فى تلك الفترة لم يقم شى شو ووالدي أبدا بمناقشة مسائل كهذه معى مباشرة ، بل كانا يفعلان ذلك عن طريق معلمى تشن باو تشن عندما تكون هناك ضرورة . وكان كلام معلمى فى ذلك الوقت هو : " من النظر الى الأمور يبدو ان رئيسهم ما يزال يعامل أسرة تشينغ العظيمة معاملة خاصة . ان بنود المعاملة التفضيلية محفوظة فى الأرشيف الوطنى . . . "

كان تشن باو تشن كما يبدو دائما لا يقول كل ما يريد قوله . وبالعودة الى ذلك الآن يبدو أن كلامه هذا اشارة الى موقفه " الحذر " . ان التفاؤل فى تلك الأيام داخل المدينة المحرمة . كان بلا شك حذرا ومكتوما بالمقارنة مع التفاؤل لدى بعض أفراد أسرة تشينغ خارج القصر . وبديهى ان كثيرا من تصرفات يوان شى كاى – من اشاراته الصريحة الى عدم نسيانه " روح لونغ يو فى السماء " الى تأكيده السرى على ان " الامبراطور لن يغادر القصر الامبراطورى والمعبد السلفى – قد ساعدت على ظهور بعض الأوهام داخل المدينة المحرمة ، ولكن يوان شى كاى لم يكن ليفعل أكثر مما توقعوا منه ، لذلك تعين ان تبقى حماسة القصر مكتومة الى حد ما . وقد أظهر التغير فى المناخ السياسى فى بكين عند نهاية ما سمى بـ " سنة اعادة الملكية " ان هذا التكتم كان فى محله .

بدأ التغير فى المناخ السياسى عندما اقترح موظف فى ادارة التفتيش التابعة للجمهورية وجوب التحرى عن الاشاعات التى تقول باعادة الملكية . فأمر يوان شى كاى وزارة الداخلية بأن " تتحرى وتعالج " هذه المسألة ، ونتيجة لذلك أرسل سونغ يوى رن ، أحد مؤيدى اعادة حكم تشينغ ، الى مسقط رأسه مخفورا . وسببت هذه الأخبار توترا فى بعض الأوساط ، فلم يعد يسمع شىء بخصوص اعادة السلطة الى اسرة تشينغ ولم يجرأ لاو ناى شيوان على ان يغادر ملجأه فى تشينغداو ويأتى الى بكين ليتسلم منصب المرشد الذى عرضه عليه يوان . ولكن ظل هناك اضطراب هائل : فقد كتب يوان حول وثيقة تحرى نشاطات اعادة الملكية الكلمات المبهمة التالية : " ان الاشاعات حول اعادة الملكية ممنوعة منعا باتا ، ولكن لا تدققوا فيها كثيرا " ، وعندما أرسل سونغ يوى رن الى مسقط رأسه أهداه يوان ٣ آلاف درهم فضى وأمر بأن تقيم جميع الدور الحكومية التى فى طريقه مأدب له . وهكذا لم يكن واضحا ان كان سونغ مثابا ام معاقبا . وفى عام ١٩١٥ ، السنة الرابعة للجمهورية ، نشر فرانك . ج . غودناو (١٨) مقالة أكد فيها ان النظام الجمهورى ليس ملائما لظروف الصين . وبعد ذلك ظهرت جمعية تشو آن هوى (جمعية المحافظة على السلم) ، وهى منظمة خاضعة كليا لسيطرة يوان شى كاى ، وقد طالبت بضرورة ان يصبح يوان امبراطور الصين . واتضح لكل واحد حينذاك ما هو نموذج اعادة الملكية الذى كان فى ذهن يوان وهكذا تغير الجو السياسى داخل المدينة المحرمة تغيرا ملحوظا .

كنت فى ذلك الوقت أسمع الموسيقى العسكرية تعزف داخل قصر الرئاسة . وكانت القاعات الثلاث الكبيرة فى القسم الجنوبى من القصر الامبراطورى تحت الاصلاح ، وكان فى وسع المرء ان يرى بوضوح من أعلى سلم قصر تهذيب النفوس الذى كنت أقيم فيه الصباغين وهم يعملون على سقالاتهم . وقد أخبرنى الخصى تشانغ تشيان خه أن هذه كانت استعدادات لارتقاء يوان شى كاى

سدة العرش . وفيما بعد قدم بو لون ، أحد أفراد العشيرة الملكية ، عريضة الى يوان باسم البيت الامبراطورى والرايات الثمانى مطالبا اياه فيها باستلام العرش . فكوفىء بو لون على هذا بلقب أمير من المرتبة الأولى ، وأرسل الى القصر يطلب المواد التى تستعمل فى مواكب الشرف الامبراطورية والأختام الامبراطورية من الزوجات العليات . وهذه الأنباء كانت أليمة بالنسبة لي ومخيفة بالرغم من ان معلمى تشن باو تشن لم يشرح لي ما حدث وانما اكتفى بترديد مثل أعرفه : " لا توجد شمسان فى السماء ولا حاكمان فى البلاد " . وعندما نصب يوان نفسه امبراطورا لم يكن من المحتمل ان يتسامح باستمرار وجودي بوصفي ملكا زائدا . وكانت هناك أمثلة كثيرة من التاريخ تشير الى الجانب الآخر من المسألة . ألم يذكر المؤرخون الكبار للعصور القديمة انه " فى حقبة الربيع والخريف (٧٧٠ـ٤٧٥ ق.م) كانت هناك ست وثلاثون حالة من حالات قتل الملوك " ؟

وكان كل واحد داخل القصر مهتما أشد الاهتمام بالنشاطات التى كانت تجرى داخل القاعات الثلاث . وكلما عبر الناس من الفناء كانوا يلقون نظرة قلقة فى ذلك الاتجاه ليروا ان كانت أعمال الصبغ والاصلاح التى ارتهن بها مصيرهم ، قد انتهت أم لا . وكانت الزوجات العليات يشعلن البخور ويقمن كل يوم بالصلاة للآله الحارس لأسرة تشينغ كى يمدهن بالعون . وقد سلمن فى الحال المواد الموكبية ، ولكن الأختام الامبراطورية لم تؤخذ منهن لأنها كانت منقوشة بكلتا اللغتين الهانية والمانشوية وبذلك فهى غير ملائمة لأغراض يوان .

والتغير الكبير الذى طرأ على حجرة الدرس هو ان معلمي الخصوصيين أصبحوا شديدى التأدب مع زميلى فى الدراسة يوى تشونغ لأنه كان ابن بو لون المحمى من يوان شى كاى . وذات يوم ، عندما كان يوى تشونغ خارج حجرة الدرس فى زيارة الى مقار الزوجات العليات نظر تشن باو شن الى خارج

النافذة ليتأكد انه لا أحد فى الخارج ، وأخرج قطعة ورق وقال لي خلسة :

ـ تابعكم قام بالعرافة فى الليلة الماضية . وأرجو من جلالتكم ان تنظروا الى بشير الفأل هذا .

فأخذت الورقة وقرأت فيها : "خصمى عنده مرض ، انه غير قادر على الاقتراب منى ميمون ." وشرح لي تشن ان هذا يعنى ان خصمى يوان شى كاى سيواجه مستقبلا كئيبا وانه لن يكون قادرا على تعريضى للخطر . وكان هذا فألا جيدا ، وبالاضافة الى قيامه بالعرافة بواسطة الكتابات الثلاثية فى كتاب التغيرات ، فقد سفع درع سلحفاة ورجع الى الألفية وكلاهما أعطياه بشائر خيرة أيضا . وقد أخبرنى بهذا كى أبعد عن نفسى القلق . لقد استخدم ذلك الشخص العجوز جميع وسائل العرافة الخاصة بالمجتمع البدائى فى العصور الغابرة ليتأكد من مصيرى . وأعلن نتيجته السعيدة التى توصل اليها بأن يوان الشائن لن ينتهى نهاية طيبة . وان بنود المعاملة التفضيلية منيعة لا يمكن انتهاكها .

ولم تكن نشاطات كل من معلمى الخصوصيين ووالدي ونشاطات كبار موظفى ادارة الأسرة لحماية منصبي وحماية بنود المعاملة التفضيلية مقصورة على استشارة الكهنة ، ومع اننى لم أبلغ بشىء من ذلك رسميا ، الا اننى لم أكن أجهل هذا الأمر . وهم عقدوا مع يوان شى كاى صفقة سرية بأن يدعم البيت الامبراطورى طموح يوان فى ان يصبح امبراطورا مقابل ان يتمسك هوببنود المعاملة التفضيلية . وتم بينهم تبادل الوثائق بهذه الصدد ، ومن ضمنها تعهد بخط يوان بأن يعترف ببنود المعاملة التفضيلية ويدخلها فى الدستور . واتفق كذلك على ان تكون احدى بناته زوجة ـ امبراطورة لي ، ولكن قبل ان تصبح اى من هذه الاتفاقات سارية المفعول مات يوان فى يونيو ١٩١٦ اى بعد ٨٣ يوما فقط من تنصيبه امبراطورا ، وسط عاصفة مدوية من المعارضة صكت أذنيه .

اعادة الملكية عام ١٩١٧

استقبل نبأ موت يوان شى كاى بابتهاج عظيم داخل المدينة المحرمة : واندفع الخصيان هنا وهناك ينشرون هذا الخبر ، وذهبت الزوجات العليات ليشعلن البخور للآله الحارس ، وتوقفت الدروس ذلك اليوم فى قصر يوى تشينغ .

وظهرت آراء جديدة داخل القصر :

ــ مات يوان لأنه أراد ان يغتصب العرش :

ــ ليست المسألة ان النظام الملكى غير صالح للتطبيق ، بل كل ما هنالك ان الشعب يريد عاهله السابق .

ــ كان يوان شى كاى مختلفا عن نابليون الثالث : فهو لم يكن له سلف عريق يعول على دعمه .

ــ كان من الأفضل بكثير اعادة الأمور الى العاهل السابق من ان يعين السيد يوان امبراطورا .

كل هذه الأصوات كانت منسجمة مع قول معلمى الخصوصى : " بسبب الخير العظيم والمنفعة الوافرة التى أغدقتها أسرتنا فان الشعب يفكر فى النظام السابق " .

وكنت حينذاك قد وصلت سنا تكفى لأن أهتم بالصحف التى غصت بعد أيام غير كثيرة من موت يوان بتقارير عن " اخفاق الانتفاضة التى قام بها حزب العشيرة الامبراطورية " و " تهديد قطاع الطرق المنغوليين والمانشويين " . ومن هذه المواد الاخبارية علمت ان أربعة من النبلاء المانشويين ، الذين كانوا مناوئين علنيين للجمهورية من البداية ، ما يزالون يعملون لحسابى . كان أحد هؤلاء الأربعة قد لجأ الى منطقة الامتيازات الأجنبية فى تيانجين ،

والثلاثة الآخرون كانوا يقيمون فى ليوشون وداليان المؤجرتين لليابان ويتواطأون بواسطة سمسار يابانى مع دعاة الحرب والرأسماليين اليابانيين فى سبيل اعادة الملكية ، وأهم هؤلاء كان شان تشى ، الأمير سو ، الذى حصل على مليون يوان من الرأسمالى الكبير أوهيراكيها تشيرو وجاء بضباط يابانيين ليدربوا جيشا يتكون من عدة آلاف من قطاع الطرق المانشوبين والمنغوليين . وبدأوا يثيرون الاضطرابات بعد وفاة يوان شى كاى ، واقتربت احدى قوات هذه المجموعات تحت قيادة النبيل المنغولى بابوجاب ذات مرة من تشانغجياكو القريبة من بكين واصبح الوضع خطيرا ولكن توقف هجومها بسبب قتل بابوجاب على يد أحد معاونيه . وفى ذروة ايام الأزمة ظهرت مظاهر عجيبة وهى ان " الملكيين " والقوات الجمهورية كانوا مشتبكين فى أماكن متعددة فى الشمال الشرقى بينما استمرت الجمهورية و" البلاط الصغير " لأسرة تشينغ فى تبادل زيارات المجاملة . والتحمس الشديد داخل المدينة المحرمة بعد وفاة يوان شى كاى لم يكن بتأثير تحرك بابوجاب وشان تشى المسلح ، كما لم تؤثر فيه هزيمتهما .

بعد موت يوان خلفه لي يوان هونغ رئيسا وأصبح دوان تشى روى رئيسا لمجلس الوزراء . وأرسل القصر مندوبا لتهنئة الرئيس لي ، وأعاد لي هذا الى القصر المواد الموكبية التى كان قد أخذها يوان شى كاى ، ومنح بعض الأمراء والنبلاء وكبار الموظفين من أسرة تشينغ الأوسمة الجمهورية ، ومن بينهم قلة كانت مختبئة زمن يوان شى كاى . وأصبحت ادارة الأسرة أكثر انشغالا من السابق بمنح درجات شرف كألقاب ما بعد الوفاة ، واعطاء اذن بركوب الخيل داخل المدينة المحرمة او لبس ريشة الطاووس ، وجلب فتيات الى الزوجات العليات لاختيار وصيفات من بينهن ، واستخدام الخصيان الجدد سرا على الرغم من الحظر الوارد فى بنود المعاملة التفضيلية . وبالطبع كانت تجرى جميع اشكال الاتصالات التى لم أعلم بها ، من وجبات العشاء الخاصة الى المآدب العامة التى كانت تقام لأعضاء البرلمان الجمهورى .

وباختصار أصبحت المدينة المحرمة نشطة كما كانت الماضى . ومع تقديم تشانغ شيون احتراماته لي عام ١٩١٧ وصلت حركة اعادة الملكية ذروتها .

لم أكن قد استقبلت فى الماضى مثل هذا العدد من الناس الذين كانوا كلهم مانشويين ، فقد كان وقتى حينذاك موزعا بين الدراسة وقراءة الصحف ، اما الفراغ فأزجيه باللعب . ولقد سررت الآن كثيرا وانا أشاهد الناس يدخلون ويخرجون بثياب البلاط ، بل سرتنى اكثر من ذلك أخبار تحرك القوات " الملكية " التابعة للأمير سو وبابوجاب ، وهزيمتهما بالطبع بعثت الغم فى نفسي . ولكننى على العموم سرعان ما نسيت هذه الأمور . وبينما لم يكن فى وسعي الا ان أقلق على هرب الأمير سو الى ليوشون وعلى مصيره غير المعروف ، كان المشهد المسلى لعطاس الجمل الذى أراه أحيانا يكفى لأن يجعلنى أنسى كل شيء حول هذه المسألة . فمع قيام والدي ومعلمي الخصوصيين وكبار اعوانى بالاهتمام بهذه الأمور فلماذا أهتم بها شخصيا ؟ وكان المعلمون الخصوصيون عندما يخبروننى بأية مسألة فهذا يعنى ان كل شيء قد نوقش وتمت الموافقة عليه . وهكذا ايضا جرى حدث ١٦ يونيو ١٩١٧ .

فى ذلك اليوم ، جاءنى تشن باو تشن الذى منح مؤخرا لقب " المساعد الكبير " وليانغ دينغ فن الذى عين حديثا معلما خصوصيا ، الى حجرة الدرس سويا ، وقبل أن يجلسا قال تشن باو تشن :

ـــ لن يكون لدى جلالتكم دروس هذا اليوم . ان موظفا كبيرا قادم لمقابلة جلالتكم ، وسيأتى الى هنا حالا خصى ليعلن عن مجيئه :

ـــ من يكون ؟

ـــ تشانغ شيون الحاكم العام فى جيانغشى وجيانغسو وآنهوى وحاكم جيانغسو بالوكالة .

ـــ تشانغ شيون ؟ هل هو تشانغ شيون الذى أبى ان يقص ضفيرته ؟

فقال ليانغ دينغ فن هازا رأسه بالموافقة :

ــ أجل ذلك هو .

ولم يدع ليانغ الفرصة تفوته ليتملقنى قائلا :

ــ ان ذاكرة جلالتكم قوية جدا .

ولم يكن هذا فى الواقع . لقد أخبرنى تشن باو تشن قبل وقت غير طويل منذ بداية الجمهورية ان تشانغ شيون أسدل هو وجنوده ضفائرهم . وكان يوان شى كاى مدينا باجهازه على " الثورة الثانية " عام ١٩١٣ الى استيلاء جنود تشانغ ذوى الضفائر الطويلة على نانجينغ . واثناء سلب المدينة اعتدى رجال تشانغ شيون سهوا على بعض أفراد القنصلية اليابانية ، فذهب واعتذر من القنصل اليابانى شخصيا ووعد بأن يعوض عن الاضرار كاملة . بعد موت الامبراطورة الأرملة لونغ يوى أعلن تشانغ شيون الحداد الوطنى فى برقية تعزية وقال فيها : " اننا جميعا الموظفين الجمهوريين ، رعايا لأسرة تشينغ العظيمة . " وبعد موت يوان شى كاى نشرت فى الصحيفة برقية تعزية من تشانغ شيون أبرز فيها موقفه السياسى حينذاك حيث بدأها بقوله : " اننى أعلق بالغ الأهمية على بنود المعاملة التفضيلية لبيت تشينغ " . واعتقدت انه كان تابعا مخلصا وتشوقت الى رؤيته .

وفقا لعرف بيت تشينغ لم يكن مسموحا لأى شخص آخر بالحضور عندما تكون هناك مقابلة لموظف كبير مع الامبراطور . ولهذا السبب اضطر معلمى الخصوصى الى اعطائى بعض التدريب واخبارى بما أقوله عند استقبالى لأى شخص لا يأتى بانتظام . وفى هذه المرة قال لي تشن باو تشن بمنتهى الجدية ان على ان أشيد بولاء تشانغ شيون واننى يجب ان أتذكر انه كان حاكما كبيرا لنهر اليانغتسى وعنده ستون كتيبة من الجند فى منطقة شيوتشو ويانتشو ، وان بوسعى ان أسأله عن الوضع العسكرى فى شيوتشو ويانتشو حتى يبدو واضحا تماما اننى مهتم به . وفى النهاية كرر تشن مرتين او ثلاث مرات ما

يلي : " تشانغ شيون مصمم على الاشادة بجلالتكم . يجب ان تتذكروا ان تجيبوه بتواضع كي تظهر فضيلة جلالتكم السماوية . "

وحاولت ان أرسم في ذهني صورة لتشانغ شيون مستقاة من المجلات المصورة التي اشتراها لي الخصيان ، ولكنني لم أنجح في ذلك عندما نزلت من محفتي . وبعد ان وصلت قصر تهذيب النفوس بوقت قصير جدا وصل هو الآخر ، وبعد ان جلست على العرش ركع أمامي وسجد قائلا :

ـ تابعكم تشانغ شيون يركع ويقدم احتراماته . . .

فلوحت له بالجلوس على كرسي حيث ان البلاط كان قد أنهى تقليد استماع التقرير من الموظفين وهم في حالة سجود . فسجد ثانية وشكرني ثم جلس . وسألته رسميا عن الوضع العسكري في منطقة شيوتشو ويانتشو ، ولكنني لم أظهر اي اهتمام بجوابه . فقد أصبت بشيء من خيبة الامل ازاء مظهر هذا " التابع المخلص " لي . كان يلبس سترة وثوبا من الحرير الرقيق ، وكان وجهه متوردا يعلوه حاجبان كثيفان ، وكان بدينا . وجعلني منظر رقبته القصيرة أظن انه يبدو كواحد من الطباخين الخصيان . لقد كان بعيدا عن الكمال . ودققت النظر لأرى ان كانت له ضفيرة ، فكان له فعلا ضفيرة رمادية مرقشة .

ثم بدأ يتحدث عني ، كما توقع تشن باو تشن ، باصطلاحات مفعمة بالاحترام ، فقال :

ـ ان جلالتكم ذكي حقا .

فأجبته قائلا :

ـ انني لست ذكيا كما ينبغي . مازلت صغيرا وأعرف القليل القليل .

ـ ان الامبراطور شينغ تسو من هذه الأسرة (كانغ شي) قد اعتلى العرش في سنواته المبكرة ، كان في الخامسة فقط .

ـ كيف يمكنني ان أقارن بسلفي المبجل ؟ لقد كان سلفي على أية حال . . .

ولم تكن هذه المقابلة أطول بكثير من المقابلات المألوفة ، فقد غادر

بعد خمس اوست دقائق . ووجدت كلامه خشنا بعض الشيء وفكرت انه لا يمكن مقارنته مع تسنغ قوه فان (١٩) : انني لم أسر به كثيرا . ولكن عندما جاء تشن باو تشن وليانغ دينغ فن الي فى اليوم التالى ، والابتسامات تشع من وجهيهما ، ليخبراني بأن تشانغ شيون قد أشاد بتواضعى وذكائى شعرت بالزهو الشديد . ولم أسأل نفسى لماذا جاء تشانغ للمقابلة ، او لماذا كان معلماى الخصوصيان مسرورين هذا السرور الواضح ، او لماذا أعطته ادارة الأسرة تلك الهدايا المفرطة ، او لماذا اقامت له الزوجات العليات مأدبة .

وبعد حوالى اسبوعين ، فى اول يوليو ، جاء المعلمون تشن باو تشن وليانغ دينغ فن مع تشو يى فان الذى وصل حديثا الى حجرة الدرس معا وسيماء الجد تعلو وجوههم . وكان تشن باو تشن أول من تكلم قائلا :

ــ ان تشانغ شيون هنا . . .

ــ هل جاء ليقدم احتراماته ؟

ــ لا ، انه لم يأت من أجل ذلك فقط . لقد اتخذت جميع الاستعدادات ورتب كل شيء . لقد جاء ليعيد جلالتكم الى السلطة ويعيد الملك لأسرة تشينغ العظيمة .

ولما رأى اننى فوجئت بهذا الأمر تابع يقول :

ــ ينبغى لجلالتكم ان تسمحوا لتشانغ شيون بأن يفعل ذلك . انه يطلب تفويضا باسم الشعب ، فالسماء قد استجابت لرغبات الشعب . . .

ذهلت بهذه الأخبار الجيدة التى لم تكن متوقعة أبدا . وحدقت الى تشن باو تشن فى ذهول ، آملا ان يخبرنى قليلا عن كيفية تحولى الى " امبراطور حقيقى " .

فقال تشن باو تشن بمنتهى الثقة :

ــ لا حاجة الى ان تقول الكثير لتشانغ شيون . كلما ينبغى ان تفعله هو ان توافق ، ولكن لا يصح ان توافق حالا . يجب ان ترفض فى البداية ، ثم

فى النهاية تقول : " اذا كانت الأمور هكذا فلا بد ان أكره نفسى على القيام بذلك " .

عدت الى قصر تهذيب النفوس واستقبلت تشانغ شيون فى مقابلة ثانية . وكان ما قاله تشانغ شيون مشابها تماما لما كتبه فى مذكرته التى يطلب فيها اعادة الملكية ، ماعدا أن لهجته فى المقابلة كانت أقل أناقة .

ــ ان الامبراطورة الأرملة لونغ يوى لم تكن تريد انزال كارثة بالشعب من أجل مركز مرموق لأسرة واحدة ، لذلك أصدرت مرسوما يأمر بتأسيس جمهورية . ولكن من كان يظن أنها قد أديرت على نحو بالغ السوء بحيث لم يعد أمام الشعب سبيل لكسب معيشته . . . ان الجمهورية لا تناسب بلادنا ... واعادة ملك جلالتكم هى وحدها التى ستنقذ الشعب .

وعندما انتهى من هذيانه قلت :

ــ اننى صغير جدا ، ليست عندى موهبة ولا فضيلة . واننى لا أستطيع ان أضطلع بمنصب عظيم كهذا .

فأمطرنى بالثناءات ، وتحدث بكل رتابة عن كيفية تسلم الامبراطور كانغ شي العرش وهو فى سن الخامسة . وفيما كان يتكلم رحت أفكر فى السؤال التالى :

ــ ماذا بخصوص رئيسهم ؟ هل سنقدم له معاملة تفضيلية ؟

ــ لقد قدم لي يوان هونغ مذكرة يطلب فيها ان يسمح له بالاستقالة . وكل ما هو مطلوب من جلالتكم ان تمنحوه الموافقة على طلبه .

ــ آه . . .

ومع اننى لم أكن أفهم ما كان يجرى ، الا اننى فكرت ان المعلمين الخصوصيين قد رتبوا كل شيء وان علي ان أنهى هذه المقابلة بسرعة ، فقلت :

ــ اذا كانت الأمور هكذا فلا بد ان أكره نفسي على القيام بما تقول .

وبنطقي هذه الجملة اعتبرت نفسي امبراطورا لـ " امبراطورية تشينغ العظيمة " مرة ثانية .

وبعد مغادرة تشانغ شيون جاءت حشود الناس لتسجد لي ، جاء بعضهم ليقدم لي الاحترامات ، وبعضهم ليشكرني ، وبعضهم ليشكرني ويقدم الاحترامات فى آن معا . وبعد هذا احضر لي خصى كومة من تسعة " مراسيم امبراطورية " كانت قد كتبت . أول هذه المراسيم أعلن فيها عودتى الى العرش ، وفى مرسوم آخر آمر بتأليف لجنة من سبعة أوصياء على العرش ، من بينهم تشانغ شيون وتشن باو تشن .

ان أبناء بكين المسنين يذكرون كيف ان البوليس فى ذلك الصباح طلب فجأة من أهالى العاصمة ان يعلقوا أعلام التنين الامبراطورية على أبوابهم ، فاضطر الأهالى الى صنع هذه الأعلام بالورق والعجينة اللاصقة . وظهرت فى الشوارع من جديد ملابس تشينغ التى لم تكن قد شوهدت منذ سنوات ، يلبسها أناس بدوا كأنهم قد خرجوا لتوهم من توابيتهم . وأصدرت الصحف اعدادا خاصة ، مكرسة للمناسبة وبيعت بسعر أعلى من المعتاد . وظهر من بين هذه المشاهد الغريبة باعة الصحف وهم يصيحون : " مراسيم شيوان تونغ " ، " أثريات ست قطع نقدية فقط ! هذا الهراء سيصبح أثريا بعد بضعة أيام — ست قطع نقدية لكل أثرية واحد — رخيصة جدا . "

فى تلك الأيام ازدهرت حال بعض المحلات خارج بوابة تشيان من : فالخياطون كانوا يبيعون أعلام التنين الامبراطورية فور انتهائهم من اعدادها ، ومحلات الملابس المستعملة وجدت الموظفين الذين عينوا حديثا يتسابقون للحصول على ثوب من ثياب بلاط تشينغ ، وخياطو الأزياء المسرحية تجمع عليهم الناس ليعملوا لهم ضفائر من شعر الخيل . ومازلت أذكر كيف اكتظت المدينة المحرمة باللابسين ثياب البلاط والقبعات المذيلة بريشة الطاووس ، ومن قذال كل منهم تدلت ضفيرة . لقد امتلأت المدينة فى تلك الأيام

بالضفائر المزيفة والحقيقية ، ثم ما لبثت ان غطت الأرض فى كل انحاء العاصمة مع اقتراب الجيش القادم اليها لمعاقبة المتمردين . ويقال ان جنود تشانغ شيون قد قصوا ضفائرهم حين كانوا يهربون امام الجيش حيث صار بامكان المرء ان يلتقط ضفيرة حقيقية كلما اراد فى اى مكان من العاصمة !

ولو كان زوار المدينة المحرمة يمتلكون حساسية باعة الصحف بخصوص المراسيم الامبراطورية والضفائر لما اخذهم الحماس فى تلك الأيام المعدودات .

نأتى الى أمراء ونبلاء العشيرة الملكية فنجد أنهم أصيبوا بخيبة أمل كبيرة فى ذلك الوقت . فبعد اعادة الملكية بيومين اصدر تشانغ شيون " مرسوما امبراطوريا " يحظر عليهم التدخل فى شؤون الدولة . وأراد والدى الذى قاد النبلاء المتضررين من هذا المرسوم ان يناقش هذه النقطة مع تشانغ شيون ومعى . وعندما سمع معلمى تشن بهذا هرع الي ليطلب منى ان أرفضهم ، ذلك لأن عجزهم التام هو الذى أدى الى التنازل عن العرش عام ١٩١٢ . فاتبعت نصيحته . وقبل ان تتاح الفرصة للأمراء والنبلاء بان يقوموا باى شيء وصل الجيش الجمهورى الى بكين وانقذهم من مسئولية اعادة الملكية ! وادهشنى تشن باو تشن المتماسك والبعيد النظر ، فى تحمسه لهذا الحدث وفى العنف الذى ابداه بشأن الرئيس لى يوان هونغ الذى رفض التنازل عندما طلب منه المعلم الخصوصى ليانغ دينغ فن ذلك . فقد جاء المعلمون الثلاثة الى قصر يوى تشينغ ووجه تشن محتقن بالغضب ، وانفجر يقول على نحو يتعذر كبحه :

ــ لقد تجرأ لي يوان هونغ فعلا على رفض اعطائه الأمر . فهل لجلالتكم ان تتفضلوا باصدار أمر اليه بالانتحار فورا .

فجفلت لدى سماعى اقتراحا مفرطا كهذا وقلت :

ــ انه لا يمكن أبدا بالنسبة لي أن أطلب من لي يوان هونغ قتل نفسه فور عودتى الى العرش ، ألم تمنحنى الجمهورية المعاملة التفضيلية ؟

كانت هذه هي المرة الأولى التي أرد فيها على تشن باو تشن بهذه الصراحة ، ولكنه كان شديد الاندفاع فى كراهيته لهذا الرئيس بحيث استمر يقول غير منتبه لأى شيء آخر :

ـــ ان لى يوان هونغ ليس فقط رفض ان يستقيل . بل هو متمسك بقصر الرئاسة ، ذلك الأفاك المتمرد والخائن ، كيف يمكن لجلالتكم ان تذكروه بذات النفس الصادر عنكم ؟

ولما رأى مدى تصميمى على رفض اتباع نصيحته اضطر الى التخلى عن اقتراحه . ووافق على ان يذهب ليانغ دينغ فن كمبعوث للقيام بمحاولة أخرى لاقناع الرئيس لي يوان هونغ بمغادرة القصر . ولكنه وجد ان لي قد هرب باختتام مكتبه الى المفوضية اليابانية .

فى الأيام القليلة الأولى من اعادة الملكية كنت أمضى نصف وقتى فى قصر يوى تشينغ . ومع ان دروسى علقت ، الا اننى كنت مضطرا الى رؤية معلمي الخصوصيين الذين كان على اتباع نصائحهم فى كل ما أفعله . وبقية وقتى كنت أمضيها فى مراجعة " المراسيم الأمبراطورية " التى ستصدر ، وقراءة نشرات مجلس البلاط الرسمية وتلقى الاحترامات والتحيات . وبالاضافة الى هذا كله كنت أراقب النمال تزحف من ثقب فى الأرض الى آخر ، أو أطلب من خصيان الاصطبلات الامبراطورية ان يخرجوا بعض الجمال للتسلى برؤيتها . ولكن لم تمض خمسة أيام حتى تهاوت القنابل من الطائرات الحربية على المتمردين ، فغيرت كل شيء تغييرا تاما . فلم يعد أحد يأتى ليركع لي ، ولم تعد هناك " مراسيم أمبراطورية " ، واختفى جميع الأوصياء على عرشي عدا تشن باو تشن ووصى آخر هو وانغ شى تشن .

يوم الغارة الجوية كنت جالسا فى حجرة الدرس أتكلم مع معلمى الخصوصيين ، فسمعت طائرة وصوت انفجار غير مألوف ، فذعرت حتى اننى ارتجفت بشدة ، وجف الدم فى وجوه معلمى الخصوصيين . ووسط هذا

الاضطراب الشديد أسرع بى الخصيان الى قصر تهذيب النفوس كأنما غرفة نومى هى المكان الآمن الوحيد . وكانت الزوجات العليات فى حالة سيئة مماثلة ، بعضهن فى زوايا غرف النوم ، وبعضهن مختبىء تحت المنضدة . وامتلأ الجو بالصياح ، وعمت الفوضى القصر بأكمله . وكانت هذه أول غارة جوية فى تاريخ الصين ، والمرة الأولى التى تستخدم فيها القوة الجوية الصينية فى حرب داخلية . اما احتياطات الغارة الجوية الأولى فاقتصرت على الاختباء تحت الأسرة ، وطرح حواجز الخيزران القائمة فى الممرات ووفقا لأقصى ما وصلت اليه معرفة الخصيان وحرس القصر ، فان هذه كانت من أكثر الاجراءات التى اتخذوها تعقلا . ومن حسن الحظ ان ربان الطائرة لم يكن جادا . فلم يزد على أن أخافنا بالقاء ثلاث قنابل صغيرة فقط طول الواحدة منها حوالى قدم . سقطت احداها خارج بوابة تشريف الأسلاف (لونغ تسونغ من) ، جارحة أحد حاملى المحفات ، وسقطت الثانية فى بركة داخل الحديقة الامبراطورية ، ملحقة الضرر بزاوية البركة ، والثالثة سقطت على سطح أحد المداخل فى الممر الغربى من القصر ، باعثة الذعر فى قلوب حشد من الخصيان كانوا يلعبون القمار على الرغم من انها لم تنفجر .

وبعد هذا بوقت قصير سمع فى المدينة المحرمة صوت مدفعية . ولم يحضر وانغ شى تشن وتشن باو تشن الى البلاط ، ولم يعد للقصر اتصال بالعالم الخارجى . وبعد فترة قصيرة جاء تقرير مزيف من قائد حرس القصر يقول ان جيش دوان تشى روى الجمهورى قد هزم على أيدى رجال تشانغ شيون ، ولكن فى الصباح التالى ذهبت أخبار هروب تشانغ شيون الى السفارة الهولندية بابتسامات اليوم السابق .

وفى ذلك الحين ظهر والدى وتشن باو تشن امامى ، والاكتئاب مرتسم على وجهيهما المفعمين باليأس . وكنت ارتجف من الخوف والحزن فى آن معا . وعندما قرأت مرسوم التنازل عن العرش الذى كانا قد كتباه لي أجهشت بالبكاء .

وكان نص المرسوم كما يلى :

فى اليوم العشرين من الشهر الخامس من السنة التاسعة لعهد شيوان تونغ يتلقى مجلس البلاط هذا المرسوم الامبراطورى : لقد اتبعنا فى السابق مذكرات تشانغ شيون وغيره التى تقول ان الوطن فى حالة فوضى كبيرة وإن الشعب يتوق للأيام الماضية ، وتنصحنا باستئناف ادارة الحكومة . ولما كانت سنواتنا غير ناضجة ونحن نعيش منعزلين داخل المدينة المحرمة ، فاننا لم نسمع شيئا عن معيشة الشعب وشؤون الوطن . واننا ، بتذكرنا بكل اجلال الخير العظيم والتعاليم التى كانت لدى الامبراطورة المبجلة الأخيرة شياو دينغ جينغ (اونغ يوى) التى تنازلت عن الحكم آسفة من أجل الشعب ، ليس لدينا أدنى نية لمعاملة العالم على انه من ممتلكاتنا الخاصة . وانه بسبب مطالبتنا بانقاذ الوطن والشعب أجبرنا انفسنا على تلبية المطالب واستأنفنا السلطة .

والبارحة أبلغنا تشانغ شيون بانتفاضات مسلحة فى كل مقاطعة ، يمكن ان تؤدى الى تمردات عسكرية فى الصراع على السلطة . ان شعبنا يعانى الصعوبات منذ سنوات ، وحالته ميئوس منها ، كأنما هو يحرق او يغرق . فكيف يمكننا اذن ان نضاعف من مآسيه بشن الحرب ؟ واننا من جراء تفكيرنا فى هذا استبد بنا الاضطراب وأصبحنا غير قادرين على الشعور بالاطمئنان . لذلك قررنا ألا نستبقى لأنفسنا هذه السلطة السياسية ملوثين روح الامبراطورة المبجلة شياو دينغ جينغ بادارة ظهورنا الى فضائلها الجمة .

فليقم وانغ شى تشن وشيوى شى تشانغ بابلاغ دوان تشى روى حالا ان انتقال السلطة يمكن ان يرتب والاضطرابات الحالية يمكن ان يوضع لها حد ، مهدئين روع الشعب ومتجنبين كارثة الحرب .

بأمر من الامبراطور .

رؤوس عصبة بيبانغ

لم يصدر مرسوم التنازل هذا أبدا ، بل كل ما نشر فى ذلك الوقت كان بيانا لادارة الأسرة استهل بأمر من رئيس الجمهورية .

بأمر من رئيس الجمهورية :

ان وزارة الداخلية تبلغ أنها قد تسلمت الرسالة التالية من ادارة الأسرة فى بيت تشينغ :

هذا اليوم تسلمت ادارة الاسرة مرسوما :

سابقا فى اليوم الخامس والعشرين من الشهر الثانى عشر فى السنة الثالثة من حكم شيوان تونغ أصدرت الامبراطورة الأرملة المبجلة لونغ يوى مرسوما يعترف بأن الشعب كله كان ميالا الى الجمهورية ، فأعادت هى والامبراطور سلطة الحكم الى البلاد كلها ، وأمرت بوجوب تأسيس جمهورية . ان بنود المعاملة التفضيلية لبيت تشينغ يجب التمسك بها الى الأبد . وطوال السنوات الست الماضية كان بيت تشينغ يعامل معاملة جيدة ، ولم تكن لديه أية نية لاستخدام السلطة السياسية من أجل أغراضه الخاصة ، فأى سبب هناك يجعله يرجع عن كلمته ؟

ولكن على عكس ما كان متوقعا قاد تشانغ شيون جنده لاحتلال القصر فى اول يوليو ، وأصدر على نحو اعتباطى أوامر ومراسيم ، وغير اسم الدولة ، عاصيا بذلك تعليمات الامبراطورة الأرملة للأسرة السابقة . وأنا بوصفى صبيا أعيش معزولا داخل المدينة المحرمة لم يكن أمامى خيار فى تلك المسألة . ففى هذه الظروف يجب ان يلتمس لي العذر من العالم بأكمله . وقد بلغت ادارة الأسرة بأن تطلب من حكومة الجمهورية ان تعلن هذا داخل البلاد وخارجها .

وعندما تلقت وزارة الداخلية هذه الرسالة رأت ان من الصواب التبليغ بها .

ولما كان معروفا ان تشانغ شيون الخائن المغتصب للعرش هو المدبر لهذه الاضطرابات ، فليتم اعلان تفاصيل هذه الوثيقة على عجل .

للمعلومات العامة .

صادرة رئيس الوزراء دوان تشى روى .

١٧ يوليو ، السنة السادسة لجمهورية الصين .

وبالتعاون بين الرؤساء الثلاثة لعصبة بيبانغ والمدينة المحرمة غيرت عبارة : " انني قد قررت استئناف السلطة " الواردة فى مرسوم التنازل الى عبارة (احتلال تشانغ شيون القصر) وعبارة (الصبى ليس لديه خيار فى تلك المسألة) اللتين وردتا فى بيان ادارة أسرة . والذى توصل الى هذه الصيغة الذكية هو معلمى الخصوصى الكبير شيوى شى تشانغ ، وقد نفذها الرئيس فنغ قوه تشانغ ورئيس الوزراء دوان تشى روى . وتموه دور المدينة المحرمة فى اعادة الملكية نهائيا ، ولم تحظ نشاطاتها الجديدة بعد اخفاق هذه المحاولة باهتمام العالم الخارجى .

ولما كان القصر قادرا على اسدال ستار على دوره فى اعادة الملكية ، فان اهتمام الرأى العام قد تركز على مؤيديها الفاشلين خارج المدينة المحرمة . وكنت قادرا على تشكيل صورة عما كان قد حدث حقا من خلال المقالات التى قرأتها فى الصحف ومما أخبرنى به المعلمون الخصوصيون .

فبعد اخفاق يوان شى كاى فى اغتصاب العرش عام ١٩١٦ اتفق شيوى شى تشانغ وتشانغ شيون على ان اعادة الملكية الى تشينغ هى فرصتهما الوحيدة لمقاومة الجمهوريين الجنوبيين . وبعد وفاة يوان دعا تشانغ شيون الى مؤتمر لأمراء الحرب فى مقره الرئيسى فى شيوتشو (مؤتمر شيوتشو الثانى) تقرر فيه ان الشيء الأول هو الحصول على دعم أجنبى ، وخاصة من اليابان . وعندما حظيت خطتهما بالقبول من قائد الحامية اليابانية فى تيانجين أنشأ تشانغ شيون صلة مع الجنود " الملكيين " الذين كان يقودهم بابوجاب والأمير سو فى منغوليا الداخلية والشمال الشرقى . واتفق مع بعض أمراء الحرب الآخرين على الزحف الى بكين بحجة حمايتها من الجيش " الملكى " ، ولكن هذه

الخطة أخفقت عندما قتل بابوجاب على يد أحد أعوانه .

المدبر الآخر لمؤامرة اعادة الملكية ، شيوى شى تشانغ ، حاول ان يظفر بدعم مجلس الوزراء اليابانى لخطته ، ولكن عندما تأكد تشانغ شيون ان شيوى يحاول ان يكون هوالوصى على العرش استشاط غضبا وانشقت الحركة الملكية .

وفى تلك الأثناء كان هناك صراع على السلطة يجرى فى بكين بين أمير الحرب دوان تشى روى من عصبة بييانغ ، الذى كان رئيس وزراء فى ذلك الوقت ، وبين الرئيس لى يوان هونغ . وعندما طرد دوان من رئاسة الوزارة نفذ الى تيانجين لتحريض تشانغ على مناهضة لي يوان هونغ . اما تشانغ شيون ، الذى كان قد حصل على وعد بالدعم من أمراء الحرب الآخرين فى كافة المقاطعات وقائدى عصبة بييانغ دوان تشى روى وفنغ قوه تشانغ فى مؤتمره الرابع فى شيوتشو ، فقد رأى ان هذه فرصته ليقود جنوده شمالا . فخدع لي يوان هونغ بأن جعله يدعوه الى المجىء للتوسط بينه وبين دوان تشى روى . وبعد ان اتصل برؤساء عصبة بييانغ فى تيانجين دخل بكين ونفذ مؤامرته باعادة الملكية فى اول يوليو .

عزت معظم الصحف اخفاق تشانغ شيون الى احتكاره السلطة وارتكابه اخطاء فاحشة بحق جماعته حيث اكتفى باعطاء شيوى شى تشانغ مجرد لقب فارغ واستهان بدوان تشى روى . وكان وقد توهم انه وضع قادة عصبة بييانغ فى جيبه ، ولذا فقد دهش لسماعه ان دوان تشى روى قد أخذ عهدا على جنوده فى تيانجين بأن " يعاقبوا المتمردين " وان أمراء الحرب المحليين الآخرين قد غيروا جميعا مواقفهم وأصبحوا " مؤيدين للجمهورية " . ذلك التغير المفاجىء الذى عاد على دوان تشى روى وفنغ قوه تشانغ بعطاء سخى حيث أصبح الأول رئيسا للوزراء مرة أخرى وفاز الثانى بالرئاسة . ولكن مع ان اللوم فى اعادة الملكية قد وقع على تشانغ شيون ، الا ان السلطات الجمهورية

الجديدة عاملته بمنتهى الرفق ، بعد ان أخبرهم بأنه حصل على صندوق من الوثائق التى أثبتت انهم قد دعموا فى الأصل خطة الملكية وانهم متورطون فى نفس الجريمة . وعندما أصبح شيوى شى تشانغ رئيسا فى السنة التالية سحبت مذكرة القبض عليه .

وما أدهشنى فى كل هذه المفاجآت هو ان جميع رؤساء عصبة بيبانغ وبعض الشخصيات القيادية الأخرى فى الجمهورية كانوا ملكيين متحمسين ، وانهم الآن يجعلون من تشانغ شيون كبش الفداء من اجل حمايتى . ولقد صرحوا بكل حزم ان القصر ليس ملاما . وأعلن فنغ قوه تشانغ فى برقيته عن دعمه للجيش فى معاقبة المتمردين ، بل ذهب أبعد من ذلك بكثير حين قال : " اننى لم أكن مؤيدا للجمهورية فى أيام أسرة تشينغ ولكن ضغط الأحداث ولد جمهورية فى فترة ثورة ١٩١١ . " لماذا كانوا يغطون على المدينة المحرمة ويعلنون ميولهم الملكية بمنتهى الصراحة ؟ ان النتيجة الوحيدة التى استطعت التوصل اليها هى ان هؤلاء الرجال لم يكونوا معارضين حقا لاعادة الملكية ، وان المشكلة الوحيدة فى تلك القضية هى : من الذى يقود الملكية .

ان جميع القطط سواء منها البيضاء او المخططة هى من وجهة نظر المدينة المحرمة قطط جيدة مادامت تصطاد الفئران . انه لا فرق عندنا فى ان يكون السيد تشانغ او السيد دوان هو الذى يعيد الملكية . ولذا فان آمال الملكيين قد تركزت الآن على هذين الرجلين القويين الجديدين فنغ قوه تشانغ ودوان تشى روى بعد وصولهما الى السلطة . ولكن خطط القصر لم تعد بأية نتيجة عندما انشقت عصبة بيبانغ الى زمرة تشيلى بقيادة فنغ قوه تشانغ وزمرة آنهوى بقيادة دوان تشى روى . ومع ان دوان قد اشعر القصر من خلال شى شو رئيس ادارة الأسرة بأن اعادة الملكية ما تزال ممكنة تماما ، الا ان شى شو أصبح على حذر بحيث لم يعلق أهمية كبيرة على كلمة يقولها رجل جاء الى السلطة من خلال قيادته حملة ضد اعادة الملكية .

خلف فنغ قوه تشانغ فى الرئاسة شيوى شى تشانغ . وبعد انهيار مخطط اعادة الملكية عام ١٩١٧ مباشرة نشر تعليق فى " صحيفة الاخبار الشانغهانية " احتوى على مقطع ترك أثرا كبيرا على المدينة المحرمة :

لو ان اعادة الملكية قد خطط لها شيوى شى تشانغ لما عولجت بالتأكيد هذه المعالجة غير المتقنة ، ولو لم تكن من عمل تشانغ شيون لاعترف قادة عصبة بييانغ فورا بأنهم أتباع للأمبراطور . . .

وهكذا لم أكن أنا الوحيد الذى اغتبط بهذه الخطة التى جعلت منه امبراطورا بضعة أيام ، بل ان الملكيين الآخرين أيضا كانوا متحمسين جدا فى بداية رئاسة شيوى شى تشانغ .

أخبرنى شيخ مانشوى فى الستين من عمره يقيم فى بكين : " عندما أصبح شيوى شى تشانغ رئيسا عام ١٩١٨ ظهرت كثير من العربات المانشوية وتسريحات الشعر النسائية فى شوارع بكين ، وأصبحت بيوت النبلاء صاخبة بضجيج أعياد الميلاد والعروض المسرحية والمآدب . بل ظهرت كذلك فرق مسرحية للنبلاء الهواة ونواد أخرى . . . "

وأخبرنى شيخ آخر من أصل هانى : " مرت ثلاث مناسبات بعد تأسيس الجمهورية مشينا خلالها أسلافا (٢٠) فى شوارع بكين . الأولى بعد وفاة الامبراطورة الأرملة لونغ يوى ، والثانية حين اعاد تشانغ شيون الملكية ، والثالثة امتدت من تعيين شيوى شى تشانغ رئيسا الى ' الزفاف العظيم ' (٢١) . وفى هذه المرة الأخيرة بلغ فيها النشاط ذروته . . . "

لقد كان شيوى شى تشانغ صديقا ليوان شى كاى فى ايام عزه ، وكان يوان يستشيره قبل القيام بأية حركة هامة تقريبا . وقيل ان يوان وشيوى شى تشانغ قد أجريا مناقشة مع فنغ قوه تشانغ ودوان تشى روى وآخرين قبل ان يجعلا الامبراطورة الأرملة لونغ يوى تتخلى عن سلطة الدولة عام ١٩١٢ .

وانهما اتفقا فى هذا الاجتماع على ان الجيش الجمهورى لا بد ان يؤخذ بالحيلة بدل القوة ، وانهما يجب ان يقبلا أولا بشروط الثوريين ويؤسسا جمهورية ، ثم يقومان بشق الجيش الثورى لحل الجمهورية واعادة الامبراطور الى العرش . ولم يكن شيوى شى تشانغ مسرورا أبدا عندما أعلن يوان شى كاى نفسه امبراطورا عام ١٩١٦ . وقد علم أحد أقربائى ذات مرة من ابن شقيقة شيوى شى تشانغ ان يوان جاء ليرى شيوى فى نفس اليوم الذى ألغى فيه سلطته الامبراطورية وعندما دخل يوان غرفة الاستقبال كان ابن الشقيقة هذا فى غرفة التدخين المجاورة لغرفة الاستقبال فلم يجرؤ على الخروج . ومما استطاع ان يلتقطه من المحادثة تبين ان شيوى شى تشانغ كان ينصح يوان بأن " يتقيد بالاتفاقية الأصلية " ، ولكنه لم يستطع ان يستوضح جواب يوان . ووفقا لما أظهرته التطورات اللاحقة ، يمكن الترجيح ان يوان لم يقبل بالاقتراح او انه مات قبل ان يستطيع انفاذه . ولكن شيوى شى تشانغ لم يتخل أبدا عن فكرة اعادة الملكية .

وعندما أصبح شيوى رئيسا فى سبتمبر ١٩١٨ أعلن أنه لن يستطيع الاقامة فى قصر الرئاسة (وكان فى الاصل قسما من القصر الامبراطورى) ، وانه لذلك سيقيم فى بيته الى ان يبنى قصر رئاسى جديد ، صفح عن تشانغ شيون ، وأيد دراسة الكتب الكونفوشية ، وبجل كونفوشيوس ، وقدم القرابين للسماء ، ومنح أفراد الأسرة الامبراطورية مناصب مدنية وعسكرية . واعتبر أسرة تشينغ " أسرته الحالية" ، وتكلم عنى كما لو كنت الامبراطور الحاكم .

عملت ادارة الأسرة على تزويد شيوى بالدعم المالى المباشر لانتخابه رئيسا . وبعد ان توضح انه سيفوز بالرئاسة أعلن فى مأدبة عشاء خاصة أقامها له كبار الموظفين السابقين فى ادارة الأسرة ان الهدف من اخذه هذا المنصب هو ان "يكون وصيا للملك الصغير" ، وأهدى شى شو كذلك لفيفتين كتب عليهما مقطوعة شعرية بخط يده يعبر فيها عن عواطف الولاء لي .

لم يخبرنى الناس الذين حولى شيئا عن هذه الأحداث فى ذلك الوقت . وكل ما عرفته هوان اسم شيوى كان يذكر دائما بطريقة مفعمة بالأمل ، وان المدينة المحرمة منذ مجيئه الى السلطة كانت تضج بالحيوية والنشاط : صارت ألقاب ما بعد الوفاة والاذن بركوب الخيل داخل القصر أكثر جاذبية ، وأخذ كبار الموظفين السابقين فى أسرة تشينغ ، الحقيقى منهم والمزيف يتدفقون على القصر أفواجا . ومع ان معلمى الخصوصيين لم يفعلوا الكثير بخصوص المفاوضات التى كانت تجرى بين القصر والرئيس ، الا ان تشن باو تشن أبدى ذات مرة الملاحظة التالية الراشحة بالازدراء : " ان شيوى شى تشانغ ما يزال راغبا فى ان يكون أميرا وصيا ، انه لمطلب كبير بعض الشيء، فمنصب نبيل يكفيه " . وعلق فى مناسبة أخرى قائلا : " لقد اقترح أصلا ان ابنة موظف هانى يجب ان تصبح أمبراطورة ، فما الدافع وراء ذلك . ان بوسعكم ان تروا اى صنف من الناس هو من حقيقة انه أخذ المنصب تحت لواء الجمهورية مع انه معلم خصوصى كبير من أسرة تشينغ . "

ومنذ ذلك الحين لم تعد المدينة المحرمة تتكلم أبدا عن شيوى شى تشانغ بنفس الحماسة السابقة . وهو فى الحقولم يكن فى مركز قوى جدا بعد سنة من مجيئه الى السلطة . ومع انشقاق عصبة بييانغ الى زمرتين لم تعد له تلك السيطرة عليهما بوصفه رئيسا للعصبة . ولقد كان على علاقة متزايدة السوء بدوان تشى روى . وفى عام ١٩١٩ جعلتهما حركة ٤ مايو الطلابية التى هزت الصين كلها يكرسان طاقاتهما للبقاء فى السلطة . وبغض النظر عن مدى ولاء شيوى للملكية ، الا انه لم يكن هناك ما يستطيع فعله لأجل اعادة الملكية ، ولو ان القصر الذى لم يسمع الا القليل من شيوى ، لم ييأس أبدا من المستقبل .

أمل لا يموت

ذات يوم كنت راكبا دراجتي فى حديقة القصر ، وكدت أصدم شخصا عندما اردت الاستدارة . وكان هذا التصرف من الرجل يعتبر خرقا كبيرا للعرف الامبراطورى ، الا اننى لم أهتم بذلك واستدرت ، واوشكت ان أركبها وأنطلق ثانية ، فاذا بى أرى الرجل راكعا على الأرض ، يقول :

ـ خادمكم الوضيع يقدم احتراماته الى السيد المديد العمر !

كان يلبس صدرة سوداء من الصنف الذى يلبسه الخصيان ، ولكن عندما نظرت اليه بمزيد من التمعن لاحظت شعرا قصيرا على ذقنه ، فعرفت انه لا يمكن ان يكون خصيا . فسألته عما يفعل وأنا أقود دراجتي على نحو دائرى فقال :

ـ خادمكم مشرف على المصابيح الكهربائية .

ـ آه ، اذا هذا هو عملك . لقد كنت محظوظا فى انك لم تنقلب حين صدمتك .

ـ ان حظ خادمكم جيد جدا ، فقد تمكنت اليوم من رؤية التنين الحقيقى ابن السماء . أرجو من السيد المديد العمر فى سخائه السماوى ان يغدق على عبده الوضيع لقبا شريفا !

فأضحكنى هذا الطلب السخيف ، وتذكرت لقب التهكم الذى أخبرنى الخصيان انه كان للمتسولين المقرفصين عند رؤوس الجسور . وقلت مقهقها :

ـ حسن جدا ، سأمنحك لقب "هو" (٢٢) حارس الجسر .

ولم أتخيل أبدا ان هذا الشخص المجنون بالألقاب سيحمل مزحتى هذه على محمل الجد ، ويذهب مباشرة الى ادارة الأسرة ليطلب "رخصة النبلاء" . ومن سوء الحظ اننى لم أعرف ماذا كانت نتيجة ذلك .

كان المعلمون الخصوصيون والخصيان فى تلك الأيام غالبا ما يخبروننى بأن الناس فى الريف يسألون : " كيف حال الامبراطور شيوان تونغ ؟ " او " من هو على العرش فى الوقت الحاضر ! ؟ " او " هل سيصبح العالم آمنا اذا جلس التنين الحقيقى ، ابن السماء ، على العرش ؟ " وأخبرنى معلمى الخصوصى للغة الانكليزية ان اشد الناس عداء للملكية ، وفقا لما جاء فى مقالة نشرتها احدى الصحف ، قد خاب أملهم فى الجمهورية ، لذلك كان واضحا ان هؤلاء ايضا قد غيروا آراءهم . وكان السبب الحقيقى فى كلام بعض الناس عن " تشينغ السابق " هو النكبات التى صبها عليهم أمراء الحرب . ولكن معلمى الخصوصيين استخدموا هذا كله ليثبتوا لي ان الشعب يحن الى النظام القديم .

وفى نهاية عهد شيوى شى تشانغ اصبح المرء كثيرا ما يقابل بأناس مشدودين الى الملكية . فكان هناك تاجر يدعى وانغ جيو تشنغ جمع ثروة كبيرة من بيع البدلات العسكرية لجيش زمرة تشيلى . وكان طموحه ان يغدق عليه الشرف الامبراطورى السابق بأن يسمح له بلبس سترة صفراء ، وكان ينفق قدرا هائلا من الوقت والمال لتحقيق هذا الهدف . فأعطاه الخصيان لقبا تهكميا يعنى " المبذر " ، فصار يأتى فى عيد رأس السنة والأعياد الاخرى مع النبلاء القدماء ليركع ويقدم ضريبته الضخمة لي ، وكان يحضر فى كل مرة لفائف سميكة من الأوراق المالية ويبعثرها بسخاء اينما ذهب . وكان الخصيان يفرحون بشدة لرؤيته قادما ، ذلك لأن أى شخص كان يريه الطريق ، او يعلن عن مجيئه او يسحب له ستور الابواب او يصب له الشاى ، او حتى يتكلم معه بضع كلمات ، سيحصل بالتأكيد على لفة اوراق مالية منه . وكان ينفق فضلا عن ذلك مبالغ طائلة بالوسائل الرسمية . وفى النهاية حقق طموحه وأغدق عليه " الشرف " بالسماح له بلبس السترة الصفراء .

وكان الناس يأتون الى المدينة المحرمة كل يوم أو يرسلون المذكرات

بعد من أماكن بعيدة لكي يحظوا بشرف السترة الصفراء ، او تكون لهم سجلات سلالية تثبت انهم حصلوا على شرف معين من أسرة تشينغ او لقب من ألقاب ما بعد الوفاة . وبلغ الهوس بهؤلاء الناس ان القى احدهم وكان يلقب "ليانغ المعتوه" نفسه فى بركة ببكين ليحصل على لقب ما بعد الوفاة ولقب " صادق ومستقيم " . وفيما بعد قدمت طلبات كثيرة للحصول على ألقاب ما بعد الوفاة ، ولذا تقرر ان لا تعطى هذه الألقاب الا لأناس تجاوزوا مرتبة معينة ، والا فان البلاط الصغير سيسمح لنفسه بأن يبدو رخيصا . كما وضعت قيود أشد على منح الامتيازات بركوب الخيل او الانتقال بالمحفة داخل القصر او توزيع اللفائف المكتوبة بخطي . وقد ارتفعت بهذا الاجراء قيمة الألقاب ، حتى لم يعد النبلاء المانشويون وحدهم يعتبرونها " شرفا مميزا " بل وقادة الجمهورية العسكريون كذلك .

وكانت لدى بعض الكتبة العصريين فى ذلك الوقت ، مثل الدكتور هو شي ، افكار مماثلة . وقد حدثنى معلمى الخصوصي جونستون وانا فى الخامسة عشرة عن هذا الدكتور الذى كان يدعو الى استخدام الصينية العصرية فى الكتابة ، وسخر جونستون من قصيدته " نزهة على شاطىء النهر " المكتوب نصفها بالانكليزية ونصفها الآخر بالصينية ، ولكنه قال أيضا انه لن يكون هناك ضير فى ان انظر الى بعض كتاباته بوصفها جزءا من معارفى . وبفعل ذلك تولد عندى بعض التطلع الى رؤية هذه الشخصية الحديثة . وذات يوم دفعنى فضولى الى ان أتصل به هاتفيا ، ودهشت لمجيئه الى القصر عندما دعوته . وسيكون لدي كثير مما أقوله عن هذا اللقاء فيما بعد ، ولكننى أود أن أستشهد برسالة كتبها هذا الدكتور المتفرنج الى جونستون فيما بعد يكشف فيها ان مشاعره كانت مشابهة لمشاعر كبار الموظفين السابقين فى أسرة تشينغ . وفيما يلى قسم من هذه الرسالة :

يجب ان أعترف بأنني تأثرت أعمق التأثر بهذا اللقاء . لقد كنت أقف وأجلس أمام آخر أباطرة بلادى ، آخر ممثل للسلاطين العظام من العصور التاريخية .

والشيء الذى كان أكثر أهمية هو التشجيع الذى تلقاه القصر من افواه الأجانب . وكان من عادة جونستون ان يقدم لي قدرا كبيرا من المعلومات بهذا الصدد . ووفقا لقوله فان كثيرا من الأجانب ظنوا ان اعادة الملكية هى رغبة مشتركة للصينيين العاديين . وكان يقرأ لي مقاطع من الصحف الأجنبية منها المقطع التالى الذى ضمنه فيما بعد كتابه « الشفق داخل المدينة المحرمة » .وهذا المقطع جزء من افتتاحية صحيفة انكليزية اسمها " North China Daily Mail " تصدر فى تيانجين ، عدد ١٩ سبتمبر ١٩١٩ ، تحت عنوان " هل هناك اعادة ملكية أخرى وشيكة ؟ " :

ان سجل الجمهورية يضم كل الأشياء الا السعادة . واليوم نجد الشمال والجنوب مستعدين للنزال . والنتيجة الوحيدة التى يمكن التوصل اليها هى ان النظام الجمهورى فى الصين قد جرب واثبت ان له نواقص . ان طبقات التجار والوجهاء ، وهى العمود الفقرى للبلاد ، قد تعبت من كل هذا النزاع الداخلى ، واننا نعتقد اعتقادا جازما انها ستقدم دعمها المخلص لأى شكل من أشكال الحكومة يضمن السلام للمقاطعات الثمانى عشرة .

يجب ان لا ننسى ان هناك فئة قوية جدا من انصار الملكية لا يمكن أبدا ان يصبحوا ميالين الى الشكل الجمهورى للحكم ، ولكنهم ظلوا صامتين خلال السنوات القليلة الماضية لسبب ما . ولا حاجة الى القول انهم يعطفون على التحركات العسكرية الراهنة ، كما ان تردد بعض المشاهير منهم على الكثير من الاماكن التى يحتشد فيها العسكريون ، ليس بلا مغزى .

ويعتقد هؤلاء الانصار المتكتمون والمتطلعون الى اعادة ناجحة للامبراطور السابق ان الجمهوريين يقومون بتدمير البلاد ، وهذا يعنى ، مهما يكن ممضا ، وجوب العودة بالبلاد الى سابق ازدهارها وأمنها .

ان اعادة الملكية لا يمكن أبدا ان تستقبل بالترحيب في جميع الأوساط ، بل على العكس فانها ربما تقابل بمعارضة دبلوماسية هائلة في أكثر من مفوضية واحدة ، ولكن حتى معارضة من هذا النوع سوف تتبخر اذا ما حدث انقلاب ناجح ، حيث اننا جميعا نعرف بأنه لا شيء ينجح كالنجاح .

وعلى الرغم من جميع الأشياء المشجعة التي كانت تقولها الصحف الأجنبية ، فقد كان طبيعيا ان هؤلاء العسكريين الذين في أيديهم البنادق هم الذين يتحكمون مباشرة بمصير البلاط الصغير . لقد اشارت الصحيفة المذكورة الى ان " التردد على الكثير من الأماكن التي يحتشد فيها العسكريون ليس بلا مغزى " . ويذكرني هذا كيف ان البلاط كان له في النصف الثاني من عام ١٩١٩ علاقات بأمراء الحرب اوثق من علاقاته بقادة عصبة بييانغ القدامى . وكان في مقدمة هؤلاء الحاكم تشانغ تسوه لين ، رئيس زمرة فنغتيان .

بدأت العلاقة مع تشانغ تسوه لين عندما تسلم والدي مبلغا من النقود أرسل اليه من فنغتيان (لياونينغ الحالية في الشمال الشرقي من الصين حيث تركزت سلطة تشانغ تسوه لين) كدفعة عن بعض الممتلكات التي كانت عائدة الى الامبراطور . فكتب والدي رسالة شكر ، وأرسلت ادارة الأسرة موظفا عالي المرتبة الى فنغتيان مع بعض التحف من مجموعة تحف القصر — لوحة من رسم تونغ يوان من أسرة تانغ الجنوبية (٩٣٧—٩٧٥) ، وزوج من الزهريات الخزفية مع لفيفة مخطوطة بيد الامبراطور تشيان لونغ — كهدية من والدي الى تشانغ تسوه لين . فأرسل تشانغ اخاه بالمؤاخاة تشانغ جينغ هوى ، وكان يومها الشخص الثاني في قيادة جيش فنغتيان ، واصبح فيما بعد رئيس وزراء " لامبراطورية مانشوريا " ، ليرافق مبعوثنا في عودته الى بكين ، وينقل شكره الى والدي . وهذا دل على تقوية العلاقة بين قصر الأمير تشون " الذي يمثل البلاط الصغير " وجيش فنغتيان .

وجاء ثلاثة ضباط كبار فى جيش فنغتيان الى بكين عام ١٩١٧ للمساهمة فى اعادة الملكية التى تمت على يد تشانغ شيون ، وقد منح اثنان منهم فيما بعد شرف ركوب الخيل داخل المدينة المحرمة . وعندما احتفل والد احد هذين وهو قائد الفرقة تشانغ تسونغ تشانغ ، بعيد ميلاده الثمانين فى بكين ذهب والدى شخصيا ليهنئه . وفى عام ١٩٢٠ اندمجت زمرة فنغتيان فى زمرة تشيلى للتغلب على زمرة آنهوى ، وعندما دخل قائد زمرة تشيلى تشاو كون (خليفة المتوفى فنغ قوه تشانغ) وتشانغ تسوه لين مدينة بكين أرسل البلاط الصغير موظفا فى ادارة الأسرة يدعى شاو ينغ للترحيب بهما . وأصبح قصر الأمير تشون أكثر نشاطا من السابق . وتسببت الاشاعة التى تقول ان تشانغ تسوه لين سيأتى الى القصر لمقابلة الامبراطور بعقد اجتماع خاص لكبار موظفى ادارة الأسرة فى بيت والدى للتباحث فى الهدايا التى يجب ان تقدم له ، وتقرر انه يجب ان يتسلم سيفا قديما بالاضافة الى أشياء اخرى كانت قد هيئت . ولكن تشانغ تسوه لين عاد الى فنغتيان دونما زيارة للقصر . وبعد شهرين عين نبيل مانشوى شاب ، قريب لوالدى ، مرشدا لتشانغ وذهب الى فنغتيان ليقيم فيها بعض الوقت ، وخلال فترة التعاون بين فنغتيان وتشيلى بعد هزيمة زمرة آنهوى أصبح نادى فنغتيان فى بكين مكان اجتماعات لقادة فنغتيان ، ويتردد اليه عدد من الأمراء والنبلاء . وكان من رواده القهرمان الرئيسى لقصر الأمير تشون الذى أصبح أخا بالمؤاخاة لتشانغ جينغ هوى ، احد القادة فى زمرة فنغتيان .

وكانت هاتان السنتان مشابهتين تماما للفترة التى قام فيها تشانغ شيون باعادة الملكية : فالجو كان مملوءا باشاعات مفادها ان هناك محاولة جديدة لاعادتى الى العرش . وبعد شهرين من ارسال والدى الهدايا الى فنغتيان ومجىء تشانغ جينغ هوى الى العاصمة كتبت صحيفة " peking leacler " الناطقة باللغة الانكليزية فى عددها الصادر فى ٢٧ ديسمبر ١٩١٩ النبأ التالى من فنغتيان :

خلال الأيام القليلة الماضية كانت اشاعة اعادة الملكية المانشوية فى بكين بدلا مما يسمى حكومة الصين الجمهورية تدور على الألسن بين جميع الأوساط وخاصة بين العسكريين الذين يقودهم الجنرال تشانغ تسوه اين . وفقا للادعاءات الحالية ، فان الملكية ستبدأ هذه المرة على يد الجنرال تشانغ تسوه لين بالتعاون مع ملكيين معينين وقادة عسكريين فى الشمال الغربى من الصين ، والجنرال السابق تشانغ شيون . . سيلعب دورا هاما فى ذلك . . وحتى الرئيس شيوى والرئيس السابق فنغ فى مواجهتهما للوضع السياسى المضطرب داخل البلاد والأخطار الخارجية ، قد اضطرا الى قبول احياء الملكية دون معارضة قوية او استياء . وبخصوص تشاو كون ولى تشون وغيرهما من القادة العسكريين الأقل رتبة ، فيقال ان من الممكن ارضاءهم بجعلهم أمراء او اعطائهم منصب نبيل بالاضافة الى السماح لهم بالبقاء فى وظائفهم الحالية داخل مختلف المقاطعات..

وعندما أخبرنى جونستون بذلك فى وقت لاحق أذكر انه أخبرنى أيضا ببعض الاشاعات الأخرى حول نشاطات تشانغ تسوه لين لاعادة الملكية ، وظلت أخبار من هذا النوع دائرة على الألسن الى ان عاد تشانغ الى الشمال الشرقى مهزوما عام ١٩٢٢ . وقد تركت هذه الأخبار انطباعا عميقا فى نفسى ، وجعلتنى أشعر بسعادة غامرة ، كما مكنتنى من فهم السبب الذى من أجله كان قادة جيش فنغتيان متحمسين للمدينة المحرمة ، وسبب ذهاب تشانغ جينغ هوى مع الأمراء وكبار موظفى أسرة تشينغ ليركعوا للزوجة العلية دوان كانغ فى عيد ميلادها ، وكذلك السبب فى حالة التحمس والسرور الكبيرين التى كان عليها بعض الأمراء فى نادى فنغتيان . ولكن قبل ان تمتد فرحتى هذه طويلا قضى عليها الانشقاق بين زمرتى فنغتيان وتشيلى والهزيمة اللاحقة لجيش فنغتيان الذى انسحب الى الشمال الشرقى .

وأخذت التقارير المزعجة تتوالى بسرعة . شيوى شى تشانغ استقال فجأة : جيش تشيلى سيطر على بكين . ولى يوان هونغ ، الذى طرد من منصبه عنوة خلال اعادة تشانغ شيون للملكية ، اصبح رئيسا مرة ثانية . وحلت بالمدينة

المحرمة محنة جديدة ، ورجا الأمراء وكبار الموظفين من جونستون ان يأخذني الى المفوضية البريطانية طلبا للسلامة . فاتفق جونستون مع المفوض البريطاني السير بايلبي آلستون على تخصيص بعض الغرف لكي يستبقيني فيها عند الضرورة بصفة ضيفه الخاص . كما اتفق مع المفوضية البرتغالية والمفوضية الهولندية ان يسمح لأعضاء آخرين من الأسرة المالكة باللجوء الى حي المفوضيات . فلم أوافق على هذه الفكرة ، ورأيت انه سيكون من الأفضل ان أذهب الى خارج البلاد مباشرة . واقترحت على جونستون ان يأخذني الى الخارج حالا . وأذهلته الفجائية التي استدعيته فيها وطلبت منه هذا الطلب . وأجاب دون أن يجد وقتا للتفكير : " هذا سيكون تصرفا غير مناسب . ينبغي لجلالتكم ان تفكروا في ذلك بهدوء : ان الرئيس شيوى قد غادر بكين قبل وقت قصير ، واذا ما احتفى جلالتكم من المدينة المحرمة ، فذلك سيؤدى مباشرة الى الظنون بأنه كان هناك مؤامرة بين القصر وشيوى شي تشانغ . وفوق ذلك لن تكون بريطانيا قادرة على استقبال جلالتكم في هذه الظروف الحالية . . . "

في تلك الأيام لم يكن عندى قدرة على الاستنتاج وحدى ، كما لم يخبرني أحد بأنه كان هناك بعض الروابط السرية بين تشانغ تسوه لين وشيوى شي تشانغ ، وبين تشانغ وشيوى من جهة والبلاط الصغير من جهة اخرى ، بل كنت حتى أقل ادراكا لأى صلة بين حي المفوضيات واندلاع الحرب بين زمرتي تشيلي وفنغتيان . لذلك عندما سمعت ان طلبي كان مستحيلا تركته . وعندما أصبح الوضع أكثر استقرارا لم تعد مسألة اللجوء الى المفوضيات مطروحة ، ناهيك عن الذهاب الى الخارج .

وبعد سنة ، في عام ١٩٢٣ ، اشترى تشاو كون ، رئيس زمرة تشيلي ، أصوات أعضاء البرلمان مقابل ٥ آلاف يوان لكل صوت ، وانتخب بذلك رئيسا . وكانت مخاوف البلاط الصغير منه قد زالت عندما جذب انتباهه قائد آخر من زمرة تشيلي يدعى وو بي فو (أخبرني تشنغ شياو شيوى ،

المرشد الوثيق الصلة بى فيما بعد ان وو هذا جندى ذو مستقبل مشرق للغاية وانه راغب فى الحفاظ على أسرة تشينغ العظيمة وان من الممكن جدا اقناعه بدعمنا) . وفى تلك السنة نفسها أرسلت تشنغ شياو شيوى الى مقر وو بى فو الرئيس فى لويانغ بهدايا كثيرة لتهنئته بعيد ميلاده الخمسين . وذهب كذلك كانغ يوى وى ، أحد اصلاحيى حركة ١٨٩٨ الذى أصبح الآن ملكيا ، ليحاول استمالته ولكن لم يحصل منه على أى جواب محدد . ولم يستمر نجاح وو بى فو طويلا ، فبعد مضى سنة من حفلة عيد ميلاده هذه غير معاونه فنغ يوى شيانغ موقفه فى القتال الدائر بين زمرتى تشيلى وفنغتيان . وهذا أدى الى هزيمة وو التامة ، وطردت أنا من المدينة المحرمة على يد الجيش الوطنى بقيادة فنغ يوى شيانغ معاون وو السابق .

ريغنالد جونستون

كانت المرة الأولى التى أرى فيها أجانب هى حفل الاستقبال الأخير الذى أقامته الامبراطورة الأرملة لونغ يوى لزوجات السفراء الأجانب . وحتى ذلك الوقت لم أكن قط قد رأيت أجانب وكنت أتخيلهم فى ثيابهم الغريبة وعيونهم العديدة الالوان فأشعر بالاشمئزاز منهم . وكانت عندى فكرة مضطربة عن أشكالهم من خلال المجلات المصورة : كانوا يضعون شوارب على شفاههم العليا ، وكان هناك دائما خط ينتظم ساقى بنطالهم من الأعلى الى الأسفل ، وكانوا يحملون عصيا فى أيديهم . وقال الخصيان ان شوارب الأجانب صلبة جدا حتى ان المرء بوسعه ان يعلق مصابيح فى أطرافها ، وان سيقانهم متصلبة ؛ وكان أحد الموظفين يعتقد بذلك ، فاقترح على الامبراطورة الأرملة تسى شى عام ١٩٠٠ انه لدى مقاتلة الأجانب لا يلزم الا ركلهم بأعمدة الخيزران ، فيقعون على الأرض ويعجزون بعدها عن النهوض . وقال الخصيان ان العصى

التى فى أيديهم هى "عصى الحضار" لضرب الناس بها . ولكن معلمى الخصوصى تشن باو تشن كان قد عاش فى جنوب شرقى آسيا حيث رأى الأجانب ، وما رواه لي عن العالم الخارجى حل تدريجيا محل انطباعات طفولتى ، ومحل القصص التى رواها لى الخصيان . ومع ذلك دهشت دهشة شديدة واضطربت أشد الاضطراب حين بلغت بأننى سأتخذ معلما خصوصيا أجنبيا .

فى ٤ مارس ١٩١٩ قدمنى والدى والمعلمون الخصوصيون الصينيون الى السيد ريغنالد جونستون فى قصر يوى تشينغ . وركع لي فيما كنت جالسا على العرش وفقا لمراسم استقبال الموظفين الأجانب ، ثم نهضت وصافحته . فركع مرة أخرى وانسحب . وبعدها دخل ثانية فانحنيت له انا : هذه كانت الطريقة التى تدل على اننى اعترف به كمعلمى الرسمى . وبانتهاء هذه المراسم بدأ يعلمنى بمرافقة معلمى الخصوصى تشو يى فان .

ووجدت بعد ذلك ان جونستون لم يكن مفزعا . كانت لغته الصينية سلسة وأيسر على الفهم بكثير من لهجة تشن باو تشن الفوجيانية او لهجة تشو يى فان الخاصة بجيانغشى (٢٣) ولا بد انه كان فى الأربعين من عمره فى ذلك الوقت ، وكان واضحا انه أكبر من أبى سنا ، ولكن حركاته كانت ما تزال رشيقة وذكية . وكان ظهره مستقيما تماما حتى أننى تساءلت ان كان يلبس اطارا حديديا تحت ملابسه . وعلى الرغم من انه لم يكن له شارب كمقود الدراجة او "عصا الحضارة" ، وساقاه ليستا متصلبتين ، الا انه كان يترك فى نفسى دائما انطباع التصلب . وجعلتنى عيناه الزرقاوان وشعره الأشقر الرمادى بصفة خاصة أشعر بعدم الارتياح .

خلال درس بعد قدومه بشهر تقريبا ، استدار فجأة وحدق فى غضب شديد الى الخصى الواقف بمحاذاة الجدار . واحتج لي بلغته الصينية المنطوقة بنبرة انكليزية ، وقد احمر وجهه غضبا :

ــ ان ادارة الأسرة تعاملني معاملة فظة . لماذا انا وحدى الذى ينبغى ان يكون معى خصى فى الدرس ، بينما المعلمون الخصوصيون الآخرون لا يفعلون ذلك ؟ اننى لا أحب هذه المعاملة . اننى لا أحبها ، وسأرفع المسألة الى الرئيس شيوى لأنه هو الذى دعانى لتسلم هذه الوظيفة !

لكنه لم يكن مضطرا للذهاب الى الرئيس شيوى . ان نصف السبب على الاقل ، فى دعوة بيت تشينغ له لتدريسى كان هو الحصول على حماية منه ، فهم بالتالى لا يمكن ان يستفزوه لأى سبب . وفى الواقع ، فهو اكتفى بمراجعة أبى وكبار الموظفين حول مسألة الخصى فقرروا سحبه دون معارضة . وقد وجدته قاسيا للغاية . ودرست الانكليزية معه بجدية ، دون ان أجرؤ على التحدث فى أمور أخرى عندما أشعر بالملل او آمر بعطلة كما كنت أفعل مع معلمى الصينيين .

بعد شهرين او ثلاثة وجدته لا يختلف كثيرا عن معلمى الصينيين . لقد استخدم نفس الصيغة التبجيلية فى مخاطبته لي كما كانوا يفعلون ، وكان يدفع الكتاب المدرسى جانبا ويتحدث معى عندما أتعب من القراءة ، ويروى لى القصص عن أشياء قديمة وجديدة وأماكن قريبة وبعيدة . وبناء على اقتراحه زودت بزميل يدرس معى الانكليزية . وطريقته فى ذلك كانت تماما كطريقة معلمى الصينيين .

كان هذا الانكليزى الكهل يحمل درجة ماجستير من جامعة أكسفورد ، وقد دعاه بيت تشينغ رسميا الى القصر بعد مناقشات بين المفوضية البريطانية والرئيس شيوى شى تشانغ . وكان قبل مجيئه الى القصر سكرتيرا فى ادارة الحاكم العام البريطانى فى هونغ كونغ ومديرا اداريا لأراضى ويهايوى المؤجرة للبريطانيين. وكان ــ كما قال ــ قد مضى عليه فى آسيا أكثر من عشرين سنة ، وزار كل مقاطعة فى الصين ، ورأى جبالها الشهيرة وانهارها وتحفها الأثرية . وكان متمرسا فى التاريخ الصينى ، ويعرف كافة نواحى البلاد معرفة جيدة ، وخبيرا فى

الكونفوشية والموهية والبوذية والطاوية ، وخبيرا فى الشعر الصينى القديم . ولا أعرف كم من الكتب الصينية الكلاسيكية قد قرأ ، ولقد تعودت رؤيته يهزرأسه منشدا قصائد أسرة تانغ تماما كأنه معلم صينى ، وصوته يرتفع ثم ينخفض ويتوقف .

وكان يتشرف ، شأنه شأن بقية المعلمين الخصوصيين ، باستلام هدايا منى . وبعد ان كافأته بخرزة قبعة موظف من الدرجة الاولى حصل على مجموعة كاملة من ملابس بلاط تشينغ اعدت خصيصا . وأخذ صورة بهذه الملابس واقفا تحت لوحة مكتوبة بخط يدى امام فلته فى وادى الكرز فى التلال الغربية ، ووزع نسخا منها الى أسرته وأصدقائه . لقد استأجرت له ادارة الأسرة منزلا بكينيا من الطراز القديم وأثثه هو كما يفعل أحد كبار الموظفين فى أسرة تشينغ وعلق على البوابة الأمامية لوحات حمراء مكتوبا عليها بأحرف سوداء " مرشد من قصر يوى تشينغ " و" مخول بأن يركب فى محفة يحملها حمالان داخل القصر " و" مكافأ بخرزة قبعة الدرجة الاولى " و" مخول بلبس سترة من فرو السمور " . وكان فى كل مرة يتلقى فيها مكافأة رئيسية يكتب مذكرة يشكرنى فيها على سخائى .

واشتق لنفسه اسما أدبيا من القول الوارد فى « كتاب الحوار » لكونفوشيوس « الأديب يركز جهوده على الحقيقة » . وكان مولعا بالشاى الصينى وأزهار عود الصليب ، كما كان شغوفا بالتحدث مع كبار الموظفين السابقين فى أسرة تشينغ . وعندما تقاعد وعاد الى بلاده أفرد غرفة فى منزله ليعرض فيها الأشياء التى أعطيته اياها مثل ملابس بلاط تشينغ وخرزة القبعة ، بل انه رفع علم " امبراطورية مانشوريا " فى جزيرة صغيرة اشتراها ليظهر ولاءه للامبراطور ولكن الذى جعل الصلة وثيقة بين المعلم والتلميذ هو صبره . وفى الحقيقةانه لم يكن سهلا على اسكتلندى نزق ان يتخذ ازاء تلميذ مثلى الوضعية التى اتخذها . لقد جلب لي ذات يوم بعض المجلات الأجنبية الملأى بصور

الحرب العالمية الأولى ، ومعظمها تظهر الطائرات والدبابات والمدفعية التابعة للجيوش المتحالفة . فاستأثرت هذه الأشياء المسلية باهتمامى الشديد . ولما رآنى مهتما بها كل الاهتمام ، وضح لي الأشياء التى فى الصور ، وأخبرنى ما وظيفة الدبابات وطائرات اى بلد هى الأفضل ، كما حدثنى عن مدى شجاعة جنود الحلفاء . وسحرت فى البداية ، ولكننى بعد فترة ضجرت كالمعتاد ، فأفرغت محتويات زجاجة سعوط على الطاولة وبدأت أعبث بها . فرتب جونستون المجلات دون ان ينبس بكلمة ، وظل ينتظر حتى نهاية الدرس ، بينما بقيت أنا مستغرقا فى اللعب .

وفى مرة ثانية جلب لي بعض الحلويات الاجنبية ، فسررت بالعلبة المعدنية وورقة اللف الفضية وبنكهة فاكهتها المختلفة . وشرع يروى لي كيف تستخرج نكهة الفواكه هذه من خلال عمليات كيماوية وكيف ان هذا الشكل الأنيق للحلويات تصنعه الآلات . فلم أستطع فهم شىء من ذلك ، بل لم أرد ان أفهم ذلك . وعندما أكلت قطعتين من هذه الحلوى تذكرت نمالى على شجرة السرو ، فرغبت فى ان أدعها تذوق نكهة الكيمياويات والآلات . واندفعت الى الفناء تاركا جونستون مع علبة الحلوى الى ان انتهى الدرس .

ولما أدركت تدريجيا مدى اجتهاده فى تعليمى ، سررت بالغ السرور ورغبت فى ان أصبح أكثر طاعة . انه لم يكتف بتعليمى الانكليزية ، او ان تعليمه اياي اللغة الانكليزية لم يكن مهما فى نظره بل اهتم اهتماما بالغا بان اصبح رجلا مثل الرجال الانكليز الذين يتحدث دائما عنهم . وعندما بلغت الرابعة عشرة قررت ان ألبس مثله ، فأرسلت بعض الخصيان لشراء مجموعة كبيرة من الملابس الغربية . ولبست بدلة منها لم تناسبنى مطلقا ، ويبدو ان مظهرى كان غريبا بربطة العنق المتدلية من ياقتى مثل قطعة من حبل ، فعندما ذهبت الى حجرة الدرس ارتعش جونستون من شدة الغضب لدى رؤيته اياي ، وطلب منى ان أعود وأخلعها فورا : وفى اليوم التالى جلب معه

خياطا ليأخذ قياسي ويفصل لي الملابس التي تليق بسيد انكليزى . وفيما بعد وضح لي قائلا : " من الأفضل ان تلبس ثيابك المانشوية بدلا من الثياب الغربية غير الملائمة . انك اذا لبست ثيابا من دكان الثياب المستعملة لن تكون سيدا ، بل ستكون . . . " وتمنيت ان لا يستمر فى حديثه .

كان يقول لي : " اذا قدر لجلالتكم الظهور فى لندن ، فمن المؤكد ان يدعى جلالتكم الى تناول الشاى ما بين حين وآخر . ان حفلات الشاى ليست رسمية . ولكنها مناسبات هامة تقام عادة فى ايام الأربعاء . وفى هذه الحفلات يمكنكم مقابلة النبلاء والأدباء والمشاهير وجميع أصناف الناس الذين يحتاج جلالتكم الى مقابلتهم ، ولا داعى الى ان تبالغوا فى اللباس ، فالسلوك الاصولى أكثر أهمية . لا تشربوا القهوة كما تشربون الماء ولا تأكلوا الكعك كما تتناولون وجبتكم المعتادة ولا تثيروا ضجيجا شديدا لدى استخدام الشوكة والملعقة . ان القهوة والكعك فى انكلترا هما " تمتوعة (نقل) وليس وجبة . . . "

ونسيت الكثير من تعليمات جونستون المشددة ، والحذر الذى أكلت به الكعكة الاولى ألقيت به جانبا عندما هممت بأكل الثانية ، ولكن الحضارة الغربية المتمثلة بالمدافع والطائرات التى رأيتها فى المجلات ، والحلويات المصنعة واصول حفلات الشاى ، كلها على السواء تركت فى ذهنى انطباعا عميقا . لقد جعلتنى المجلات المحتوية على صور الحرب العالمية الاولى أهوى قراءة المجلات المصورة الأجنبية ، واغرتنى الاعلانات المنشورة فيها بأن أطلب من الخصيان ان يشتروا لي الكلاب والماس من الخارج . وجعلت ادارة الأسرة تشترى لي أثاثا أجنبية ، واستبدلت بالمنضدة الحمراء المنجورة من خشب الصندل واللوازم النحاسية التى على سرير الكانغ منضدة اخرى مطلية بطلاء إجنبى ومزودة بمقابض خزفية بيضاء . كما فرشت الأرضية بألواح من الخشب ، وهكذا اصبحت الغرفة لا هى صينية ولا هى غربية . وكنت أتابع جونستون فى كل شيء فاشتريت عددا كبيرا من ساعات الجيب

وسلاسل الساعات والخواتم ودبابيس الزينة والازرار المعدنية واربطة العنق . وطلبت منه ان يعطينا اسماء اجنبية نتسمى بها ، انا واخوتى واخواتى و "امبراطورتى" و "زوجتى" ، فدعيت هنرى ، وامبراطورتى اليزابيت . وكنت أقلد طريقته فى التحدث مع زملائى وكانت مزيجة من الصينية والانكليزية :

— يا وليم (بوجيه) ! ابرى لي هذا " البينسل " (قلم الرصاص) . . . حسنا ، ضعه على الديسك (المكتب) .

— يا آرثر (بو جيا) ! أخبر ليلى (أختى الثالثة) والآخرين ان يأتوا الي تودى (اليوم) بعد الظهر من أجل هير (سماع) بعض الموسيقى العسكرية الأجنبية .

وكنت أشعر بزهو شديد لدى تكلمى على هذا النحو ، ولكن عندما سمعنى تشن باو تشن غضن وجهه كأنما يعانى من ألم فى سنه .

لقد اعتقدت ان كل شيء فيما يتعلق بجونستون يعتبر نموذجيا وذهبت أبعد من ذلك حين اعتبرت رائحة النفتالين فى ثيابه كالعطر . لقد جعلنى جونستون أشعر ان الغربيين من أكثر الناس ذكاء وحضارة ، وانه من اكثر الغربيين علما وثقافة . ولعله لم يدرك مدى تأثيره علي : فالثوب الصوفى الذى كان يلبسه جعلنى أشك فى قيمة جميع ثياب الحرير والديباج التى تنتجها الصين ، وقلم الحبر الذى فى جيبه جعلنى بالفعل أشعر بالخجل من ريشات الكتابة والورق المصنوع باليد ، مما اعتاد الصينيون استخدامه فى الكتابة . وبعد ان جلب جوقة الموسيقى العسكرية من الثكنة البريطانية لتعزف فى القصر شعرت ان الموسيقى الصينية غير جديرة بالاستماع ، بل وجدت الموسيقى الاحتفالية القديمة بعيدة عن أن تكون موسيقى مهيبة .

كانت وزارة داخلية الجمهورية قد كتبت عام ١٩١٣ الى ادارة الأسرة تطلب ضرورة تعاون المدينة المحرمة معها فى اقناع المانشويين بقص ضفائرهم ، وأملت كذلك ان تختفى الضفائر من القصر . وكانت لهجة هذه الرسائل

مؤدبة جدا ، فلم تشر الى الضفائر المتدلية من رأسى ومن رؤوس الموظفين الكبار ، لكن ادارة الأسرة توسلت بكل الاعذار الممكنة لمواجهة وزارة الداخلية ، واوضحت للوزارة اثناء ذلك ان الضفائر وسيلة نافعة لتمييز المسموح لهم بالدخول الى القصر والخروج منه . وظلت المدينة المحرمة عدة سنوات بعد اثارة هذه المشكلة عالما من الضفائر ، حتى سمعت يوما من جونستون ملاحظة صغيرة قال فيها ان الضفائر الصينية تشبه ذيول الخنازير فكان ذلك كافيا لجعلنى أقص ضفيرتى . وفى غضون بضعة أيام اختفت على الأقل الف ضفيرة ، ولم يبق الا ثلاثة من المعلمين الصينيين الخصوصيين وقلة من الموظفين الكبار فى ادارة الأسرة محتفظين بضفائرهم .

وبكت الزوجات العليات عدة مرات على فقدان ضفيرتى ، وظلت وجوه معلمى الخصوصيين مكفهرة طوال أيام . وفيما بعد تذرع بو جيه ويوى تشونغ بحجة " اطاعة مرسوم أمبراطورى " لقص ضفيرتيهما فى البيت . وفى ذلك اليوم ارتعد تشن باو تشن غضبا لرؤيته تلاميذه دون ضفائر ، ثم قال أخيرا مخاطبا يوى تشونغ بابتسامة مرة : " اذا بعت ضفيرتك الى امرأة أجنبية ، فبوسعك ان تحصل على سعر جيد ! "

وكان أكثر الناس كراهية لجونستون هم موظفو ادارة الأسرة . كانت النفقات داخل القصر فى تلك الأيام ماتزال ضخمة على الرغم من أن الدفعات المستحقة بموجب بنود المعاملة التفضيلية كانت تأتى متأخرة كل سنة او لا تأتى احيانا . ولتغطية النفقات المفرطة كانت ادارة الأسرة تضطر الى بيع أو رهن التحف والصور ولوحات التخطيط والذهب والفضة والخزف كل سنة . وعلمت تدريجيا مما قاله جونستون ان فى الأمر ما يدعو الى الشك . وذات مرة أرادت ادارة الأسرة ان تبيع باغودا ذهبية بطول انسان ، فتذكرت ملاحظة جونستون بأن ادارة الاسرة تتعرض لخسارة فادحة اذ انها تبيع الأشياء الذهبية والفضية بحسب وزنها المعدنى بدلا من قيمتها الفنية . ووفقا لما قاله جونستون

لا يقوم بمثل هذا العمل الا اغبياء . لذلك استدعيت موظفى ادارة الأسرة وسألتهم كيف ينوون بيعها . وعندما قالوا انهم يبيعونها بحسب وزنها انفجرت غضبا وقلت :

ـ لا يفعل ذلك الا الاغبياء . أليس بينكم من عنده ذرة احساس ؟

واعتبر موظفو ادارة الاسرة ان جونستون يتدخل فى عملهم ، ولذلك فكروا فى طريقة لتدبر شأنه : فأرسلوا الباغودا الى منزل جونستون وادعوا ان الامبراطور يطلب منه ان يبيعها له . فاكتشف جونستون حيلتهم على الفور . وقال وقد انفجر غضبا : " اذا لم تأخذوها من هنا ، فسأبلغ جلالته فورا ! " فحمل موظفو ادارة الأسرة الباغودا وعادوا بها ثانية دون اثارة أية متاعب جديدة .

ومع السنة الأخيرة من دراستى فى قصر يوى تشينغ اصبح جونستون يشكل الجزء الرئيسى من نفسى . فقد قمنا بالنقاش فى الموضوعات الغير مدرسية على نطاق واسع يزيد على حصص الدروس . فحدثنى عن حياة الأسرة المالكة البريطانية ، وعن سياسات مختلف البلدان ، وعن قوة الدول المختلفة بعد الحرب العظمى ، وعن المناظر الطبيعية والعادات فى مختلف أنحاء العالم ، وعن احوال " الامبراطورية البريطانية العظمى التى لا تغيب عنها الشمس " ، وعن حروب الصين الأهلية وعن " حركة الكتابة بالصينية الحديثة " (يقصد حركة الثقافة الجديدة التى بدأت فى ٤ مايو عام ١٩١٩) وعن صلاتها بالثقافة الغربية وحدثنى أيضا عن امكان اعادة الملكية وعن موقف أمراء الحرب الذى لا يمكن الاعتماد عليه . . .

وقال لي مرة :

ـ يمكن للمرء ان يرى بوضوح من خلال جميع الصحف ان الشعب الصينى يحن الى اسرة تشينغ العظيمة وان كل فرد قد كره الجمهورية ؛ وانا لا أظن ان هناك أيما داع الى قلق جلالتكم فى الوقت الحاضر بخصوص هؤلاء العسكريين ، كما انه ليس هناك من داع لان يضيع جلالتكم كثيرا

من الوقت فى محاولة لاكتشاف مواقفهم من خلال الصحف ، ولا حاجة الى التحدث عن الاختلاف فى دوافعهم الأساسية لدعم اعادة الملكية او حماية الجمهورية . والمعلم الخصوصى تشن مصيب تماما فى قوله ان الشيء الأكثر أهمية بالنسبة لجلالتكم هو ان تجددوا يوميا فضيلتكم المتميزة بالحكمة . ولكن هذا يجب ألا يتم فقط داخل المدينة المحرمة . ان بوسع جلالتكم ان تكتسبوا الكثير من المعرفة الضرورية وتوسعوا آفاقكم فى أوروبا ، لا سيما فى البلاد التى يعيش فيها جلالة ملك انكلترا وفى جامعة أكسفورد حيث يدرس أمير ويلز . . .

وقبل ان تخطر فى ذهنى فكرة الدراسة فى انكلترا كان قد بذل جهوده لتوسيع " بصيرتى " العالمية . فقدم لي قائد البحرية البرطانية وحاكم هونغ كانغ البريطاني وغيرهما ، وكانوا جميعا مؤدبين نحوي وخاطبوني بعبارة "جلالتكم الامبراطورية " .

ولم تكن شدة تمثلى لأسلوب الحياة الأوروبى والطريقة التى كنت أزداد فيها ميلا الى تقليده موضع اعجابه . ففيما يتعلق بالثياب مثلا كانت آراؤنا مختلفة ، اذ كان له اهتمام خاص بى . وفى يوم زفافي ظهرت فى حفلة الاستقبال فانشغلت بالضيوف الأجانب . وشربت الانخاب معهم ، ولكن عندما عدت الى قصر تهذيب النفوس غيرت ثياب التنين التى كنت ألبسها الى ثوب عادى لبسته فوق بنطال غربى مع قبعة صيد . وفى تلك الساعة أقبل جونستون ومعه بعض أصدقائه . ورمقتنى سيدة أجنبية عجوز وانا أقف عند الشرفة ، فسألته : " من ذلك الشاب ! " .

وعندما اكتشف جونستون مكانى ، ورأى الثياب التى كنت ألبسها احمر وجهه تماما . فأخافنى ذلك ، وأربكتنى خيبة الأمل التى ارتسمت على وجوه الأجانب . وظل جونستون متوترا الى ما بعد مغادرتهم ، وقال لي فى انزعاج :

ـ ماذا يعنى جلالتكم بذلك ؟ امبراطور الصين يلبس قبعة صيد ! يا الهى !

زفافى

لئن كنت قد سررت غاية للسرور عندما أخبرنى الأمراء وكبار الموظفين بأوامر الزوجات للعليات التى تقول اننى قد أصبحت كبيرا الى الحد الكافى لـ" زفافى للعظيم " ، فذلك لأن الزواج سيشير الى تقدمى فى السن وسيعنى ان الآخرين لن يعودوا يتحكمون بي كما لو كنت طفلا .

كان أشد الناس اهتماما بهذا الأمر هم السيدات العجائز . ففى أوائل ١٩٢١ ، عندما كنت فى الخامسة عشرة ، استدعت الزوجات العليات والدي لبعض الاستشارات فى هذا الموضوع ، ثم دعون الى اجتماع يضم حوالى عشرة من الأمراء لمناقشته . وبعد سنتين تقريبا تم الزفاف . وكانت هناك عدة أسباب لهذا التأجيل الطويل ، أحدها انه كان من الخطأ بالنسبة لي ان أتزوج بعد وقت قصير جدا من موت الزوجة العلية تشوانغ خه ثم موت أمى ، والسبب الأكثر أهمية هو ان الوضع السياسى لم يكن مستقرا ، كما كانت هناك خلافات معقدة حول اختيار عروسى . وهذا ما جعل معلمى الخصوصيين يقترحون التأجيل .

وقد حدثت الخلافات لان كلا من الزوجتين العليتين دوان كانغ وجينغ يى أرادت ان تختار لي " امبراطورة " مستقبل تكون على صلة ودية بها . وكل منهما رشحت الفتاة التى تريدها ورفضت للتخلى عن هذا الترشيح ، وكل منهما كانت مدعومة بواحد من أعمامى . ولذلك تأزم الوضع .

وكان الحل الأخير هو ان يتم الاختيار من جانب " الامبراطور " : وكانت الطريقة التى اتبعت زمن تونغ تشى وقوانغ شيوى هى وقوف الفتيات

المرشحات في صف واحد ويأتي عريس المستقبل ليختار احداهن . ولقد سمعت روايتين مختلفتين عن كيفية اشارة العريس الى اختياره . احداهما انه سلم رمزا من اليشب الى الفتاة التي نالت اعجابه ، والثانية انه علق حقيبة صغيرة بابزيم ثوب الفتاة . وفي زمني شعر الأمراء ان تنظيم صف من العذارى لم يعد ملائما ، فقرروا انه يجب ان اختار من الصور . وكان علي ان أضع علامة على صورة الفتاة التي استأثرت باعجابي .

وأرسلت أربع صور الى قصر تهذيب النفوس . وبدت لي الفتيات متشابهات الى حد كبير ، كما بدت أجسامهن كأنها أنابيب داخل الثياب ليس لها شكل مميز . كانت وجوههن في الصور صغيرة الحجم جدا بحيث لم أستطع معرفة ان كن جميلات او غير جميلات . والفرق الوحيد الذي استطعت ان أجده كان في نماذج ثيابهن . ولم يخطر لي في ذلك الوقت ان هذا الاختيار سيكون أحد الأحداث العظيمة في حياتي ، ولم تكن لدي مقاييس ترشدني ، فرسمت دائرة على الصورة التي استملحتها .

وكانت تلك ابنة دوان ڤونغ من عشيرة أورديت المانشوية واسمها ون شيو (اسمها الآخر كان هوي شين) ، وكانت أصغر مني بثلاث سنوات . ونظرا الى انها كانت الفتاة المفضلة لدى الزوجة العلية جينغ يي فان منافستها دوان كانغ استاءت أشد الاستياء ، وألحت — بعد ان رفضت احتجاجات جينغ يي — على دعوة الأمراء لاقناعي باختيار مرشحتها ، وهي تقول : ان ون شيو منحدرة من أسرة فقيرة وانها بشعة ، بينما الفتاة التي رشحتها وهي وان رونغ التي تلقب مو هونغ ، من أسرة غنية ، وانها جميلة وفي نفس سني . فاتبعت نصيحة الأمراء متسائلا في نفسي لماذا لم يوضحوا لي الأمور من البداية ، ثم رسمت دائرة على صورة وان رونغ .

ولقي هذا عدم استحسان لدى الزوجتين العليتين جينغ يي ورونغ هوي . وبعد سلسلة من النقاشات بين الزوجات العليات والأمراء خرجت الزوجة العلية

رونغ هوى بهذا الاقتراح : " مادام جلالته قد وضع اشارة على صورة ون شيو ، فلن يكون من اللائق ان تزوج الى أحد أتباعه فيما بعد ، لذلك يحسن به ان يتخذها زوجة ثانية . " ولم أشعر انني كنت فى حاجة ماسة الى زوجة واحدة ناهيك عن اثنتين ، ولم أكن متحمسا أبدا لهذا الاقتراح . ولكن عندما وضح لي الأمراء وكبار الموظفين انه وفقا لعادات أسلافى " ينبغى للامبراطور ان تكون لديه امبراطورة وزوجة ثانية " لم أستطع مقاومة هذا الرأى . ولما كان علي ان أتمتع بجميع امتيازات الامبراطور فقد وافقت على اقتراحهم .

لقد استغرقت عملية اختيار الامبراطورة والزوجة الثانية ، فى الواقع سنة كاملة . وبعد ان تم الاختيار تسببت حرب تشيلى — فنغتيان فى تعطيل الزفاف الى شتاء ١٩٢٢ . وقد صادف هذا التاريخ سقوط شيوى شى تشانغ ، الا ان الاستعدادات الواسعة النطاق للزفاف كانت تجرى على قدم وساق بحيث لم يكن ممكنا وقفها ، لذلك كان لابد للزفاف من المضى قدما . ولم يشعر الأمراء بالثقة فى لى يوان هونغ الذى عاد الآن الى الرئاسة كما كانوا يثقون بشيوى شى تشانغ ، وخشوا من ان يتدخل فى أبهة هذه المناسبة . لكن المساعدة التى قدمها لى يوان هونغ فيما بعد قد فاقت توقعاتهم الى حد كبير ، ولم تكن بأقل مما كانوا يرجون من شيوى شى تشانغ . فقد كتبت وزارة مالية الجمهورية رسالة الى ادارة الأسرة فى لهجة متواضعة نوعاما جاء فيها انهم يعانون فى تلك الظروف من صعوبات فى تغطية نفقاتهم وانهم غير قادرين على دفع جميع الاعانات المالية السنوية المنصوص عليها فى بنود المعاملة التفضيلية ، ولكنهم مع ذلك سيخصصون دفعة من مدخول الضرائب تقدر بمائة الف يوان للمساعدة فى الزفاف العظيم ، تكون عشرون ألفا منها هدية من الجمهورية. وفى نفس الوقت قدمت السلطات العسكرية والدرك والبوليس التابعة للجمهورية خططا خاصة بارسال عدة مئات من رجالها الى القصر ليقوموا بحماية الزفاف .

ومن لحظة دخول جهاز العروس الى القصر وحتى الاحتفال الذى تلقيت فيه التهانى فى قصر السماء الصافية استمر الزفاف خمسة أيام . وقد تضمنت الاحتفالات ثلاثة أيام من العروض المسرحية ومنح الألقاب السامية الجديدة .

والذى أثار الاستياء الشديد لدى الرأى العام هو ان البلاط الصغير يتباهى بعد محاولة اعادة الملكية عام ١٩١٧ بأبهته حتى خارج المدينة المحرمة . فكان موكب الشرف الاحتفالى لبلاط تشينغ يغدو ويروح فى شوارع بكين تحت حماية خاصة من أعداد كبيرة من الجنود وافراد الشرطة الجمهوريين . وفى يوم الزفاف لبس اثنان من الأمراء ثياب بلاط تشينغ وفى أيديهما عصا المنصب ، وركبا حصانين وراء جوقتين عسكريتين جمهوريتين . واتبعا بمزيد من فرق الجيش والخيالة وفرق البوليس الخيالة وفرق الأمن الخيالة . وبعدهم جاءت اثنتان وسبعون زوجا من المظلات والرايات عليها صور التنين والعنقاء ، وأربع " مقصورات صفراء " (تحتوى اشياء نفيسة للامبراطورة الجديدة وثيابها) ، وثلاثون زوجا من مصابيح القصر . وانطلق هذا الموكب المهيب الى " مقر الامبراطورة " . وعند بوابة " المقر " المضاءة على نحو بهى كان يقف حشد من افراد الشرطة والجيش يحرسون والد وان رونغ واخوتها وهم يركعون لاستلام " المرسوم الامبراطورى " الذى جاء به مبعوثان . . .

وجذبت الهدايا الفاخرة التى قدمها القياديون فى الجمهورية انظار الناس . فقد كتب الرئيس لى يوان هونغ على بطاقة حمراء : " تقدمة من لى يوان هونغ رئيس جمهورية الصين الى الامبراطور شيوان تونغ" وقدم الهدايا التالية : أربع زهريات مجزعة ، صنفين من الحرير والديباج ، ناموسية واحدة ، لوحتين مخطوطتين يتمنى لي فيهما لعمر المديد والرخاء والسعادة : وأرسل الرئيس السابق شيوى شى تشانغ عشرين ألف يوان وكثيرا من الهدايا الثمينة الأخرى ، من بينها ثمانى وعشرون قطعة من الخزف وسجادة صينية فخمة عليها تصميم لتنين وعنقاء . وأرسل تشانغ تسوه لين ووو بى فو وتشانغ شيون

وتشاو كون وغيرهم من أمراء الحرب والسياسيين نقودا وأنواعا أخرى كثيرة من الهدايا .

وكان ينغ تشانغ ، ممثل الجمهورية فى الزفاف ، ضابطا فى مكتب الرئيس ، وقد هنأنى رسميا كأنما يهنىء ملكا أجنبيا . وعندما انتهى من الانحناء لي قال : " هذا كان باسم الجمهورية . وعبدكم الآن سيحيى جلالتكم بصفته الشخصية . " ثم اهوى الى الارض وسجد لي .

وفى ذلك الوقت انتقدت كثير من الصحف هذه التصرفات الغريبة انتقادا لاذعا ، ولكن هذا لم يخفف من حماسة الأمراء وكبار الموظفين ، ولم يمنع كبار الموظفين السابقين فى أسرة تشينغ من الظهور فى مختلف أنحاء البلاد كالحشرات التى تستيقظ من سباتها بعد شتاء والتدفق على بكين فى حشود كبيرة . لقد جلبوا لي الهدايا التى تضمنت نقودا وتحفا منهم ومن الآخرين . ولكن هذه الهدايا القيمة لم تكن لها من الأهمية عندى سوى اظهار الهيبة الهائلة التى بدا القصر حينذاك يتمتع بها ، والتى كانت فوق توقعاتهم وجعلتهم يشعرون ان مستقبلنا قد أصبح مبشرا بالنجاح .

والشيء الذى بعث فى نفوس الزوجات العليات والأمراء وكبار الموظفين وكبار الموظفين السابقين فى أسرة تشينغ أعظم التحمس والسرور هو حضور ضيوف عن حي المفوضيات . فهذه كانت المرة الأولى التى ظهر فيها دبلوماسيون أجانب داخل المدينة المحرمة منذ ثورة ١٩١١ ومع انهم جاءوا بصفتهم الشخصية ، الا أنهم يظلون دبلوماسيين أجانب .

وبناء على اقتراح من جونستون أقيم استقبال للأجانب لاظهار شكرنا لهم على حضورهم ، وألقيت أنا كلمة قصيرة باللغة الانكليزية .

وبينما كان كل هذا الهرج والمرج يدور من حولي ظل هناك سؤال يلح علي : " ان لدى امبراطورة وزوجة ثانية ، اننى متزوج . ولكن ما الذى اختلف عن السابق ؟ " وكان الجواب الذى قلته لنفسى : " لقد كبرت ، لو

لم تكن هناك ثورة ، لبدأت أحكم دونما أوصياء . "

وقلما كنت أفكر فى الزواج وفى أسرتي ولم يدفعنى الفضول الى رؤية شكل الامبراطورة الجديدة الا عندما دخلت مجال بصري وعلى رأسها غطاء قرمزى من الساتان مطرز بتصميم لتنين وعنقاء .

ووفقا للتقاليد أمضى الامبراطور والامبراطورة ليلة زفافهما فى حجرة زفاف مساحتها حوالى عشرة أمتار داخل قصر السكينة الارضية (كون نينغ قونغ) . وكانت هذه غرفة فذة نوعا ما : لم تكن مؤثثة الا بسرير كانغ احتل ربع مساحتها ، وكان كل ما حولها أحمر باستثناء الأرضية . وبعد ان شربنا "كأس الزفاف" وأكلنا "كعك الأبناء والأحفاد" ودخلنا هذه الغرفة ذات اللون الأحمر القانى ، شعرت بضيق التنفس . وجلست العروس على السرير ناكسة الرأس . ونظرت حولى فرأيت كل شيء أحمر : ناموسية حمراء ، وشراشف حمراء ، ثياب حمراء ، فساتين حمراء ، أزهار حمراء ، وجه أحمر . . . وبدا كل هذا كشمع أحمر مذاب . ولم أعرف هل أقف أم أجلس ، وارتأيت لذلك ان الأفضل لي هو قصر تهذيب النفوس ، فعدت الى هناك .

وبعد عودتى الى قصر تهذيب النفوس نظرت الى قائمة كبار الموظفين فى البلاد خلال عهد شيوان تونغ ، التى ألصقت بالجدار ، وتساءلت ثانية : " ان لدي امبراطورة وزوجة ثانية ، ولقد كبرت ، ولكن ما الذى أختلف عن السابق ؟ "

بماذا شعرت وان رونغ بعد ان تركت وحدها فى حجرة الزفاف ؟ فيم كانت ون شيو ، الفتاة التى لم تبلغ الرابعة عشرة بعد ، تفكر ؟ ان هذين السؤالين لم يخطرا فى ذهنى أبدا وأنا منشغل الفكر حينذاك بالأمر التالى : " لو لم تكن هناك ثورة ، لبدأت أحكم بدون أوصياء . يجب ان أستعيد ميراث الأسلاف ! "

صدامات داخلية

منذ ان دخل جونستون القصر أصبحت بالنسبة للأمراء وكبار الموظفين امبراطورا أكثر فأكثر صعوبة فى التعامل . وقد بدت تصرفاتى لهم قبل زواجى وبعده أكثر غرابة مما جعلهم أكثر تخوفا وانزعاجا . فيوما آمر ادارة الأسرة بأن تشترى لي ماسة تكلف ٣٠ ألف يوان ، وفى اليوم التالى أؤنبهم تأنيبا شديدا على اخفاقهم فى الاقتصاد فى النفقات وأتهمهم بالفساد والتبذير. وفى الصباح قد استدعى كبار الموظفين وأطلب منهم تفتيش مجموعة التحف والتخطيطات والرسوم ورفع تقرير عنها فى نفس اليوم ، وبعد الظهر قد أطلب سيارة لأقوم بنزهة الى التل العطرى خارج بكين . ومللت المراسم التقليدية الروتينية ، بل لم أعد أرغب فى ركوب المحفة الصفراء ذات المظلة الذهبية . ولكى أجعل ركوب الدراجة أسهل أمرت بازالة جميع العتبات الخشبية عند بوابات القصر والتى لم تسبب ازعاجا لأسلافى على مر القرون . وكنت أتهم الخصيان لأتفه الأسباب بعدم الولاء لي ، وآمر بارسالهم الى ادارة الأسرة حيث يجلدون او يصرفون من الخدمة ، والذى جعل الأمراء وكبار الموظفين فى أشد حالات الانزعاج هو الطريقة التى أسلكها عندما أعد نفسى لاصلاح شؤون القصر وتصفية الحسابات المالية ، ثم أعلن فى نفس الوقت اننى أريد ترك المدينة المحرمة والذهاب للدراسة فى الخارج . فيظلون طوال يومهم فى خوف وهلع حتى تكاد ضفائرهم تبيض من شدة القلق .

لقد فكر بعض الأمراء وكبار الموظفين فى ذهابى للدراسة فى الخارج قبل ان تخطر هذه الفكرة لي ، وهذا كان أحد الأسباب التى دفعتهم الى دعوة جونستون ليصبح معلما خصوصيا لي ، وبعد زفافى تلقيت عددا من المذكرات والاقتراحات من كبار الموظفين السابقين فى أسرة تشينغ تقترح

علي ذلك . ولكن عندما أثرت أنا نفسى هذه المسألة عارض الجميع تقريبا ، وكان أكثر الأسباب معقولية هو التالى : " اذا غادر جلالتكم المدينة المحرمة ، فهذا سيعنى الغاء بنود المعاملة التفضيلية التى قدمتها لنا الجمهورية . فلماذا تريدون ان تلغوها بأنفسكم على حين ان الجمهورية لم تفعل ذلك ؟ "

ولم يكن بوسع أحد ان يتحرك لو لا هذه البنود سواء المتعاطفين معى بخصوص ذهابى الى الخارج او المعارضين منهم ، وسواء اليائسين من " اعادة ميراث الاسلاف " او الذين مايزالون يأملون فى ذلك . وعلى الرغم من ان العبارة التى تشير الى الاعانة المالية البالغة ٤ ملايين يوان كل سنة قد تكشفت عن مجرد وعد فارغ ، الا ان العبارة التى تنص على وجوب " صيانة لقب العظمة الخاص بالامبراطور وعدم الغائه " ماتزال موجودة . ومادمت أبقى فى المدينة المحرمة وأحتفظ بالبلاط الصغير . فسيكون هذا هاما جدا بالنسبة الى أولئك الذين ما يزالون يأملون فى اعادة الملكية ، وحتى أولئك الذين فقدوا الأمل ما يزالون يرون تلك الوسيلة الوحيدة للاحتفاظ بصحون أرزهم (لقمة عيشهم) ومناصبهم . ففيما عدا الألقاب السامية التى يمكن ان تمنح اليهم بعد موتهم ، فبامكانهم وهم أحياء ان يرسموا اللوحات السلفية ويكتبوا التذكارات لكسب الرزق .

لقد اختلفت آرائى عن آرائهم . ففى الدرجة الأولى لم أعتقد ان بنود المعاملة التفضيلية ستظل مرعية الى الأبد ، وكنت أكثر ادراكا من اى شخص آخر لتقلقل مركزى . فاندلاع الحرب الأهلية من جديد وانسحاب تشانغ تسوه لين الى الشمال الشرقى وسقوط شيوى شى تشانغ وعودة لى يوان هونغ الى السلطة ، كل هذا جعلنى أشعر ان الخطر قد أصبح وشيكا ، وأصبح اهتمامى الوحيد هو هل تقتلنى السلطات الجديدة ام تتركنى . لم يعد يبدو لي هناك أى امكان لمعاملة تفضيلية . وعلى رأس هذا كله جاء تقرير مفاده ان بعض أعضاء البرلمان يقترح الغاء بنود المعاملة التفضيلية . وحتى اذا أمكن

بقاء الوضع الراهن على ما هو عليه ، فمن يدرى فى هذا الاضطراب السياسى والعسكرى اى أمير حرب يمكن ان يكون فى السلطة غدا او اى سياسى يمكن ان يؤلف وزارة فى اليوم الذى يليه ؟ وعلمت من مصادر كثيرة ، ولا سيما من جونستون ، ان الدول الأجنبية تلعب دورا فى كل هذه التغيرات . لذلك ألا يكون من الأفضل الاتصال بالاجانب مباشرة بدلا من الاعتماد على البنود الممنوحة من السلطات الجمهورية الجديدة ؟ ألن يكون من المتأخر جدا ان انتظر حتى يأتى شخص معادى لي الى السلطة قبل ان أجد مخرجا ؟ لقد كنت عارفا تماما الطريقة التى لقى فيها الأباطرة السابقون مصارعهم المؤلمة خلال تاريخ الصين .

وبالطبع لم أذكر الأمراء وكبار الموظفين بهذه القصص المفجعة . بل كان النقاش الذى خضته معهم هو التالى :

— اننى لا أريد أية " معاملة تفضيلية ". أريد ان أدع الناس العاديين والعالم يعرفون انه ليس لدي أمل بأن تختصنى الجمهورية بالتفضيل . ومن الخير ان أفعل ذلك بدلا من ان أنتظرهم حتى يقوموا هم بالغائها .

فكان جوابهم :

— ولكن البنود محفوظة فى سجلات الدولة ومعترف بها دوليا : فاذا ما قامت الجمهورية بالغائها ، فان الدول الأجنبية ستساعدنا بالتأكيد .

— اذا كان الأجانب سيساعدوننا ، فلماذا اذن لا تدعوننى أذهب الى الخارج ؟ من المؤكد انهم سيكونون أكثر مساعدة لنا عندما يروننى شخصيا ؟

ومع ان الأسباب التى قدمتها كانت معقولة الا انهم لم يوافقوا عليها أبدا . وجميع مناقشاتى مع والدي ومعلمي الخصوصيين ومع الأمراء خرجت بنتيجة واحدة هى التعجيل بالاستعدادات من أجل " زفافى العظيم " .

وكان هناك سبب آخر زاد من رغبتى فى الذهاب الى الخارج الى جانب الأسباب التى ذكرتها للأمراء وكبار الموظفين : لقد أخذت أزداد تعبا مللا

من محيطي كله ، بما فيه والدي ، قبل وقت طويل من ورود فكرة السفر الى الخارج . فمنذ جاء جونستون الى القصر ملأني بالمعرفة حول الحضارة الغربية ، وان هذا ، ومع فضول الشباب ، جعلني غير راض عن المحيط الذى حولي والقيود التي تطوقني . فوافقت على تحليل جونستون فى ان جذر المتاعب يكمن في نزعة المحافظة لدى الامراء وكبار الموظفين .

كان كل شيء جديد في نظرهم مفزعا . عندما كنت فى الخامسة عشرة وجد جونستون انني ربما أشكو من قصر نظر ، ونصح بطلب طبيب عيون أجنبي ليأتي ويفحص عيني . واذا صح تخمينه فعلي ان ألبس نظارة . ولكنه دهش عندما أثار هذا الاقتراح اهتياجا كبيرا كأنما صب الماء فى مقلاة يغلى فيها زيت ، اذ انفجرت المدينة المحرمة كلها . يا لها من فكرة ! عينا جلالته الامبراطورية ينظر اليهما أجنبي ! ان جلالته ما يزال في ريعان الشباب ، فكيف يلبس "نظارة" مثل رجل عجوز ؟ ولم يوافق احد ، بدءا من الزوجات العليات . ولم يتم ذلك الا بعد محاولات متكررة من جونستون وتصميم من جانبي انا . وكنت أنزعج خاصة عندما يعارض الأمراء وكبار الموظفين حصولي على أشياء حصلوا عليها هم أنفسهم ومثال ذلك "الهاتف" :

عندما كنت فى الخامسة عشرة شرح جونستون ذات مرة كيفية استخدام الهاتف وأثار كلامه فضولي ، وعندما سمعت من شقيقي بو جيه ان منزل والدي فيه احدى هذه اللعب طلبت من ادارة الأسرة ان تركب عندي هاتفا يوضع في قصر تهذيب النفوس . ولدى تسلم هذا الأمر شحب وجه شاو ينغ ، رئيس ادارة الأسرة ، من شدة الذعر . ولكنه لم يلفظ أية كلمة احتجاج ، وانسحب قائلا "نعم ، يا سيدي" . غير ان معلمي الخصوصيين جاءوا جميعا فى اليوم التالي لتقديم النصح .

— ليست هناك سابقة كهذه في نواميس الاسلاف . اذا ركب هاتف فأي واحد يمكن ان يتحدث مع جلالتكم ، وهذا شيء لم يسبق له ان حدث

فى تاريخ أسلافكم . . . ان الأسلاف لم يستخدموا أبدا هذه الأدوات الأجنبية الغريبة . . .

وحاججتهم قائلا :

— ان الساعات المنبهة والبيانوات والمصابيح الكهربائية داخل القصر كلها أشياء أجنبية لا وجود لها فى نواميس السلف ، ولكن أ لم يستخدمها أسلافى ؟

— لو استطاع احد من خارج القصر ان يتحدث مع جلالتكم بالهاتف كما يشاء أفلا يزعج بتصرفه هذا الهدوء السماوى ويسىء الى كرامة البلاط ؟

— لطالما أغضبنى الناس خارج القصر من خلال الصحافة ، فما الفرق بين قراءة الشتائم وسماعها ؟

ربما لم يفهم حتى المعلمون الخصوصيون فى ذلك الوقت لماذا طلبت منهم ادارة الاسرة ان يثنونى عن عزمى . ان الذى أخاف ادارة الأسرة حقا لم يكن تعكير " الهدوء السماوى " بل ان الهاتف يمكننى من ان أنشىء المزيد من الصلات مع العالم الخارجى . وكان ازعاجا كافيا تماما بالنسبة لها ان يكون الى جانبي شخص ثرثار مثل جونستون وان أطلع على أكثر من عشرين صحيفة مختلفة . وكان بوسع المرء ان يجد فى صحف بكين فى ذلك الوقت تصريحات من ادارة الأسرة كل شهر على الأقل تنكر فيها وجود صلة بين بيت تشينغ وسلطات هذه المقاطعة او تلك ، او تنكر ان تكون له علاقة باحدى الشخصيات الهامة ، او تدحض الاشاعات القائلة بأن القصر قد رهن أو باع مؤخرا بعض التحف . وكانت معظم الاشاعات التى تدحض صحيحة تماما ، ونصفها على الأقل كان متعلقا بأمور لا تريدنى ادارة الأسرة ان أعلم بها . كان موظفو ادارة الأسرة ، بسبب وجود الصحف وجونستون مهمومين دائما بما فيه الكفاية . فاذا أضيفت صلة ثالثة مع العالم الخارجى فى شكل هاتف فستجعلهم فى وضع يتعذر احتماله . اذن فان الطبيعى ان يبذلوا كل

ما فى وسعهم ليمنعوا حدوث ذلك . وعندما رأوا المعلمين الخصوصيين قد أخفقوا فى اقناعى جلبوا والدي .

كان والدي حينذاك قد أصبح مؤمنا عن قناعة فى الحفاظ على الوضع القائم . وهو لا يريد أكثر منى ان أقيم بهدوء داخل المدينة المحرمة بدون اثارة أية متاعب وان يستمر فى تسلم منحته السنوية البالغة ٤٢٤٨٠ تايلا من الفضة ، وهذا جعله سهل الانقياد الى اتجاه ادارة الأسرة . ولكن لسانه لم يكن ذليقا كمـــا أرادته ادارة الأسـرة . فهو لم يزد على تكرار كلام المعلمين الخصوصيين وعجز عن ايجاد جواب لسؤال واحد سألته اياه :

ــ ألم يكن فى بيت سموك هاتف منذ وقت طويل ؟

ــ ولكن . . واكن ذلك مختلف عن وضع جلالتكم . دعنا نتحدث فى الأمر فيما بعد . .

وتذكرت انه قص ضفيرته قبلى ، وحصل على هاتف قبلى ، ولم يسمع لي بشراء سيارة مع انه اشترى هو سيارة لنفسه ، ولذلك لم أشعر أبدا بالارتياح .

ــ لماذا يكون الوضع مختلفا بالنسبة للامبراطور ؟ ألا يحق لي ان أملك هذا القدر الضئيل من الحرية ؟ لا ، اننى أصر على اقتناء هاتف .

والتفت الى خصى وقلت :

ــ أبلغ ادارة الأسرة اننى أريد تركيب هاتف اليوم .

فهز والدي رأسه قائلا :

ــ حسن جدا ، حسن جدا ، ليكن لديك هاتف اذن :

ومع تركيب الهاتف زادت المتاعب .

فقد ارسلت شركة الهواتف معه دليل الهاتف . فسررت به وقلبت صفحاته مفكرا فى ان أحصل على شيء من التسلية من خلال هذا الجهاز الجديد . فأدرت رقم ممثل فى أوبرا بكين ولاعب بهلوانى ، وقفلت الخط قبل ان أقول من أنا . ثم ادرت رقم مطعم وطلبت ان ترسل وجبة الى عنوان مزيف . وبعد

ان تسليت على هذا النحو بعض الوقت فكرت فجأة فى ان أسمع كيف يكون صوت الدكتور هو شى ، صاحب قصيدة " نزهة عند شاطىء النهر " الذى ذكره لي جونستون سابقا ، فأدرت رقمه . ولحسن الحظ انه هو الذى رد على الهاتف . فسألته :

ـ هل هذا الدكتور هو ؟ رائع هل تحزر من أنا ؟

ـ من أنت ؟ لا أعرف .

ـ ها ! ها ، لا داعى الى التخمين ، أنا سأخبرك ، اننى شيوان تونغ :

ـ شيوان تونغ ، هل هو جلالتكم ؟

ـ صحيح ، انا الامبراطور . لقد سمعت صوتك الآن ، ولكننى لم أرك بعد . تعال الى القصر عندما يكون لديك وقت حتى أستطيع ان ألقى نظرة اليك .

وهذه المزحة العرضية جلبته مباشرة الى القصر . فقد أخبرنى جونستون ان هو شى قد زاره خصيصا من أجل التأكيد على المكالمة الهاتفية حيث لم يتوقع من " جلالته " ان يتصل به هاتفيا . وسأل جونستون فى قلق عن قواعد التشريفات فى القصر وقرر ان يأتى اذا تبين انه لن يضطر الى السجود لي واننى امبراطور حسن المزاج على نحو معقول . وكنت قد نسيت محادثتنا الهاتفية تماما ولم أطلب من الخصيان ان يعلموا الحرس بذلك ، لذا عندما وصل الدكتور هو شى الى بوابة القصر لم يكن هناك سبيل للسماح له بالدخول ، ولما كان الحرس يجهلون هذا الأمر فقد تركوا المسألة لي ، ولم يدعوه يدخل الا بعد ان أشرت بذلك .

لقد ولد هذا اللقاء من نزوة عابرة ، واستمر حوالى عشرين دقيقة . فسألته عن كيفية استخدام الصينية الحديثة وعن رحلاته الى الخارج وغير ذلك . ولدى مداورتى اياه فى الحديث انتهيت الى القول بأننى لم أهتم بحصولى على المعاملة التفضيلية الآن ، بامكانى ان أدرس وأصبح " شابا واعدا " من النوع

الذى نقرأ عنه فى الصحف . وغمرنى بدوره بالتملق المتوقع قائلا : " ان جلالتكم فى غاية التنور . اذا درستم جلالتكم كما ينبغى ، فسيكون أمامكم مستقبل مشرق ." ولم أعرف ماذا قصد بهذا المستقبل . ثم مضى فى سبيله ولم أعد أذكر هذه المسألة ، ولكن ما أدهشنى هو ان الأمراء وكبار الموظفين ولاسيما معلمى الخصوصيين اضطربوا أشد الاضطراب لدى سماعهم اننى قد قابلت هذه " الشخصية الجديدة " فى لقاء خاص .

لقد رأوا اننى كلما كبرت أصبحت أكثر تذمرا ، وانا كذلك وجدتهم يزدادون ازعاجا لي . وفى ذلك الوقت كنت قد قمت لتوي بعدة رحلات الى خارج المدينة المحرمة ، وكانت هذه حرية صغيرة ظفرت بها فى مواجهة الاحتجاج الشديد متذرعا بذهابى لتقديم القرابين لأمى بعد موتها . وطعم الحرية هذا أثار شهيتى فانتابني الضجر من جميع هؤلاء الموظفين المتعبين الأغبياء ، وجعلتنى شدة الجزع من جميع هذه الأحداث أكثر تصميما من السابق على الذهاب الى الخارج . ثم بلغ نزاعى مع الأمراء وكبار الموظفين ذروته فى صيف ١٩٢٢ عندما رفعت رغبتى اليهم رسميا فى ان أدرس فى انكلترا .

ولم يكونوا مستعدين للتنازل فى هذا الأمر الذى يختلف عن تركيب الهاتف . فحتى عمى تساى تاو الذى تعاطف معى أشد التعاطف لم يسمح الا باعداد منزل فى منطقة الامتيازات البريطانية فى تيانجين يمكن ان ألجأ اليه فى حالة الطوارئ . ولما كان من المتعذر علي ان أغادر المدينة المحرمة علانية فقد طلبت من جونستون أن يساعدنى . وقد ذكرت فى الفصل السابق انه رأى ان الوقت لم يكن مواتيا وانه لا يوافق على ذهابى فى ذلك الحين . وفيما أكرهت نفسي على انتظار فرصتى قمت باستعدادات سرية للهرب بمساعدة شخص مخلص وراغب فى ذلك هو أخى بو جيه .

كنت انا وبو جيه شقيقين منسجمين خير انسجام ، وكانت مشاعرنا ومطامحنا أكثر تشابها من وجهينا . وكانت فكرته الوحيدة هى ان يهرب من

حياته فى البيت الشبيه بسجن ضيق ، وان يحلق عاليا وان يجد مخرجا ، واعتقد بأن جميع أحلامه ستتحقق بمجرد ذهابه الى الخارج . وكان الفرق الوحيد بين محيطه ومحيطى كالفرق بين جسمينا تماما . كان جسمه أصغر من جسمى بمقياس واحد . بين سن الرابعة والسابعة عشرة كانت مربيته العتيدة تلبسه كل صباح ، ولم يكن يستطيع ان يفعل شيئا بنفسه ولا حتى غسل قدميه وتقليم أظفاره ، فاذا هو تناول المقص صاحت المربية وصرخت مذعورة ان يجرح نفسه ، وكانت لا تفارقه فى اى مكان ، ولا تدعه يجرى او يتسلق او يخرج من البوابة الأمامية ، ولم تكن تسمح له بأكل السمك مخافة ان يعترض الشجا فى حلقه . ودرس فى مدرسة عائلية تحت اشراف معلم خصوصى تعود ان يشتم الجمهورية . ولقد حثت امنا أخى بو جيه على مساعدتى باخلاص ألا ينسى أبدا انه سليل عشيرة آيشين — جيولوه .

ومع ان بو جيه كان أصغر منى بسنة ، الا انه كان يعرف أكثر منى عن العالم الخارجى وهذا كان بسبب انه قد اضطر الى التذرع لأسرته بالذهاب الى القصر ليكون قادرا على التحرك فى الخارج بحرية . وكانت الخطوة الاولى من خطة هربنا هى ان نتزود بالنفقات . والطريقة التى سلكناها فى ذلك هى اننا نقلنا معظم الصور والتخطيطات والتحف القيمة الى خارج القصر متظاهرا بأنى أهديها الى بو جيه ، ثم حفظناها فى المنزل الكائن فى تيانجين . وكان بو جيه يعود الى بيته ومعه صرة كبيرة بعد انتهاء الدروس كل يوم على مدى أكثر من ستة أشهر ، وكانت الأشياء التى أخذناها أنفس ما فى كنوز المجموعة الأمبراطورية . وكان كبار موظفى ادارة الأسرة والمعلمون الخصوصيون يقومون حينذاك بتفحص الصور والتخطيطات مما أتاح لنا فرصة لمعرفة النفائس الغالية وأخذها . وقد أخذنا بالاضافة الى الصور والتخطيطات كثيرا من المطبوعات القديمة النفيسة . وبلغ ما نقلناه أكثر من ألف صورة ومخطوطة وأكثر من مائتى لوحة مخطوطة وصفحة من الألبومات وحوالى مائتى كتاب نادر من مطبوعات

أسرة سونغ . وهذه كلها أخذت الى تيانجين ، حيث بيعت العشرات منها فيما بعد . والبقية أخذت الى الشمال الشرقي على يد ضابط فى اركان الحرب لجيش قواندونغ اليابانى بعد تأسيس "امبراطورية مانشوريا" ، واختفت بعد استسلام اليابانيين .

الخطوة الثانية من خطتنا كانت القيام بهروب سرى من المدينة المحرمة . ولقد تعلمنا درسا بالغ الأهمية من تاريخ السنوات الأولى للجمهورية : فبمجرد خروجى من القصر ودخولى حى المفوضيات تصبح السلطات الجمهورية والأمراء وكبار الموظفين عاجزين عن التحكم بى . وجونستون قد وضع التفاصيل لكيفية القيام بذلك . وقال لي انه يجب علي أولا ان أتصل بعميد السلك الدبلوماسى الهولندى و.ج . أودنديجلك ، وأطلب منه ان يقوم بالاستعدادات الملائمة . وقد اقترح علي ذلك فى أواخر فبراير ١٩٢٣ . وكان قبل تسعة أشهر قد عارض ذهابى الى الخارج بحجة ان الوقت لم يكن مؤاتيا . ولم تكن عندى أدنى فكرة عن سبب اعتقاده بأن الوقت قد حان الآن ، او عما اذا كان قد قام بأى ترتيب مع المبعوثين الأجانب . وهذه الاشارة من جونستون أعطتنى الثقة العظيمة وارضتنى رضاء تاما . وقد طلبت منه أولا ان يذهب الى المفوضية الهولندية ويخبرها ، ومن ثم تكلمت شخصيا مع أودنديجلك حول ذلك بالهاتف . ولكى أجعل الأمور أكثر تحديدا أرسلت بو جيه أيضا لزيارة المفوضية الهولندية . وكانت النتائج مرضية تماما . ووافق اودنديجلك على طلباتى عبر الهاتف ، ورتب الأمر مع بو جيه بحيث يرسل شخصا ينتظرنى خارج بوابة البسالة السماوية اذ أنه لم يستطع ان يرسل لي سيارة الى داخل المدينة المحرمة . وبمجرد ان أخرج سرا من هذه البوابة فسيتحمل المسؤولية الكاملة عن كل شيء من طعامى ومنامى أول ليلة حتى دخولى الى جامعة بريطانية . وحددنا اليوم والساعة لرحيلى من القصر .

وفى ٢٥ فبراير كانت المشكلة الوحيدة المتبقية هى كيف أعبر بوابة

البسالة السماوية . كان وضع المدينة المحرمة كهذا : بجانبى جماعة من الخصيان يرافقوننى على الدوام ، ثم الخصيان الواقفون عند جميع بوابات القصر ثم حرس القصر داخل وخارج الأسوار ، واخيرا الدوريات الجمهورية خارج بوابة البسالة السماوية . وقدرت انه بمجرد معالجة الأمر على خير وجه مع الخصيان الذين فى حاشيتى والذين عند البوابات لن تبقى هناك أية مشكلة أخرى كبيرة . وكانت أفكارى بسيطة كل البساطة ، وظننت ان كل ما يجب أن أفعله لأستميلهم هوان أعطيهم بعض النقود . واعطيتهم فشكرونى شكرا جزيلا ، وظننت عندها ان كل شيء قد أصبح على ما يرام . ولكن قبل ساعة من الموعد المحدد أبلغ أحد الخصيان الذين أخذوا منى الرشوة ادارة الأسرة . وقبل مغادرتى قصر تهذيب النفوس سمعت ان والدي قد أصدر أمرا بألا يسمح لأحد بعبور اى من بوابات القصر وان المدينة المحرمة بكاملها قد وضعت فى حالة تطويق . فجلست انا وبو جيه فى قصر تهذيب للنفوس مذهولين لهذا الخبر .

وقبل مضى وقت طويل جاء والدي وهو يتميز من الغيظ وقال :

— . . سمعت ان عظمتكم تـ . . تـ . . تريد الخروج . . .

وبدا فى غاية الارتباك والاضطراب كأنما هو المذنب ، فلم يسعنى الا الضحك . وأجبته كاتما ضحكى :

— طبعا ، لا أريد .

— ان هذا لا يليق بك . كيف تفعل ذلك ؟ . . .

— ولكننى لا أريد الخروج !

فحدق والدي الى بو جيه بارتياب ، فخاف بو جيه ونكس رأسه . فكررت قولى :

— اننى لا أريد الخروج .

وتمتم والدي ببضع كلمات أخرى قبل ان ينصرف آخذا معه " شريكي فى الجريمة " . وعندما غادر استدعيت خصيان الحضرة لأسألهم من الذى

أفشى الخطة . ونويت ان آمر بجلد المجرم جلدا لم يشهده فى حياته قط . ولكن لم أستطع ان أحصل على أية نتيجة منهم ، كما لم أستطع ان آمر بالتحقيق فى هذه المسألة عن طريق المكتب الادارى ، والشيء الوحيد الذى استطعت فعله هو ان أدارى غضبى فى داخلى .

ومنذ ذلك الحين أصبحت أكره مرأى أسوار القصر العالية . وتمتمت فى نفسى ، وأنا أقف على تلة اصطناعية داخل القصر وأنظر الى السور :

"سجن ، سجن ، سجن . ان عدم كون الجمهورية على علاقة حسنة بى أمر يمكن فهمه ، ولكن الشيء الذى يتعذر فهمه هو ان يكون الأمراء وكبار الموظفين معادين لي كل هذا العداء . انني فقط من اجل ميراث اسلافى من الجبال والأنهار أريد ان أخرج ، لماذا تريدون ابقائى هنا ؟ ما أسوأكم . يا موظفى الأسرة : لا بد انكم انتم الذين دفعتم والدي الى هذا التصرف . "

وعندما رأيت جونستون فى اليوم التالى بحت اليه بكل مشاعرى . وبعد ان خفف عنى ببعض الكلمات نصحنى بأن أطرح المسألة من ذهنى موقتا : سيكون أكثر جدوى البدء باعادة تنظيم المدينة المحرمة . وأوصانى بأن أتبع اقتراحات تشنغ شياو شيوى الذى وصل حديثا حول موضوع الاصلاح .

وأشرق فى ذهنى أمل جديد . فحتى اذا لم أستطع ان أحيى ميراث السلف خارج أسوار القصر ، فسأستطيع على الأقل اصلاح ممتلكاتي داخل المدينة المحرمة . وسررت كثيرا باقتراح جونستون . لكنى لم أتخيل قط فى ذلك الوقت انه ، عندما سيصف فيما بعد محاولة هربى فى كتابته سيزعم انه لم تكن له أية علاقة بذلك بل وسيقول أيضا انه عارض هروبى .

تشتيت الخصيان

على الرغم من الهدوء الخارق للعادة الذى تتميز به المدينة المحرمة، الا انها كانت فى حقيقة الامر فوضى تامة . فمنذ سنواتى المبكرة كنت دائما ما أسمع عن السرقة والاحراق والقتل ، ناهيك عن المقامرة وتدخين الأفيون . وفى ايام زفافى وصلت السرقة حدا كبيرا ، بحيث اختلست جميع قطع اللآلىء واليشب التى كانت فى تاج الامبراطورة فور انتهاء الاحتفال واستبدلت بها حلى مزيفة .

وعلمت من معلمى الخصوصيين ان كنوز قصر تشينغ مشهورة على نطاق العالم وان التحف والخطوط والصور وحدها مذهلة فى نوعيتها وقيمتها . وفيما عدا ما سلبه الجنود الأجانب عام ١٨٦٠وعام ١٩٠٠ فان النفائس التى حشدتها أسرة مينغ وأسرة تشينغ منذ مئات السنين كانت كلها تقريبا ما تزال فى القصر . ومعظم هذه المواد لم تكن مسجلة ، وما سجل منها لم يفحص بحيث لم يعرف أحد كم سرق منها ، مما سهل لأمور على السراق .

و بالعودة اليها اليوم يبدو ان ذلك كله كان من أعمال السلب . والسلابون هم كل من فى القصر من الأعلى الى الادنى ، كل من سنحت له الفرصة للسرقة سرق دون أدنى شعور بالقلق . وقد تنوعت فنون السرقة : فبعضهم كسر الأقفال وسرق سرا ، بينما استخدم آخرون وسائل شرعية وسرقوا فى وضح النهار : والطريقة الأولى كانت الطريقة المفضلة لدى معظم الخصيان ، بينما استخدم كبار الموظفين الطريقة الثانية : وكان هؤلاء يرهنون بعض النفائس او يبيعونها او يستعيرونها لاستعمالهم او يطلبونها بصفة هدايا . وكانت أكثر الوسائل تقدما تلك التى استخدمتها انا وبو جيه . طبعا انا لم أنظر اليها فى ذلك الوقت على انها سرقة ، بل بالعكس بدا لي حينذاك ان ممتلكاتى صارت

نهبا للغير :

وذات يوم وكنت فى السابعة عشرة من عمرى ، دفعنى فضولى ان أطلب من الخصيان فتح مخزن قصر السعادة المؤسسة (جيان فو قونغ) ، كانت أبواب المخزن مختومة باحكام بأشرطة من ورق التختيم ، وبدا واضحا انه لم يفتح منذ عشرات السنين ، وكان فى الداخل عدد من الصناديق الكبيرة تبين لي انها تحتوى على أوعية اليشب والمخطوطات والتحف واللوحات الفنية الثمينة جدا وغيرها من النفائس التى كان الامبراطور تشيان لونغ يحبها حبا جما ، وانها قد خزنت بعد موته . واكتشافى كل هذا الكنز جعلنى أتساءل عن حجم الثروة التى كنت أمتلكها حقا . لقد أخذت ما رأيته ، ولكن كم واحدة من تلك الكنوز لم ترها عينى ؟ ماذا يجب ان أفعل بخصوص تلك المخزونات الضخمة من النفائس ؟ وكم سرق منها ؟ وكيف أستطيع ان أمنع حدوث المزيد من السرقات ؟

وأخبرنى جونستون ان كثيرا من دكاكين التحف الجديدة قد فتحت فى شارع دى آن من حيث كان يقيم . وقيل ان بعض هذه الدكاكين يديره الخصيان ، ودكاكين أخرى يديرها موظفو ادارة الأسرة او أقرباؤهم . وفيما بعد شعر المعلمون الخصوصيون أيضا بأنه يجب اتخاذ بعض الاجراءات لمنع المزيد من السرقات ، ووافقت على اقتراح منهم بوجوب اجراء عملية جرد . ولكن هذا القرار أدى الى المزيد من المصايب .

وازدادت السرقات . والقفل المثبت على مخزن قصر يوى تشينغ قد حطم ، واحدى النوافذ التى فى مؤخرة قصر السماء الصافية فتحت عنوة . وأخذ الوضع يزداد سوءا ويصبح من الصعب التحكم فيه حتى ان الماسة الكبيرة التى اشتريتها مؤخرا اختفت . وفى محاولة لتقصى السرقات أمرت الزوجات العليات مدير المكتب الادارى ان يستجوب الخصيان المسؤولين عن المخازن ، وان يستخدم التعذيب اذا لزم الأمر ، ولكن لا التعذيب ولا عرض المكافآت المغرية

ترك أى تأثير . وهذا لم يكن كل شيء ، ففى ليلة ٢٧ يونيو ١٩٢٣ ، بعد ان بدأ مباشرة فحص المحتويات التى فى مخزن قصر السعادة المؤسسة ، شب حريق هناك اتى على كل ما فيه سواء ما فحص وما لم يفحص وحوله الى رماد .

واكتشفت الحريق فرقة الاطفاء التابعة للمفوضية الايطالية بحيث عندما وصلت سيارتهم الاطفائية الى بوابات القصر لم يدرك الحرس لماذا جاءت . واستمرت فرق الاطفاء المتنوعة تقاومه طوال الليل حيث خمد بعد ان حول المساحة المحيطة بقصر السعادة المؤسسة الى رماد . وتلك كانت الأماكن التى خزنت فيها معظم كنوز بيت تشينغ . اما سبب الحريق فما يزال غامضا . وقد نشرت ادارة الأسرة بيانا فى غاية السطحية قدر الخسائر بـ ٢٦٦٥١ تمثالا ذهبيا لبوذا و١١٥٧ قطعة من اللوحات والخطوط و٤٣٥ تحفة وعشرات الألوف من الكتب القديمة ، ولكن السماء وحدها تعرف على اى شيء اعتمدوا فى هذه الأرقام .

عندما كانت النار تقاوم كان القصر مملوءا بالأجانب والصينيين ، من المقيمين فى القصر وممن خارجه ، وهم يتجولون فى مختلف انحاء القصر ذهابا وايابا . ويمكن التخيل بسهولة انهم لم يكونوا مهتمين فقط باطفاء النار ، ولكن المدينة المحرمة عبرت عن شكرها لهم جميعا . وقد جاءت احدى السيدات الأجنبيات لتتفرج على ذلك المشهد المثير ، وأخذت تتنازع مع اطفائى صينى ، فضربته بمروحتها حتى جرحت أنفه . وفيما بعد أرتنى بقع الدم على المروحة كدليل على شجاعتها ، وقد كتبت حينذاك قصيدة على مروحتها تعبيرا عن شكري لها . . ولكن يا ترى ماذا كانت هذه الاجنبية تريد من الاطفائى الصينى ؟

لا سبيل قط لمعرفة مدى الخسائر التى نجمت عن الحريق ، ولكنى سأتحدث عن أكوام الرماد والمكافآت التى دفعت لقاء الاطفاء . كنت فى

ذلك الوقت أريد ان أجد مساحة فارغة لتكون ملعبا للتنس ، حيث يمكن لجونستون ان يعلمني هذه اللعبة التي قال ان جميع الارستقراطيين الانكليز يلعبونها . وكان الموقع الذي دمر بالحريق ملائما تماما لهذا الغرض ، ولذلك طلبت من ادارة الأسرة ان تنظف هذا المكان بأقصى سرعة ممكنة . لم يكن ثمة من أثر للصور والتخطيطات او الخزفيات القديمة في البقايا المتخلفة عن الحريق ، بل كان هناك مقدار كبير من الذهب والفضة والنحاس والتنك . وقد دعي تجار الذهب في بكين من جانب ادارة الأسرة لتقديم العطاءات ، فاشترى أحدهم الرماد بـ ٥٠٠ ألف يوان بيد انه حصل من الرماد على أكثر من ١٧ ألف تايل من الذهب . ثم حزمت ادارة الأسرة بقية الرماد داخل أكياس ووزعتها على العاملين فيها . وقد أخبرني أحد موظفي ادارة الأسرة فيما بعد ان المذابح الذهبية الأربعة التي يبلغ ارتفاعها قدما وقطرها قدما ، والتي قدمها عمه الى معبد يونغ خه قونغ ومعبد بستان الصنوبر في بكين جميعها مصنوعة من الذهب المأخوذ من بعض أكياس الرماد تلك .

ان سبب الحريق غامض ويتعذر معرفته ، تماما كما هو الحال بالنسبة للخسائر وانني أشك ان يكون الحريق قد قام به اللصوص لتغطية سرقاتهم ، لا سيما وانه بعد بضعة أيام فقط شب حريق آخر فوق احدى نوافذ مكتبة وو يي (اللاتراخي) في الزاوية الداخلية الشرقية من قصر تهذيب النفوس . ومن حسن الحظ انه أطفىء مبكرا . وقد عثر على خشوة قطن مبللة بالكيروسين كانت قد اطفئت فور اشعالها . وكان ذلك سببا لاثارة المزيد من شكوكي لأني اعتقدت ان هذا الحريق الجديد لم يكن يستهدف فقط تغطية سرقة ما ، بل ليقتلني أيضا .

ان السرقة ، والاحراق لاخفاء آثارها ، كانت حقائق لم يحاول حتى المعلمون الخصوصيون اخفاءها عني ، ولكن ربما كانت مخاوفي من محاولة لقتلي هي السبب في سوء حالتي العصبية . وكانت طبيعتي المتميزة بالشكوك قد

توضحت تماما . ووفقا لعقيدة بيت تشينغ كان على الامبراطور ان يقرأ صفحة من " تعاليم " أسلافه ، التى كانت توضع دائما فى مهجعه ، وفى ذلك الوقت أعجبت على نحو خاص بـ " الملاحظات القرمزية والمراسيم والقرارات " التى كان يصدرها الامبراطور يونغ تشنغ (١٧٢٣—١٧٣٥) والتى تعبر عن سواسه ومزاجه الشكوكى ، كما لفت نظرى تحذير مأثور عنه وعن كانغ شى (١٦٦٢—١٧٢٢) من الثقة المطلقة فى أى شخص ، ولا سيما الخصيان . وكنت أفكر فى تعاليم اسلافى المذكورة اعلاه على الدوام بعد الحرائق الأخيرة .

وقررت ان أتبع نصيحة الامبراطور يونغ تشنغ " اجعل الأمور واضحة من خلال التقصى الدقيق " ، وفكرت فى طريقتين : احداهما ان أستجوب الخصيان الصغار فى حاشيتى ، والثانية ان أسترق السمع الى محادثات الخصيان . واكتشفت من نافذة فى أحد مساكنهم أنهم كانوا يتناقشون حولى من خلف ظهرى ، قائلين ان مزاجى قد أخذ يزداد سوءا . فقوى ذلك شكوكى . وفى مساء الحريق الذى حدث فى مكتبة اللاتراخى استرقت السمع ثانية تحت نوافذهم ، فوجدت أنهم قد ذهبوا أبعد من ذلك فى ملاحظاتهم حولى ، وقالوا اننى انا الذى أشعلت الحريق . فشعرت عندها انهم ليسوا موضع ثقة اطلاقا واننى اذا لم أبادرهم بضربة قاصمة فلن تكون هناك نهاية للمصايب .

وفى ذلك الوقت بالذات جرت محاولة قتل . كان احد الخصيان قد اتهم بارتكاب بعض الأخطاء فضرب على يد قهرمان أولى . فكبت غيظه . وذات يوم صباحا دخل الى الغرفة التى ينام فيها المبلغ عنه ، حاملا بعض الكلس وسكينا ، وألقى الكلس فى وجه الرجل ليعميه ، ثم طعنه . وكان المهاجم ما يزال طليقا .

وهذا جعلنى أفكر فى جميع الخصيان الذين ضربوا بناء على أوامر منى ، وتساءلت فى نفسى ان كان من المحتمل قيامهم بهجوم كهذا علي شخصيا :

أصبت بذعر منعني من النوم . وكان بعض الخصيان نائمين على حصران فى الغرفة المجاورة لمهجعي ، فلو شعر اى منهم بالاستياء مني واراد ان يقتلنى على غرة ، لكان من السهل جدا عليه ان ينهي حياتي . وأردت ان أختار شخصا يعتمد عليه ليسهر على حراستي ، ولم أستطع ان أجد أحدا ملائما غير امبراطورتي. ومنذ ذلك الوقت جعلت وان رونغ تجلس ساهرة طوال الليل على حراستي . وكان عليها ان توقظنى اذا سمعت أية حركة ، وقد أبقيت هراوة بجانب سريري لاستخدامها عند اللزوم . ولكن بعد ان أمضت وان رونغ عدة ليالى دون نوم فى هذه المهمة العسيرة ، أدركت ان هذه الطريقة غير صالحة . وفى النهاية قررت ان أعالج المشكلة علاجا حاسما وذلك بطرد جميع الخصيان من القصر .

وعرفت اننى سأواجه بعض المتاعب فى تنفيذ ذلك ، وانني ما لم أواجه والدي بشكل معقول فسيكون ذلك مستحيلا . وقررت ان أذهب اليه شخصيا . ولما بوغت بهذه المشكلة لم يجد سبيلا لمناقشتها مع رئيس ادارة الأسرة او مع معلمى الخصوصيين ، ووجد ان ابداء رأيه فى ذلك أصعب عليه من السابق . وبجهد بالغ استطاع ان يخرج بهذا الخليط من المعارضات : ان أسلافى كان لديهم دائما خصيان خدموهم سنوات طويلة دون ان يخططوا لأية عملية غدر ، وما الى ذلك . وفى النهاية قال لي :

ـــ هذا الأمر سنناقشه تدريجيا ، ويعود جلالتكم الى القصر اولا ، وبعد يومين . .

وأخبرته :

ـــ لن أعود الى القصر أبدا اذا لم توافق .

فأصبح من الاضطراب بحيث لم يدر أ يجلس أم يقف . وأخذ يدور حول نفسه حاكا رأسه ووجنته ، وصدم بكمه زجاجة من عصير الليمون فحطمها . فلم أتمالك نفسى عن القهقهة ، وتعللت بفتح كتاب على المكتب كأنما لم تكن عندى نية للمغادرة .

وفى النهاية استسلم والدي ، وطرد جميع الخصيان من القصر ، ماعدا أولئك الذين لم تستطع الزوجات العليات الافتراق عنهم .

اعادة تنظيم ادارة الأسرة

لقى طرد الخصيان ترحيبا كبيرا لدى الرأى العام . وبتوجيه من جونستون صارت ادارة الأسرة الهدف التالى لاصلاحاتي . كان لهذه الادارة تاريخ طويل من الفساد والاختلاسات . ووصف لي صديق كان موظفا سابقا لدى الادارة كيف ان جميع موظفيها قد كرهوا العلم والتعليم الى حد كبير واعتبروا الاختلاس هو المحصول الطبيعى لما يتمتعون به من سلطة امبراطورية .

ويكفينا هنا وصف مثالين لهذه الممارسات فى ادارة الأسرة ، أحدهما نفقتها السنوية الهائلة التى لم يكن يكفى لتغطيتها مبلغ الـ ٤ ملايين يوان المستحقة سنويا بموجب بنود المعاملة التفضيلية حتى ولو دفعت كاملة . ولقد تكشف عام ١٩٢٤ ، بعد ان تركت القصر ، ان ادارة الأسرة قد حصلت على ٥ ملايين يوان فى تلك السنة من رهن الذهب والفضة والتحف ، وانفقت كلها . والمثال الثانى هو الطريقة التى رهنت بها ادارة الأسرة فى احدى المرات كمية ضخمة من ذهب القصر ومجوهراته بواسطة والد زوجتى رونغ يوان مقابل جزء ضئيل من قيمتها الحقيقية .

ومع انه لم يكن لدي دليل على فساد الادارة عندما كنت لا أزال أقيم فى القصر ، الا أننى عرفت شيئا واحدا من أرقام النفقة السنوية : لقد كانت الأرقام أعلى مما كانت عليه زمن الامبراطورة الأرملة تسى شى . واطاعة لمرسوم منى يأمر بتفحص ممتلكات القصر ، أعدت ادارة الاسرة " مقارنة بين نفقات السنة السابعة من عهد شيوان تونغ (١٩١٥) والسنوات الثلاث الأخيرة . " ووفقا لأرقامهم فان نفقات ادارة الأسرة (باستثناء الدفعات المحددة الى الأمراء

وكبار الموظفين) بلغت ٢٦٤٠٠٠٠ تايل من الفضة سنة ١٩١٥ ، و ٢٣٨٠٠٠٠ تايل من الفضة سنة ١٩١٩ ، و ١٨٩٠٠٠٠ تايل من الفضة سنة ١٩٢٠ ، و ١٧١٠٠٠٠ تايل من الفضة سنة ١٩٢١ . وكانت النفقات السنوية فى عهد تسى شى ٣٠٠ ألف تايل من الفضة فقط ، وحتى فى السنة التى احتفلت فيها بعيد ميلادها السبعين لم تتجاوز النفقة ٧٠٠ ألف تايل من الفضة . وهو فرق مدهش لمن هو اقل معرفة منى بالرياضيات . وقد طالعت فى نفس الوقت قصصا فى أعمدة الثرثرة داخل الصحف تصف كيف تحولت عوائل النبلاء وكبار الموظفين الى عوائل معوزة او كيف انها ماضية فى طريق الانحدار . وقرأت أخبار عن سليلى أسر كهذه عثر عليهم ميتين عند بوابات سور المدينة وعن أميرات ونبيلات أصبحن عاهرات . وفى تلك الفترة كان موظفو ادارة الأسرة يديرون محلات للتحف ومصارف ومراهن ويبنون معامل للخشب وما الى ذلك . ومع ان معلمى الخصوصيين وقفوا الى جانب ادارة الأسرة فى معارضتى لشراء سيارة وتركيب هاتف ، ولكن لم يقل اى منهم كلمة عن الأوضاع السائدة فى ادارة الأسرة : وقال لي معلمى الخصوصى يى كه تان قبل موته عام ١٩٢١ بوقت غير طويل ان تشن باو تشن قد " ضلل الامبراطور " لانه لم يخبرنى بفساد ادارة الأسرة ، ولذلك فانه لا يستحق لقب " المعلم الخصوصى الكبير " ، أما جونستون فقد بين لي بصراحة ان ادارة الأسرة عبارة عن مصاصة دماء ، ورأيه هذا قوى تصميمى على اعادة تنظيمها .

ولقد أبدى جونستون ذات يوم الملاحظة التالية :

— ان موظفى ادارة الأسرة داخل القصر والقهرمانات من عائلات الأمراء جميعهم أغنياء الى حد الافراط . ان سادتهم لا يعلمون شيئا عن شؤونهم المالية الخاصة ويعتمدون على قهرماناتهم اعتمادا تاما ، فمن دونهم لا يستطيعون الحصول على قطعة نقد نحاسي واحدة ، وانهم اذا لم يضعوا هؤلاء القهرمانات فى مكانهم المناسب ، فلن يحفظوا ما تبقى من ثروة القصر أمدا طويلا ناهيك

عن استعادة ما ذهب !

وقال فى مناسبة أخرى :

— ان لادارة الأسرة شعارا هو ، المحافظة على الوضع الراهن ، فاى اصلاح تافها ام رئيسيا لابد ان يصطدم بهذه العقبة ويفشل .

وقد بادرت بعيد زفافى الى اختيار عدد من اكفاء مخضرمى أسرة تشينغ الذين حضروا الاحتفالات ليكونوا مساعدين لي فى هذا الشأن . وهم بدورهم رشحوا لي آخرين ممن يثقون بهم ، وبهذه الطريقة دخل القصر اثنا عشر او ثلاثة عشر عنصرا جديدا كان ابرزهم تشنغ شياو شيوى ولوه تشن يوى ووانغ قوه وى وشانغ يان ينغ ووزعت عليهم ألقابا سامية مثل "مرشد المكتبة الجنوبية" (مكتبة الامبراطور) و"مرشد قاعة الاجتهاد العظيم" (المكتب المشرف على قرطاسية الامبراطور) . ووضعت اثنين من حملة الرايات مسؤولين عن ادارة الأسرة هما والد زوجتى رونغ يوان والمنغولى جين ليانغ ، المعلم الخصوصى السابق لتشانغ شيوه ليانغ (المارشال الشاب) .

وقدموا لي النصح التام فيما يجب ان أفعل . وكتب جين ليانغ فى وثيقة مؤرخة فى "الشهر الأول من السنة السادسة عشرة من عهد شيوان تونغ" (١٩٢٤) ، وكان قبل شهرين تقريبا من تعيينه مسؤولا فى ادارة الأسرة :

فى رأى تابعكم ان أهم شيء اليوم هو التخطيط لاعادة الملكية سرا . ومن اجل تنفيذ هذا المشروع العظيم لتغيير العالم تكون هناك أشياء كثيرة يجب فعلها ، والشيء الأسبق هو ترسيخ القاعدة عن طريق حماية البلاط . والمهمة التالية فى الأهمية هى جرد الممتلكات الامبراطورية لتأمين ايراداتنا . وانه لمن الضرورى ان نمتلك الواسطة التى ندعم بها أنفسنا ونحميها ، وعندها فقط نستطيع ان نخطط لاعادة الملكية .

وتابع يقترح فى مزيد من التفصيل كيف يمكن لهذه المبادىء ان تطبق ، وكان أحد اقتراحاته ، والذى وافقت عليه تماما ، هو انه يجب ان نبدأ باصلاح

ادارة الأسرة .

ولم تعارض أكثرية افراد أسرة تشينغ خطط الاصلاح الداخلى هذه . ولكن عددا منهم يقوده تشن باو تشن هزوا رؤوسهم لدى الحديث عن اصلاح ادارة الأسرة ، بدعوى ان الاصلاح لم يعد ميسورا وان محاولات من هذا القبيل قد جرت اوقات سابقة ولكنها لم تنجح . وظنوا ان اعادة التنظيم لا تؤدى الا الى المتاعب .

وبتشجيع من جونستون حاولت عبثا تفحص ممتلكاتى قبل زفافى بفترة قصيرة ، ولكننى عزوت اخفاق هذه المحاولة الى عدم سيطرتى على الحكم بنفسى والى اختيار شخص غير مناسب لهذه المهمة بدلا من ان أعزو ذلك الى مكايد الادارة . أما الآن وقد كبرت وأصبح لدي كل هؤلاء المساعدين الجدد ، فقد شعرت اننى فى وضع أقوى بكثير فعهدت الى تشنغ شياو شيوى بمسؤولية الاصلاح .

كان تشنغ شياو شيوى وهو من نفس مقاطعة تشن باو تشن ، قد خدم أسرة تشينغ قنصلا فى اليابان ، ثم مفوض حدود فى قوانغشى . وقد زكاه لي كل من تشن باو تشن وجونستون ، ولا سيما الاخير الذى قال انه الرجل الذى استحق جل اعجابه خلال السنوات البضع والعشرين التى قضاها فى الصين وانه لا نظير له فى البلاد كلها بشخصيته وعلمه ومقدرته . وعرفت أيضا انه رفض ان يخدم الجمهورية ، وسمعت انه كان يعيش على بيع تخطيطاته . واعتقدت انه لا بد ان يكون تابعا مخلصا كل الاخلاص .

وبعد ان أصبح تشنغ شياو شيوى " مرشد قاعة الاجتهاد العظيم " جاءنى عدة مرات ليوضح لي مدى ضرورة اصلاح ادارة الأسرة من أجل " تنفيذ المشروع العظيم " . وحدثنى عن خططه للقيام بذلك . ورأى ان أربعة اقسام ستكفى تماما للقيام بعمل الادارة ، وان أعدادا كبيرة من موظفيها يجب ان يطردوا ويتم تحقيق توفيرات هائلة . وبهذه الطريقة سيتوقف نزح مصادر

الثروة ويتعزز الوضع المادى . واذا ما طبقت خطته هذه فان القاعدة المالية لاعادة الملكية ستصبح مضمونة . وأعجبت بخططه اعجابا شديدا حتى انى خرقت العرف وعينته مسؤولا عن الادارة " خازن المفاتيح والأختام " مع انه كان هانيا لا مانشويا . وهكذا صار هو الموظف الأعلى فى بيت تشينغ . ولكن هل كان بمقدور تشنغ شياو شيوى ان يتغلب على ملاك الادارة من الأميين والاجلاف الذين ورثوا خبرة قرنين فى فن الاستهتار الادارى ؟ كلا ! فهو لم يستمر أكثر من ثلاثة أشهر رغم كفاءاته كلها ورغم الدعم والثقة اللذين اوليته اياهما .

ولم أستطع أبدا ان أكتشف من الذى جعله يغادر ادارة الأسرة . هل سبب له شاو ينغ المتاعب ؟ هذا يبدو غير محتمل لان شاو ينغ كان معروفا بجبنه الحذر . أيكون تشى لينغ ؟ لقد كان شخصا دخيلا لا تعنيه قضايا الادارة . اما الموظف الكبير الثالث ، باو شى فكان حديث عهد بالوصول ومن غير المحتمل ان يكون فعالا الى هذا الحد . ولم يكن كذلك محتملا ان يكون معاونوهم هم الذين تجرأوا على التصرف ضد تشنغ شياو شيوى بمبادراتهم الشخصية .

كان اول ما واجه تشنغ شياو شيوى عند تسلمه منصبه هو تراكم الملفات التى يرجع تاريخها الى ثورة ١٩١١ . فكان رده على ذلك هو اظهار سلطته بطرد المسؤول عن هذا الاهمال وتسليم العمل لصديقه تونغ جى شى . وردت عليه ادارة الاسرة بعدم التعاون ، فاذا امر بصرف مبلغ اجابوا بعدم توفر الاموال واذا احتاج الى اى من المواد لم يعرف احد فى اى مكان توجد .

ولكى يستميل تشنغ مساعديه بذل جهدا كبيرا فى اظهار تواضعه وفى الاستماع الى ما كانوا يقولونه . وكان يعقد مناقشة كل اسبوع ، ويدعوهم اليها لتقديم اقتراحاتهم بشأن لاصلاح . وقدم اليه مرة اقتراح بأن نفقة الفواكه والكعك التى تستخدم فى التقدمة للأضرحة المتعددة داخل القصر مرتفعة جدا ،

وانه مادامت تلك التقديمات ليست الا أشياء رمزية فسيكون عظيما تماما ان تستخدم فواكه وكعك من الخشب والصلصال بدلا منها . ولقى هذا الاقتراح استحسانا كبيرا منه فاصدر اوامره بالعمل بموجبه ، واعطى ترفيعا لمقدم الاقتراح . ولكن الخصيان الذين اعتبروا تلك التقديمات دخلا تقليديا لهم (كان ما يزال هناك حوالى مائة خصى بعد طرد الخصيان) نقموا على تشنغ ، الذى صار بعد بضعة أيام من تسلم منصبه أقل الناس شعبية داخل المدينة المحرمة .

ولما اظهر عدم الرغبة فى التخلى عن منصبه تلقى رسائل تهديد تقول انه يجرد الناس من وسائل معيشتهم وان من الخير له ان يكون حذرا اذا كان يريد ان يحتفظ برأسه على كتفيه . وتلقى جونستون تهديدات مشابهة ، ولكن لم يأبه أى منهما بهذه التهديدات .

على ان انهاء حركة الاصلاح هذه تم على يدى . فبعد ان عينت تشنغ شياو شيوى مسؤولا فى ادارة الأسرة بوقت قصير سمعت بعض الأخبار المزعجة : هناك جماعة من أعضاء البرلمان الجمهورى قدمت مذكرة لالغاء بنود المعاملة التفضيلية وجعل المدينة المحرمة تابعة للجمهورية . وكانت مذكرة كهذه قد قدمت قبل سنتين بحجة ان البلاط قد خطط لاعادة الملكية عام ١٩١٧ ، واما المذكرة الاخيرة فقالت ان البلاط قد منح الموظفين الجمهوريين مراتب نبلاء وألقاب ما بعد الوفاة فجعل نفسه فوق الجمهورية وانه ما يزال يتآمر لاعادة الملكية . وقالت أيضا اننى قد منحت تشانغ شيون ، المحرض الاجرامى على اعادة الملكية عام ١٩١٧ ، لقب ما بعد الوفاة وتصرفت على نحو غير مشروع فى جعل تشنغ شياو شيوى الهانى مسؤولا عن ادارة الأسرة واعطائه الحق فى ركوب الخيل داخل المدينة المحرمة .

وكان ظهور هذه الاخبار فى الصحف بداية لسلسلة من التهجمات على تصرفات ادارة الأسرة . ان اشكالا من الفساد قد مورست فى السابق ولكن احدا لم

يشر اليها كاليوم . وقد تعرضت للتشهير كذلك اعمال البيع للوحات والتخطيطات والتحف من قبل لوه تشن يوى وغيره من مجموعة مستشاري ذوى الضفائر . وكشفت الصحف ايضا عن بيع منقوشات برونزية ونسخ اخرى من اللوحات او لوحات اصلية .

وعندها اصدرت الجمهورية "مشروع قانون لحماية الكتب القديمة والتحف والآثار القديمة" ، ذلك المشروع الذى عنى بكل وضوح منع القصر من بيع كنوزه الفنية .

وجاء والدى الي وارادني باللف والدوران آنا وبالتلطف آنا على اعادة النظر باجراءات تشنغ شياو شيوى وان أفكر فى المتاعب التى ستحصل مع السلطات الجمهورية التى لم توافق على هذه الاجراءات .

وذات يوم ظهر أمامى شاو ينغ ، مسؤول ادارة الأسرة السابق ، وهو فى غاية الهلع وقال ان قائد الجيش الجمهورى قد استاء أشد الاستياء من اجراءات تشنغ شياو شيوى ، فاذا ما تسبب تشنغ فى أية متاعب جديدة واتخذت الجمهورية اجراء مقابلا فانه لن يقوى على فعل اى شيء لمساعدتى . فذعرت من هذه الأخبار . ثم قدم تشنغ مذكرة يطلب فيها اعفاءه من مهامه ، فأعفيته وعاد الى منصبه السابق "مرشد قاعة الاجتهاد العظيم" واستأنف شاو ينغ سيطرته على ادارة الأسرة .

الأيام الأخيرة داخل المدينة المحرمة

مع أن محاولتى لاصلاح ادارة الأسرة قد انتهت بالاخفاق ، الا اننى لم أتخل عن جهودى لتحسين وضعى .

وباستثناء الناس الذين كانوا داخل القصر يخططون لاعادة ملكى كان هناك آخرون يعملون من أجلى فى كافة أنحاء البلاد . فكانغ يوى وى مثلا كان

يعمل داخل الصين وخارجها تحت لافتة حزبه " الحزب الدستورى الصينى الامبراطورى " . وعن طريق جونستون تلقيت تقاريره عن الدعم الذى كان يعتقد بأن الحزب حصل عليه فى جهوده من اجل الملكية . ومع ان هذا الدعم كله كان خياليا تقريبا ، الا اننى اعتقدت به فى ذلك الوقت .

وقدمت كذلك نقودا للاحسان . ولا أستطيع الآن ان أتذكر اى معلم خصوصى اقترح علي هذه الفكرة ، ولكن الدافع الذى وراءها كان واضحا لي كل الوضوح ، لأننى عرفت قيمة الرأى العام . فى ذلك الوقت كانت الصفحات المعنية بالشؤون الاجتماعية فى صحف بكين تحمل كل يوم أخبارا عن العطايا التى يقدمها " الامبراطور شيوان تونغ " الى الفقراء . وكان " احسانى " هذا يتم عادة على غرارين : فأحيانا كنت أرسل النقود الى ادارة الصحيفة لتوزعها بنفسها عندما تنشر الصحيفة بعض الأخبار عن الفقراء ، وأحيانا أخرى كنت أرسل مبعوثين ليوزعوها مباشرة على العوائل الفقيرة . وبأية وسيلة كنت أستخدمها كانت الصحف تنشر خبر ذلك فى اليوم التالى او بعد يومين . وتمكنت من تجميع قدر لا بأس به من الرأى العام مقابل قليل من النقود ، وكانت الصحف مسرورة لمساعدتى فى كسب الشعبية التى اكتسبتها هى ايضا .

وأكبر ما تبرعت به كان عام ١٩٢٣ بعد حدوث الزلزال اليابانى الذى سبب خسائر هائلة لليابان . ورأيت ان أغتنم هذه الفرصة لأظهر " احسان الامبراطور شيوان تونغ " . وقد أبدى معلمى الخصوصى تشن باو تشن تبصرا أكثر منى ، فبعد امتداح " روعة السخاء الامبراطورى وانسانية العقل السماوى " قال لي ان " هذا التصرف سيكون له تأثيره فى المستقبل . " ولما كانت تنقصنى الأموال فقد تبرعت بمجموعة من التحف واللوحات الفنية والتخطيطات قاربت قيمتها ٣٠٠ ألف دولار أمريكي . فجاء المفوض اليابانى لدى الصين يوشيزاوا مع وفد من البرلمان اليابانى ليشكرنى ، وكان السرور الذى عم القصر

مثل ذلك الذى أحدثه حضور المبعوثين الأجانب حفلة زفافى .

فى ايامى الاخيرة داخل المدينة المحرمة أصبحت أكثر سخفا وتناقضا من السابق . فبينما كنت أعنف ادارة الأسرة على الافراط في الانفاق لم يكن هناك حد لتبذيرى . فقد طلبت من ادارة الأسرة ان تشترى لي كلابا أجنبية مثل الكلاب التى رأيتها فى المجلات الغربية ، بل وجعلتهم يستوردون طعامها من الخارج . واذا ما مرضت تلك الكلاب كنت أنفق على علاجها أكثر مما أنفق على علاج المرضى من الناس . وكان فى مدرسة شرطة بكين طبيب بيطرى لابد انه عرف هواي ، ففاز بالحظوة عندي لكتاباته الكثيرة الي عن اصول رعاية الكلاب ، فتسلم عشر هدايا نفيسة من ضمنها سوار من اليشب الأخضر وخاتم ذهبى وزجاجة سعوط . وأحيانا كان يستأثر باهتمامى خبر فى الصحف مفاده ان طفلا عمره أربع سنوات استطاع ان يقرأ « كتاب منشيوس » او ان شخصا ما قد اكتشف تنويعة جديدة من العناكب ، فكنت أدعوه الى القصر وأعطيه مكافأة مادية . وكنت شغوفا بالحصى وقدمت مكافآت ضخمة للناس الذين كانوا يأتونني بالاصناف الجيدة منه .

طلبت من ادارة الأسرة ان تنقص عدد العاملين فيها فأنقصتهم من سبعمائة الى ثلاثمائة وخفضت عدد الطهاة من حوالى مائتين الى سبعة وثلاثين ، ولكننى ادخلت فى نفس الوقت مطبخا غربى الطراز ، حتى أريت الكلفة الشهرية للمواد المستخدمة فى المطبخين الغربى والصينى على ١٣٠٠ يوان .

وبلغت نفقتى السنوية ٨٧٠٥٩٧ تايل من الفضة تبعا للأرقام المخفضة التى أعدتها لي ادارة الأسرة عام ١٩٢١ ، تلك الأرقام التى لم تشمل ثيابى وطعامى او نفقة الاقسام والمكاتب المتعددة التابعة لادارة الأسرة ، بل تضمنت فقط نفقاتى ودفعاتى عن " الاحسان الذى يتم تنفيذا للأمر الامبراطورى " .

ومضت بي الحياة على هذا النحو الى يوم ٥ نوفمبر ١٩٢٤ حيث طردنى جيش فنغ يوى شيانغ الوطنى من المدينة المحرمة .

كانت معركة تشاويانغ فى سبتمبر من تلك السنة بداية حرب تشيلى — فنغتيان الثانية . فى البداية كان جيش زمرة تشيلى بقيادة وو بى فو متفوقا ، ولكن عندما شن وو بى فو هجومه على قوات القائد الفنغتيانى تشانغ تسوه لين فى شانهايقوان فى اكتوبر ، تخلى عنه مساعده فنغ يوى شيانغ ، وزحف بجنوده عائدا الى بكين ، وبعث ببرقية صلح . وتحت ضغط موحد من فنغ يوى شيانغ وتشانغ تسوه لين انهارت قوات وو بى فو على جبهة شانهايقوان وهرب وو نفسه الى لويانغ (بعد سنتين قام باستعادة نشاطه بالتحالف مع أمير حرب آخر هو سون تشوان فانغ) . وقبل ان تنتشر أخبار هزيمة وو فى شانهايقوان قام جيش فنغ يوى شيانغ الوطنى الذى احتل بكين بوضع تشاو كون (رئيس الجمهورية الذى اشترى أصوات الناخبين) تحت الاقامة الجبرية ، ثم حل " برلمان المصفقين " . وشكل هوانغ فو ، وهو سياسى انتهازى ورجعى ، مجلس وزراء مؤقت بدعم من الجيش الوطنى .

عندما وصلت أخبار هذا الانعطاف الى القصر شعرت حالا ان الوضع خطير . وقد جرد جيش فنغ الوطنى حرس القصر من السلاح واخرجه من المدينة . واستولى جنود فنغ أيضا على ثكنة الحرس ومراكزهم عند بوابة البسالة السماوية (شن وو من) . ونظرت الى تل جينغشان بالمنظار من الحديقة الامبراطورية ، فرأيت التل مكتظا بجنود تختلف بزاتهم عن بزات حرس القصر . وقد أرسلت لهم ادارة الأسرة الشاى والطعام فقبلوا ذلك . ومع انه لم يكن هناك ما يخيف فى تصرفهم ، الا ان كل من فى المدينة المحرمة كان خائفا . وتذكرنا جميعا ان فنغ يوى شيانغ قد انضم الى " الجيش ضد المتمردين " حين اعادة تشانغ شيون الملكية وانه لو لم يقصى حينذاك الى خارج بكين فورا فمن المؤكد انه كان سيزحف الى داخل القصر . وبعد ان عاد دوان تشى روى الى السلطة أصدر فنغ يوى شيانغ وبعض الضباط الآخرين برقيات يطلبون فيها طرد البلاط الصغير من المدينة المحرمة . وقد تراءى لنا من خلال

هذه التطورات شؤم المستقبل . ثم سمعنا بعدها ان جميع السجناء السياسيين قد افرج عنهم وان " الحزبيين المتطرفين " قد نشطوا . كانت تعاليم تشن باو تشن وجونستون حول موضوعات " العمل المتطرف " و " الارهاب " قد تركت تأثيرها العميق علي ، لا سيما القصة التى تقول انهم يبغون قتل جميع النبلاء . فأرسلت فى استدعاء جونستون وطلبت منه ان يذهب ويطلع على آخر الأخبار من المفوضيات الأجنبية ويهىء لي مكانا ألجأ اليه .

وذعر جميع الأمراء . وكان بعضهم قد حجز له غرفا فى فندق الدول الست فى حى المفوضيات ، ولكن عندما سمعوا اننى أريد مغادرة القصر قالوا ان هذا غير ضرورى الآن ، فالدول الأجنبية جميعها تعترف ببنود المعاملة التفضيلية ، فلا لزوم للقلق .

وأخيرا حدث الذى لابد منه .

فحوالى الساعة التاسعة من صباح ٥ نوفمبر كنت جالسا فى قصر الأناقة المكدسة (تشو شيو قونغ) آكل بعض الفاكهة مع وان رونغ ، واذا بكبار موظفى ادارة الاسرة يهرعون الي ، بينما أمسك شاو ينغ بوثيقة فى يده وقال لاهثا :

— يا جلالة الامبراطور ، يا جلالة الامبراطور . . . لقد أرسل فنغ يوى شيانغ جنوده مع مبعوث الى القصر يقول ان الجمهورية ستلغى بنود المعاملة التفضيلية ، ويريدون توقيعكم على ذلك .

فوثبت من مقعدى ، وتركت التفاحة التى كنت قد أكلت نصفها تسقط على الأرض ، وتناولت الورقة التى كانت فى يده واذا فيها :

بأمر من الرئيس

لقد ارسل لو تشونغ لين وتشانغ بى ليبحثا مع بيت تشينغ تعديل بنود المعاملة التفضيلية .

٥ نوفمبر السنة الثالثة عشرة لجمهورية الصين

هوانغ فو
رئيس الوزراء بالوكالة

تعديل بنود المعاملة التفضيلية .

حيث ان امبراطور أسرة تشينغ العظيمة يرغب فى التجسد كليا فى روح جمهورية القوميات الخمس وغير راغب فى مواصلة أى نظام متعارض مع الجمهورية فان بنود المعاملة التفضيلية لبيت تشيغ قد عدلت على النحو التالى :

١- اللقب الامبراطورى لشيوان تونغ امبراطور أسرة تشينغ العظيمة يلغى من هذا اليوم الى الأبد ، وهو سيتمتع من الآن فصاعدا بنفس الحقوق القانونية لجميع مواطنى جمهورية الصين .

٢- بدءا من تاريخ تعديل البنود ستمنح حكومة الجمهورية بيت تشينغ اعانة مالية سنوية قدرها ٥٠٠ ألف يوان ، وستخصص مبلغ مليونى يوان لتأسيس معمل افقراء بكين تكون أفضلية القبول فيه للمانشويين المفتقرين .

٣- وفقا للبند الثالث من بنود المعاملة التفضيلية السابقة سيغادر أفراد بيت تشينغ القصر هذا اليوم . وسيكونون أحرارا فى اختيار مكان اقامتهم ، وحكومة الجمهورية ستظل مسؤولة عن حمايتهم .

٤- تقديم القرابين عند المعابد السلفية والأضرحة لبيت تشينغ سيستمر الى الأبد والجمهورية ستقدم حراسا للحماية .

٥- بيت تشينغ سيستعيد ممتلكاته التى ستتمتع بحماية خاصة من حكومة الجمهورية . وجميع الممتلكات العامة ستصبح تابعة للجمهورية .

...... نوفمبر السنة الثالثة عشرة لجمهورية الصين

وأقول بصراحة ان هذه البنود المعدلة لم تكن تقريبا سيئة كما توقعت ؛ وما أجفلنى هو ملاحظة شاو ينغ :

— انهم يقولون اننا يجب ان نغادر القصر فى غضون ثلاث ساعات !

— ولكن هل ذلك ممكن ؟ ماذا بخصوص ممتلكاتنا كلها ؟ ماذا عن الزوجات العليات ؟

وأخذت أخطو على نحو دائرى وأنا فى حالة غم واكتئاب .

ـ اردت التحدث مع جونستون هاتفيا .

فأجاب رونغ يوان :

ـ لقد قطع الهاتف !

ـ أرسل احدا لاحضار والدي . كنت أقول لك دائما ان المصايب مقبلة علينا ، ولكنك لم تدعنى أخرج . استدع والدي ! استدع والدي !

وقال آخر :

ـ لا نستطيع الخروج . لقد ركزوا رجالهم خارج القصر ، فلن يدعو اى واحد يخرج .

ـ اذهب وفاوضهم نيابة عنى .

ـ حاضر ، يا سيدى .

ولما كانت دوان كانغ قد ماتت قبل بضعة أيام ، فانه لم يبق فى القصر الا زوجتان عليتان ، وقد رفضتا مغادرة القصر رفضا تاما . فاتخذ شاو ينغ ذلك ذريعة وذهب ليتفاوض مع لو تشونغ لين مبعوث الجمهورية ، ونجح فى الحصول على تمديد للمهلة حتى الساعة الثالثة بعد الظهر . وفى منتصف النهار تقرر السماح لوالدى بالدخول الى القصر ، وعندما جاء سمح كذلك لمعلمى الخصوصيين تشو يى فان وتشن باو تشن بالدخول ، وبقى جونستون وحده خارج القصر .

وعندما علمت ان والدي قد جاء خرجت للقائه ، وحالما لمحته قادما عبر البوابة صحت قائلا :

ـ يا سمو الأمير ! ماذا نفعل ؟

وعلى صوت صيحتى وقف ساكنا دون حراك كأنما ألقيت عليه رقية . فلا هو اقترب منى ولا أجابنى عن سؤالي ، بل ارتعشت شفتاه قليلا ثم نطق جملة خالية من أية فائدة :

ـــ انا ، انا أطيع الامر ، انا أطيع الأمر . . .

فتركته غاضبا قلقا وعدت الى غرفتي . وفيما بعد سمعت من خصى انه عندما سمع والدي بانني قد وقعت على البنود المعدلة خلع قبعته ونزع عنها ريشة الطاووس ثم ألقاها على الأرض متمتما :

ـــ انتهى كل شيء . لن احتاج الى هذه ثانية .

ولم يمض وقت طويل حتى عاد شاو ينغ الى غرفتى ، ووجهه أكثر اخافة من ذى قبل . وقال وهو يرتجف :

ـــ ان مبعوثهم لو تشونغ لين يستحثنا ، ويقول لم يبق أمامنا الا عشرون دقيقة ، واذا لم نخرج حينذاك . . . فانهم سيطلقون المدافع من تل جينغشان . . .

ومع ان مبعوث الجمهورية لم يجلب معه الا عشرين جنديا مسلحين بالمسدسات ، الا ان تهديده هذا كان بالغ الأثر . فقد ذعر والد زوجتى ذعرا شديدا واندفع الى الحديقة الامبراطورية ليجد مكانا يلوذ به من نيران المدفعية ورفض ان يخرج ثانية . وبعد ان رأيت الرعب فى وجوه الأمراء وكبار الموظفين قررت ان أقبل مطالب لو تشونغ لين فورا وأذهب الى منزل والدي .

وأعد لنا الجيش الوطنى خمس سيارات . ركب لو تشونغ لين فى السيارة الأولى ، وركبت أنا فى الثانية ، وخلفنا ركبت وان رونغ وون شيو وتشانغ بى وشاو ييغ والآخرون .

وعندما خرجت من السيارة عند البوابة الرئيسية للقصر الشمالى (منزل والدي) ، أقبل على لو تشونغ لين وصافحنى . ثم سألنى قائلا :

ـــ يا سيد بو يى ! أتنوى ان تكون امبراطورا فى المستقبل ، أم انك ستكون مواطنا عاديا ؟

ـــ من اليوم فصاعدا أريد ان أكون مواطنا عاديا .

فقال المبعوث مبتسما :

ـــ جيد ، سنحميك اذن .

ومضى يقول :

– مادامت الصين جمهورية فليس من الصواب ان يكون فيها شخص يدعو نفسه امبراطورا ، ومن واجبك الآن ان تبذل أقصى جهدك لخدمة البلاد بصفتك مواطنا عاديا .

وأضاف موظف جمهوري آخر هو تشانغ بي :

– سيكون لك الحق في ان تنتخب وتنتخب . ويمكنك حتى ان تنتخب رئيسا ذات يوم .

وجعلتني كلمة " رئيس " أشعر بعدم الارتياح . وحيث انني فهمت ان علي الآن أن أعتزل الناس وأنتظر فرصتي ، قلت :

– لقد حسست منذ وقت طويل بأنني لا أحتاج الى بنود المعاملة التفضيلية، وانني مسرور بالغائها ، ولذا فانا موافق موافقة تامة على ما تقول . لم تكن عندي الحرية وانا أمبراطور ، أما الآن فقد وجدت حريتي .

وعندما أنهيت هذه الخطبة الصغيرة صفق لي جنود الجيش الوطني الواقفون بالقرب منا .

ولم تكن جملتي الأخيرة كاذبة تماما . فقد كنت مرهقا من القيود التي أحاطني بها الأمراء وكبار الموظفين . لقد أردت " الحرية " ، حرية تمكنني من تحقيق طموحي في استعادة عرشي المفقود .

في القصر الشمالي

بعد ان قلت هذه الكلمات الانيقة هرعت مارا بحرس الجيش الوطني ودخلت البوابة الرئيسية للقصر الشمالي . وفيما جلست داخل مكتبة والذي بدا لي هذا القصر شبيها بحلق النمر ، وليس بقصر أميري . وكان الشيء الأول الذي تعين علي ان أفعله هو أن أكتشف مدى خطورة وضعي . فقبل مغادرتي

المدينة المحرمة كنت قد بعثت برسائل الى أشد اعوانى ولاء خارج القصر أطلب منهم ان يفكروا بأسرع ما يمكن فى طريقة لانقاذى من قبضة الجيش الوطنى . وحتى الآن لم أسمع اى خبر عن نشاطاتهم ، كما انني لم أتلق أية أخبار أخرى عما كان يجرى فى الخارج . وأردت فى يأس ان يكون معى احد أحدثه بهذه الأمور ، حتى ولو لمجرد ان يسمعنى قليلا من كلمات التعزية ، وفى هذا الوضع كان والدي يمثل خيبة أمل كبيرة لي .

كان أكثر منى ذعرا وارتباكا . فمنذ الوقت الذى دخلت فيه الى القصر الشمالى لم يقف ولم يقعد ساكنا لحظة واحدة . وكان يتردد فى مكتبته متمتما مع نفسه ، او ويندفع داخلا خارجا فى انفعال يزيد من توتر الجو . ولما لم أعد قادرا على تحمل ذلك قلت له :

— يا سمو الأمير ، اجلس نتشاور فى الأمر ! يجب ان نفكر فى وسيلة ما للحصول على بعض الأخبار من الخارج .

— نفكر فى وسيلة ؟ طيب !

وجلس ، ولكن قبل ان تمضى على جلوسه دقيقتان وثب على قدميه وصاح :

— تساى شون لم يظهر كذلك !

وبدأ يخطو ثانية جيئة وذهابا .

— يجب ان نحصل على بعض الأخبار !

— نحصل على بعض الأخبار ؟ طيب !

وخرج وعاد ثانية بعد لحظة يقول :

— انهم لـ . . . لن يدعونا نخرج ! هنالك جنود عند البوابة الرئيسية !

— استخدم الهاتف اذن !

— الهاتف ؟ نعم ، نعم !

ولكن قبل ان يمشى بضع خطوات عاد ثانية يسأل :

— بمن سأتصل ؟

ورأيت ان الشيء الوحيد الذى سأفعله هو ان أطلب من الخصيان ان يحضروا لي كبار موظفى ادارة الأسرة . ولكن تبين ان رونغ يوان قد دخل المستشفى الأجنبى فى حالة اضطراب عصبى ، وتشى لينغ كان مشغولاً بنقل ثيابى وممتلكاتى الشخصية الأخرى ويعالج أمر الخصيان وخادمات القصر ، وباو شى كان يعتنى بالزوجتين العليتين اللتين بقيتا فى القصر ، وشاو ينغ كان معى ، ولكنه كان فى نفس حالة والدي كما كان عاجزا عن اجراء أية محادثة هاتفية . ومن حسن الحظ ان الأمراء وكبار الموظفين الآخرين أتوا فيما بعد ، وكذلك المعلمون الخصوصيون ، ولو لا هذا لما عرفت مدى الاضطراب السيء الذى سيعم القصر الشمالى . وكانت أفضل الأخبار هى ما جلبه لي جونستون مساء : من خلال جهوده العاجلة قام كل من المفوض الهولندى اودنديجك ، عميد السلك الدبلوماسى ، والمفوض البريطانى ماكلى ، والمفوض اليابانى يوشيزاوا بتقديم " احتجاج " الى وزير الخارجية الجديد وانغ تشنغ تينغ " الدكتور وانغ "، فضمن لهم وانغ حياتى وممتلكاتى . وهذه الأخبار هدأت كل شخص داخل القصر الشمالى ماعدا والدي ، ذلك لان " الجرعة " بالنسبة له لم تكن كافية . وقد وصف جونستون ذلك المشهد فى كتابه « الشفق داخل المدينة المحرمة » :

استقبلنى فى قاعة استقبال كبيرة كانت غاصة تقريبا بالوجهاء المانشويين وكبار موظفى ادارة الاسرة . . . وكانت مهمتى الأولى ان أعلن عن نتيجة زيارة المفوضين الثلاثة لوزارة الخارجية . وكانوا قد سمعوا من تساى تاو عن تشاور المفوضية الهولندية ذلك الصباح ، وكانوا بالطبع تواقين الى معرفة ما جرى فى مقابلة الدكتور وانغ . وأصغوا جميعا باهتمام الى ما قلته ، ماعدا الأمير تشون الذى كان خلال حديثى يتنقل فى أنحاء الغرفة بعصبية دون ان يكون لديه هدف واضح . وبعد ان فعل ذلك عدة مرات عجل خطوته فجأة ، وهرع نحوى ناطقا بضع كلمات نصف مفككة وبدت اللعثمة فى كلامه اوضح مما تكون

فى الوضع الطبيعى . وكان مضمون كلمته هو نفسها مثل كل مرة تكلم فيها : " اطلب من هوانغ شانغ (جلالة الامبراطور) ألا يكون خائفا " – هذه ملاحظة غير ضرورية نهائيا اذ بدا واضحا انه نفسه كان أشد ذعرا من الامبراطور . وبعد ان هرع الي أربع أو خمس مرات بنفس هذه الملاحظة التافهة ضقت به ذرعا وقلت : " جلالة الامبراطور هنا ، واقف بجانبى . لماذا لا تخاطبه مباشرة ؟ " ولكنه كان من الاضطراب بحيث لم ينتبه لفظاظة ملاحظتى ، واستأنف طوافه العشوائى .

وفى هذا المساء اغضبنى تصرف آخر من والدي . فبعد وصول جونستون بلحظات جاء تشنغ شياو شيوى مع يابانيين اثنين . (منذ "التبرع فى زلزال طوكيو " اقام اعوانى الأشد ولاء لي اتصالا مع المفوضية اليابانية ، وبعد ان جاء لوه تشن يوى وتشنغ شياو شيوى الى القصر أقاما هما كذلك صلات بالثكنة اليابانية .) وقد وضع تشنغ خطة مع العقيد تاكيموتو ، القائد اليابانى فى بكين ، تقضى بمجيء مساعد لتاكيموتو بثياب مدنية مع طبيب الى القصر الشمالى ليرافقنى الى الثكنة اليابانية متظاهرا بأنه أخذنى الى المستشفى . وعندما وصل تشنغ مع الضابط اليابانى والطبيب وشرح خطته قوبلت هذه الخطة بمعارضة اجماعية من الأمراء وكبار الموظفين والمعلمين الخصوصيين . ورأوا انه سيكون من الصعب جدا تهريبى من أمام الحراس الواقفين عند البوابة الرئيسية ، وحتى لو نجحت فى التخلص منهم سيكون خفر الجيش الوطنى فى الشوارع . واذا ما اكتشفنى أحدهم فان الأمور ستزداد سوءا . وكان والدي أكثر تشددا ، فقال موضحا ما لديه من أسباب : " حتى اذا وصل جلالته الى حى المفوضيات ، فان فنغ يوى شيانغ سيأتى ويسألنى عنه ، وعندها ماذا أفعل ؟ " وأخيرا انصرف تشنغ شياو شيوى وصاحباه اليابانيان .

وشددت القيود على بوابات القصر الشمالى فى اليوم التالى ، وسمح للناس بالدخول ولم يسمح لهم بالخروج . ثم خففت هذه القيود قليلا فى وقت لاحق ،

ولكن ظل السماح بالدخول والخروج مقصورا على معلمى الخصوصيين تشن باو تشن وتشو يى فان وكبار موظفى ادارة الأسرة ، أما الأجانب فقد منعوا من الدخول منعا باتا مما وسع نطاق الذعر فى القصر الشمالى : فعندما لا يكون لدى الجيش الوطنى احترام للأجانب فليس هناك ضمان للمستقبل اطلاقا .
وفيما بعد بحث المعلمان الخصوصيان هذه المسألة منطلقين من القول انه لم توجد فى الماضى سلطة لا تخشى الأجانب وان وزير خارجية الحكومة ما دام قد أعطى تعهدا أمام ثلاثة من الدبلوماسيين الأجانب فمن غير المحتمل ان يختلف عن سابقيه . ومع ان تحليلهما لقى قبولا عاما ، الا اننى ظللت قلقا : من يدرى بماذا يفكر الجنود الواقفون على البوابة ؟ وتذكرت هذا القول المأثور :

حتى وان كان الأديب محقا ،
لا يمكنه الفوز على عسكرى فى النقاش !

فهل تجدى كلمة تعهد من الحكومة الموقتة لمنع الجنود الواقفين على مسافة بضع ياردات منى عن التحرش بنا؟ وكلما أمعنت فى التفكير بهذا الأمر ازددت خوفا . وندمت على اننى لم أذهب مع اليابانيين اللذين جلبهما تشنغ شياو شيوى ، ولعنت والدى لتفكيره فى مصالحه فقط على حساب سلامتى .
فى ذلك الوقت عاد لوه تشن يوى من تيانجين التى سافر اليها بالقطار الدولى (٢٤) ليحصل على المساعدة عندما كان فنغ يوى شيانغ يتولى أمر حراسة القصر . كان قد تلقى من ضابط ركن للحامية اليابانية فى تيانجين خبرا بالاستيلاء على المدينة المحرمة ، وطلب منه باسم قائد الحامية ان يذهب لرؤية دوان تشى روى . وفى الوقت نفسه تلقى دوان تشى روى برقية من تشنغ شياو شيوى يطلب فيها المساعدة ، ارسلت عن طريق العقيد تاكيموتو فى بكين . فبعث دوان تشى روى ببرقية يعارض فيها اجراءات فنغ يوى شيانغ " التعسفية " ازاء القصر . وعندما رأى لوه تشن يوى مسودة البرقية قدر انه مادام دوان تشى

روى سيعود الى المسرح السياسى فإن الوضع ليس بالغ الخطورة . على ان ذلك لم يمنعه من الطلب الى القيادة اليابانية فى تيانجين بأن تعلن رسميا " حماية " البلاط . وابلغته القيادة ان العقيد تاكيموتو فى بكين سيعالج الوضع . وعلى هذا الاساس كانت عودة لوه تشن يوى الى بكين ، حيث ذهب للقاء تاكيموتو وتلقى منه اشعارا بأن الخيالة اليابانيين يقومون بدورياتهم قرب القصر وان الثكنة اليابانية ستتخذ " اجراء فوريا " ضد اى تصرف من جانب الجيش الوطنى ، وأخبرنى تشن باو تشن أيضا ان الثكنة اليابانية ارادت ان ترسل بعض الحمام الزاجل الى القصر الشمالى بحيث يمكن استخدامه علامة انذار ، ومع اننا لم نقبل الحمام خوفا من ان يسمع الجيش الوطنى بذلك الا اننى شعرت بالامتنان لليابانيين أكثر من ذى قبل . وبسبب ذلك أحرز لوه تشن يوى مكانة عندى مساوية لمكانة تشنغ شياو شيوى وشعرت اننى أكثر ابتعادا عن والدي .

وعندما رأيت برقية دوان تشى روى المعارضة لاجراءات فنغ يوى شيانغ ازاء القصر وسمعت بأن جنود فنغ سوف يصطدمون بجيش فنغتيان بقيادة تشانغ تسوه لين زادت طمأنينتى . وفى الوقت نفسه جلب لي تشن باو تشن برقية سرية من دوان تشى روى أرسلت عبر الثكنة اليابانية فى بكين وتضمنت الجملة التالية : " سأدعم البيت الامبراطورى بكل قوتى وأحمى جميع ممتلكاته . " وبعد هذا خففت القيود على بوابات القصر الشمالى نوعا ما ، وسمح لكل واحد بالدخول من الأمراء وكبار الموظفين الى الدكتور هو شى ماعدا جونستون .

بعد ذلك بوقت قصير وصلت أخبار عن العلاقة بين تشانغ تسوه لين وفنغ يوى شيانغ اهتم بها القصر الشمالى اهتماما بالغا حيث قيل ان فنغ يوى شيانغ قد احتجز فى تيانجين لدى جيش فنغتيان التابع لتشانغ تسوه لين . وعلى الرغم من ان هذه القصة قد تكشفت فيما بعد عن مجرد اشاعة ، فقد اعقبتها أخبار أخرى كانت أكثر تشجيعا لأفراد القصر الشمالى : من ذلك

ان مجلس الوزراء الموقت برئاسة هوانغ فو والذى يدعمه جيش فنغ يوى شيانغ الوطني قد ابلغ برفض الدبلوماسيين الأجانب دعوته اياهم الى مأدبة . وقد تفاؤل القصر الشمالى من هذا الحدث بأن أيام الحكومة الموقتة التى لم أستطع ان أعايشها قد أصبحت معدودة ، وانه سيحل محلها دوان تشي روى الذى كان أكثر اتصالا بحى المفوضيات ، ولا سيما المفوضية اليابانية . وجاءت أخبار اليوم التالى لتؤكد تقرير لوه تشن يوى : فنغ يوى شيانغ اضطر الى قبول اقتراح تشانغ تسوه لين وسمح لدوان تشي روى بالعودة الى الحياة السياسية . وخلال بضعة أيام جاء كل من تشانغ تسوه لين ودوان تشي روى الى بكين .

وغيرت أخبار التحالف بين دوان تشي روى وتشانغ تسوه لين الجو داخل القصر الشمالى . وكان أول شيء فعله الأمراء هو كتابة رسالة سرية الى تشانغ يطلبون فيها منه الحماية . وبعد ان دخل هو ودوان العاصمة أرسل الأمراء ممثلين عنهم مع تشنغ شياو شيوى للترحيب بهما ، ثم قاموا بنشاطات كل على حدة . فأرسلوا تشنغ شياو شيوى لزيارة دوان تشي روى ، وأرسلوا قهرمان القصر الشمالى لزيارة تشانغ تسوه لين أخيه بالمؤاخاة . والشيء الذى سر القصر الشمالى أعظم سرور هو الدعوة التى أرسلها تشانغ الى جونستون يطلب منه ان يحضر ليراه . وكان هدف تشانغ من دعوة جونستون هو ان يستطلع منه موقف حى المفوضيات ازاءه ، بينما امل القصر الشمالى ان يتعرف موقف تشانغ نحوى من خلال جونستون . وأعطيت جونستون صورة لي موقعة وخاتما ذا ماسة كبيرة ليقدمهما الى تشانغ تسوه لين ولكنه قبل صورتى ورد الخاتم معبرا عن تعاطفه . وفى الوقت نفسه نوه دوان تشي روى الى تشنغ شياو شيوى بأنه يمكن ان يفكر فى اعادة بنود المعاملة التفضيلية . ومع " التعاطف " من حى المفوضيات والدعم من هذين الرجلين تجرأ القصر الشمالى على شن " هجوم معاكس " رغم ان قوات فنغ يوى شيانغ كانت ما تزال فى بكين .

وفى ٢٨ نوفمبر ، اليوم الذى تلا انسحاب جنود الجيش الوطنى من البوابة الأمامية للقصر الشمالى وابراق فنغ يوى شيانغ بالاستقالة ، ارسل القصر الشمالى رسالة رسمية الى وزارة الداخلية باسم ادارة الأسرة تقول :

. . . . . . تبعا لاحكام المبادىء القضائية المطبقة فى القانون الجنائى ، يعتبر كل من يستخدم العنف لاكراه الغير على القيام بعمل ما مسئولا عن نتائج افعاله ، وتبعا لمبادىء القانون المدنى ، لا يعتبر شرعيا كل ما يتم إبتزازه بالعنف او الارهاب . اننا نوضح رسميا فى هذه الرسالة ان بيت تشنغ لا يسعه التسليم بشرعية البنود الخمسة المعدلة التى فرضها عليه مجلس الوزراء المرقت . . . . . .

ونشر القصر الشمالى فى نفس الوقت الرسائل التى تلتمس دعم المفوضين الأجانب وتوقف كذلك عن الاعتراف بـ " لجنة معالجة شؤون بيت تشينغ " على الرغم من ان بيت تشينغ كان قد أرسل ممثلين عنه للاشتراك فى اجتماعاتها .

وفى ذلك اليوم قابلنى مراسل للصحيفة اليابانية " شونتيان تايمز " (صحيفة مدعومة من المفوضية اليابانية كانت تؤيدنى علنا وتنشر قصصا ساخرة عن عملية طردنا من القصر) ، فصرحت له بشىء آخر مناقض تماما لما قلته يوم اخراجى من القصر :

ـــ اننى بالتأكيد لم أوافق مسرورا على التوقيع على الوثيقة فقد اجبرنى عليها جنود الجيش الوطنى متظاهرين بأنهم يفعلون ذلك باسم الشعب . . . . . .

قرار عند مفترق الطرق

مع ان الاهتياج قد عم جميع سكان القصر الشمالى الا ان آراءهم اختلفت حول ما يجب ان نفعله . وقد اوضح جينغ ليانغ فى مقالة كتبها فى " يوميات الانقلاب " ما يلى :

اظهر دوان تشي روى وتشانغ تسوه لين بعد دخولهما العاصمة مشاعرا ودية نحونا ، لكنها كانت مجرد مشاعر . وقد انخدع الجميع بأن العودة الى القصر وشيكة . ولما تبين انهم خلاف ذلك تباينت آراءهم . فهناك من قال يجب ألا نسمح بتغيير كلمة واحدة من بنود المعاملة التفضيلية الأصلية ، ومن قال يجب ان يعود الامبراطور الى القصر ويعاد اليه لقبه الجليل ، ومن قال يجب ان يغير لقبه الى لقب الامبراطور المتقاعد ، ومن قال ان النفقة السنوية يمكن ان تخفض ، ولكن يجب الحصول على ضمانات أجنبية ، ومن قال يجب ان ينتقل الامبراطور الى القصر الصيفي ، وبعضهم قال بوجوب شراء منزل فى القسم الشرقي من العاصمة . ولكن حيث ان السلطة الحقيقية فى أيدى الآخرين فان كل هذه الخطط كانت مجرد أحلام : لا أدرى ما الذى دفعهم الى ان يفكروا بهذه الطريقة .

لقد اقتلعتني عاصفة ٥ نوفمبر ١٩٢٤ من المدينة المحرمة وألقتني عند مفترق طرق ثلاثة . احدها ان اطبق ما اقترحته البنود المعدلة : فأتخلى عن لقبي الامبراطوري وطموحاتي القديمة واعيش "مواطنا عاديا" ذا ثروة طائلة واراضي واسعة . والثاني ان أحاول الحصول على مساعدة "انصارى" لالغاء البنود الجديدة ، واعادة البنود القديمة بكاملها ، واستعيد لقبي ، واعود الى القصر لأستأنف حياتي السابقة . والمسلك الممكن الثالث وكان اكثرها التواء : ان اذهب الى الخارج اولا ومن ثم اعود الى المدينة المحرمة — المدينة المحرمة كما كانت قبل ١٩١١ . وفى لغة ذلك الوقت كان هذا المسلك يعني "استخدام سلطة اجنبية للتخطيط من اجل اعادة الملكية" .

وانهمك المحيطون بى فى نقاشات طويلة حول مزايا الخيارات الثلاثة ، او الاثنين بالاصح ، لان الاول لم يجد عندهم كبير اعتبار ، وقد تركز النقاش حول ما اذا يجب ان امكث فى القصر الشمالى ام الجأ الى حى المفوضيات ؟ فأيد فريق يقوده والدي مكوثي فى القصر الشمالى لكنهم اصطدموا باصراري على الخروج من القصر . ومع انه لم تكن لدي افكار محددة

بخصوص مستقبلي ، الا ان شيئا واحدا كان واضحا فى ذهنى من اللحظة التى اجتزت فيها مداخل القصر الشمالى : ان أغادر هذا المكان مهما كلف الأمر فانا لم اخرج من المدينة المحرمة لكى اقيم في قصر مصغر محفوف بالمخاطر .

وفى هذه المرحلة ظهر مؤيد جديد لذهابى الى الخارج هو صديقى القديم الدكتور هو شى ، الذى لم يمض وقت طويل حتى رأيت فى الصحف رسالة مفتوحة منه الى وزير خارجية الحكومة المؤقتة شتم فيها الجيش الوطنى وعبر عن " سخطه " على تعديل بنود المعاملة التفضيلية تحت " التهديد العسكرى " . رمع ان معلمى الخصوصى تشن باو تشن كان مايزال يعتبره خسيسا ، الا ان تشنغ شياو شيوى صادقه ، كما أن بعض كبار موظفى اسرة تشينغ رأى انه افضل على اية حال من الثوريين ومن الجيش الوطنى . فرحبت به وأشدت برسالته المفتوحة . وهاجم الجيش الوطنى قائلا : " فى نظر اوروبا وامريكا تعتبر هذه كلها بربرية شرقية ! "

ان زيارة هو شى لم تكن مجرد زيارة مجاملة ، فقد جاءت من " اهتمامه " بى . وقد سألنى عما لدي من خطط للمستقبل ، فأجبت بأن الأمراء والموظفين كانوا يعملون من اجل اعادة الملكية ولكننى لم اكن مهتما بذلك لاننى رغبت فى ان اعيش حياة مستقلة واكتسب بعض المعرفة فناد برأسه وقال :

ــ ان لدى جلالتكم مثلا سامية . . بعد زيارتى الأخيرة الى القصر قلت لأصدقائي ان لدى جلالتكم مثلا سامية .

ــ أريد ان أذهب للدراسة فى الخارج ولكن هناك صعوبات كثيرة جدا .

ــ هناك صعوبات بالطبع ، ولكنها لن تكون بالغة الخطورة واذا ذهبتم الى انكلترا فان السيد جونستون يمكن ان يدبر كل شيء ولن تعترضكم أية متاعب فى ايجاد أناس يساعدونكم اذا ذهبتم الى أمريكا .

ــ ان الأمراء وكبار الموظفين لن يدعونى أخرج ؛ ولا سيما سمو

الأمير والدى .

ـ هذا ما قاله جلالتكم فى زيارتى الأخيرة للقصر . أعتقد انه لابد لكم من اتخاذ اجراء حاسم .

ـ لست متأكدا ان كانت السلطات الجمهورية ستسمح لي بالخروج .

ـ هذه ليست مشكلة . ان الشيء المهم هو ان يتخذ جلالتكم قرارا حازما .

ومع انني شعرت ببعض التحفظات ازاء هذه " الشخصية العصرية " ، الا ان ملاحظاته شجعتني . لقد جعلني أتأكد من ان خطتي فى الذهاب الى الخارج ستلقى تأييد عدد كبير من الناس ، وجعلني كذلك أشعر بمزيد من السأم من الأمراء وكبار الموظفين الذين كانوا معارضين لفكرة خروجي .

وشعرت ان أولئك الذين أرادوا العودة الى حياتهم السابقة داخل القصر لم يريدوا ذلك الا حرصا على ألقابهم السامية . والذى مكنهم من اطعام عوائلهم لم يكن الامبراطور بل البنود . ففى ظل النظام القديم وحده يمكنهم ان يواصلوا اشغال وظائفهم العاطلة المربحة ويواصلوا سحب المنح من الحكومة .

وعاد الي جونستون بعد لقائى مع هو شى ونقل الي اهتمام تشانغ تسوه لين بي . ورأيت ان هو شي كان مصيبا فى قوله ان السلطات لن تمنعني من الذهاب الى الخارج . وفيما كنت أنا وجونستون نتناقش فى كيفية تدبير هذا الأمر أشار تشانغ تسوه لين الى انه سيرحب بذهابي للاقامة فى الشمال الشرقى . فرأيت انه يمكن ان يكون من الخير ان أمضى بعض الوقت فى الشمال الشرقى أولا ، اذ بمجرد وجودى هناك سأكون قادرا على الذهاب الى الخارج متى أردت . ولكن ما ان توصلت الى هذا القرار حتى برزت مشكلة جديدة .

كان الجو قد أصبح أكثر استرخاء بعد انسحاب حرس الجيش الوطنى عن البوابة ، وأصبحت انا أكثر اندفاعا فى شتم الجيش الوطنى امام الصحفيين كما ذكرت آنفا . ومن ثم ظهر تشنغ شياو شيوى وسألني ان كنت قد قرأت

الصحف ام لا .

— قرأتها ، ولكن ليس فيها الكثير من الأخبار .

— يا جلالة الامبراطور ، انظروا الى صحيفة « شونتيان تايمز »

وأطلعني على عنوان رئيسي يقول : " الحمر يؤيدون حكم الشعب لنفسه " . وجاء فى هذا الخبر انه منذ دخول قوات فنغ يوى شيانغ الى العاصمة بدأ " الحمر " نشاطاتهم ، وانه ظهرت مؤخرا عشرات الالوف من المنشورات تؤيد " حكم الشعب ، لا الحكومة . الحرية ، لا القوانين " وما الى ذلك . وغالبا ما كان يخبرني تشنغ شياو شيوى وجونستون وغيرهما او أقرأ فى صحيفة « شونتيان تايمز » ان الشيوعيين حمر ومتطرفون وان الشيوعية تعنى " فيضانات هائلة ووحوش مفترسة " كما تعنى اشاعة الاموال والنساء ، وسمعت أيضا ان جيش فنغ يوى شيانغ له صلات بـ " الحمر " و" المتطرفين " وغير ذلك من القصص المتعددة . والآن وضح لي تشنغ شياو شيوى ان البلاد على شفا ثورانات عنيفة وان الحمر سيفتكون بى حتما .

واصبحت أشد ذعرا من السابق عندما دخل علي لوه تشن يوى وعلى وجهه ملامح الاستياء . وكنت دائما أعلق أهمية كبيرة على الأخبار التى يحصل عليها لوه من مصادر يابانية . وهذه المرة أبلغني ان اليابانيين قد سمعوا من مخابراتهم ان فنغ يوى شيانغ و" الحمر " يخططون لعمل ضدى ، وقال : " ان قوات فنغ الآن تحتل القصر الصيفى ، وان شيئا ما قد يحدث خلال اليوم او اليومين التاليين . وينبغى لجلالتكم ان يغادر هذا المكان بأسرع ما يمكن ويلجأ الى حي المفوضيات . "

وعاد جونستون بعدها بخبر من الصحافة الأجنبية يقول ان فنغ يوى شيانغ سيقوم بحركة جديدة ضد بكين . ولم أعد عندها قادرا على كبح قلقي . وحتى تشن باو تشن كان فى ذعر شديد بحيث وافق على الاقتراح القائل بوجوب لجوئي الى حي المفوضيات مادامت قوات فنغ يوى شيانغ خارج القصر

الشمالى . واقترح ان أدخل المستشفى الألمانى اولا لان هناك طبيبا من معارفي . وتناقشت انا وتشن باو تشن وجونستون فى هذه الخطط سرا على ان تظل مخفية لا عن السلطات الجمهورية وحدها بل عن والدي أيضا .

وعملنا بموجب هذه الخطط السرية ونفذنا المرحلة الاولى : ذهبت مع معلمى الخصوصى تشن باو تشن لزيارة الزوجتين العليتين اللتين كانتا قد خرجتا من القصر بعد خروجى ببضعة أيام وأقامتا فى زقاق تشيلينبى ، ثم عدت الى القصر الشمالى . وهذه الخطوة كانت من أجل جعل القصر الشمالى يشعر باننى أهل للثقة . وقررنا ان تنفذ المرحلة الثانية فى اليوم التالى . وكان علي ان أقول اننى ذاهب لتفتيش منزل كنا نعتزم استئجاره فى زقاق بياوبى . ومن ثم أتسلل الى حى المفوضيات وأدخل المستشفى الألمانى . وبمجرد وصولى حى المفوضيات ستكون المرحلة الثالثة والرابعة ، وهى التحاق وان رونغ وون شيو بي ، فى غاية السهولة . ولكن بعد ان صعدنا السيارتين وأوشكنا على التحرك فى المرحلة الثانية أرسل والدي قهرمانه الرئيسى لمرافقتنا . وركبت فى السيارة الاولى مع جونستون . وركب القهرمان خلف تشن باو تشن فى السيارة الأخرى .

وقطب جونستون عند صعوده الى السيارة وقال بالانكليزية :

ــ ازعاج .

فقلت :

ــ لا تأبه له !

وطلبت من السائق ان يتحرك ، وخرجنا من القصر الشمالى . ولم أرغب قط فى دخول هذه البوابات مرة ثانية .

رأى جونستون ان ليس بامكاننا تجاهل القهرمان وان علينا ان نفكر فى طريقة للتخلص منه . وجاءتنا فكرة نيرة فقررنا ان تقف سيارتنا عند متجر أجنبى لنتظاهر بأننا نشترى شيئا ما ثم نعيده بالسيارة الأخرى .

وكان عند مدخل حى المفوضيات محل لبيع ساعات اليد والساعات المنبهة

والكاميرات يديره أجانب . وعندما وصلنا المحل دخلت اليه مع جونستون . وتلفت ، ثم اخترت ساعة جيب فرنسية . ولكن على الرغم من انني تعمدت ان أتأخر في المتجر وقتا طويلا ، الا ان القهرمان ظل ينتظر في الخارج وبدا واضحا انه لا ينوي المغادرة . فاضطر جونستون الى استخدام سهمه الأخير وأخبر القهرمان بأنني أشعر ببعض التعب وسأزور المستشفى الألماني . فداخله الشك وتبعنا الى هناك ، ولكن بمجرد وصولنا دفعناه جانبا . وأخبر جونستون الدكتور ديبر عن سبب مجيئي وأدخلني الى ردهة خالية لأستريح . ولما رأى القهرمان ان في الأمر شيئا اختفى حالا . وعرفنا انه لابد ان يعود من فوره الى القصر الشمالي ويبلغ والدي ، لذلك لم يضيع جونستون الوقت للتفاوض مع المفوضية البريطانية . ومضى الوقت دون ان تصلني منه أخبار ، فأصبحت في غاية القلق ، خائفا من ان يعود القهرمان بوالدي . وعندها تماما وصل تشن باو تشن متبوعا بتشنغ شياو شيوى . وقد وصف تشنغ شياو شيوى في يومياته ما جرى حينذاك على النحو الآتي :

لقد شجعت جلالته على ان يذهب الى المفوضية اليابانية ، وأمرني هو ان أذهب وأخبر اليابانيين . لذلك زرت العقيد تاكيموتو ، وأخبرته بوصول الامبراطور ، وهو بدوره أبلغ السيد يوشيزاوا بذلك . وطلب مني تاكيموتو بعد ذلك ان أدعو الامبراطور للقدوم الى المفوضية فورا . وكانت ريح شديدة تعصف حينذاك والسماء محجوبة برمل أصفر ، فلم يكن بوسع المرء ان يرى الا في حدود بضع خطوات أمامه . وعندما عدت الى المستشفى خشيت ان يعصى السائق الأوامر ، ولذا نصحت جلالته ان يخرج في عربتي . وخشيت من كثرة الناس خارج المدخل الأمامي للمستشفى ، فأخذت العربة الى الباب الخلفي ففتحه طبيب ألماني ودلتنا ممرضة معه على الطريق ، ثم صعدنا انا والامبراطور الى العربة يرافقنا خادم . وكانت المسافة بين المستشفى الألماني والمفوضية اليابانية حوالي لي واحد (نصف كيلومتر) ، وكان هناك طريقان يؤديان الى المفوضية اليابانية ، أحدهما يبدأ من الشرق الى الغرب عبر حي

المفوضيات وينعطف شمالا ، والآخر يجتاز شارع تشانغآن (٢٥) بطوله وينعطف جنوبا . وطلبت من الحوذى ان يرجع الى المفوضية اليابانية . ولما كان الطريق الثانى أقصر بقليل ، فقد دخل فى شارع تشانغآن . فصاح جلالته فى ذعر : " لماذا جئنا فى هذا الطريق ؟ هناك بوليس صينى فى الشارع . " وفيما كانت العربة ماضية فى سرعة كبيرة قلت : " سنصل بعد لحظة . لا أحد يمكن ان يعرف ان هذه العربة تضم امبراطورا . أرجو من جلالتكم ألا يكون مذعورا . "

وعندما انعطفنا جنوبا على طول ضفة الجدول ، المحاذى لحى المفوضيات ، كنت قادرا على ابلاغ الامبراطور باننا أصبحنا داخل الحى ، ومن ثم وصلنا الى المفوضية اليابانية . وكان تاكيموتو فى استقبال الامبراطور فأخذه الى الثكنة حيث انضم الينا تشن باو تشن .

وكان تشنغ شياو شيوى مسرورا غاية السرور بالدور الذى لعبه فى هروبى ، وقد نظم قصيدتين ورسم صورة رمزية لاحياء ذكرى هذه المناسبة . وكان السبب الرئيسى فى ارتياحه الشديد انه تغلب على منافسه السرى لوه تشن يوى الذى لم تتح له فرصة النهوض بهذه المهمة وفقد بذلك صلاته القديمة بالعقيد تاكيموتو بعد ان نشلها منه تشنغ بخفة . وكان التنافس بين هذين الرجلين فى البداية مختفيا وراء صراعهما المشترك ضد الأمراء ، ثم أسفر عن نفسه منذ هذه اللحظة .

فى كتاب « الشفق داخل المدينة المحرمة » صحح جونستون خطأ ورد فى وصف تشنغ للهروب الى حى المفوضيات . فقد ذكر تشنغ ان العقيد تاكيموتو قد حصل على موافقة المفوض اليابانى قبل ان يستقبلنى لي فى الثكنة ، اما فى الواقع فان العلاقة بين الموظفين العسكريين والمدنيين فى المفوضية اليابانية لم تكن على مايرام . وكان تاكيموتو لا يرغب لضيفه ان يؤخذ منه ولذلك لم يبلغ المفوض الياباني بالأمر .

لكنى لم ابق مع تاكيموتو ، فحالما سمع المفوض اليابانى بوصولى الى الثكنة دعانى للانتقال الى المفوضية فلبيت الدعوة .

من حى المفوضيات الى منطقة الامتيازات

كان "حى المفوضيات" و"مناطق الامتيازات الأجنبية" فى تلك الأيام أماكن "مضيافة" . فقبل سبع سنوات أجبر تشانغ شيون الرئيس لى يوان هونغ على اللجوء الى احدى المفوضيات ، وذلك عندما أصبحت امبراطورا للمرة الثانية ، وتشانغ شيون نفسه أصبح "ضيفا" لدى المفوضية الهولندية بعد ذلك ببضع سنوات . وكلما استعدت احدى المفوضيات لاستقبال ضيوف من هذا القبيل ازدحمت الفنادق والمستشفيات فى ذلك الحى ازدحاما شديدا . وكان كثير من الخائفين الذين لا تمكنهم منزلتهم المتدنية من الدخول الى مفوضية يملأون هذه الأماكن حتى ان بعضهم حجز مكانا له تحت السلم .

وكان استقبالى هناك هو الاول وربما الأخير من نوعه . وعندما أرسلت فى احضار زوجتى من القصر الشمالى لم يسمح لهما البوليس الجمهورى بالخروج ، فأرسلت المفوضية اليابانية سكرتيرا لمعالجة هذا الأمر . وعندما ذهبت جهود السكرتير عبثا ذهب المفوض اليابانى لرؤية الرئيس التنفيذى دوان تشي روى نفسه ، ونتيجة لذلك لحقت بى وان رونغ وون شيو مع ما لديهما من خصيان ووصيفات .

ولما رأى المفوض اليابانى حجم حاشيتى تأكد من ان ثلاث غرف لن تكفى لاستيعابنا ، فأخلى لنا مبنى كاملا . وكان فيه غرفة لكل واحد ، من مرشدى المكتبة الجنوبية وكبار موظفى ادارة الأسرة الى عشرات الاتباع والخصيان والوصيفات والخادمات ومساعدى الطهاة . واستأنفت مكاتب امبراطور أسرة تشينغ العظيمة عملها مرة أخرى داخل المفوضية اليابانية .

والأهم من ذلك ان يوشيزاوا أقنع الحكومة المؤقتة ان تتخذ منى موقفا متفهما ، فارسات وبالاضافة الى ما قامت به من شرح لوجهات نظرها ليوشيزاوا مبعوثا لزيارة العقيد تاكيموتو وكررت له قولها : " ان الحكومة المؤقتة عندها كل النية لاحترام رغبة الامبراطور المتقاعد فى الحرية ، وستبذل كل ما فى الممكن لتحمى حياته وممتلكاته وأتباعه . "

وجاءت الي مجموعة من الأمراء برئاسة والدي لاقناعى بالعودة الى القصر الشمالى . وقال ان الجو الآن آمن لان وجود دوان تشى روى وتشانغ تسوه لين فى العاصمة يحد من اندفاع الجيش الوطنى ، واضافة الى ذلك قدم دوان وتشانغ ضمانات لسلامتى . ولكننى صدقت لوه تشن يوى وغيره ممن قالوا ان هذه الضمانات لم تقدم ، ثم اننى دخلت المفوضية ، واذا ماعدت الى القصر الشمالى والجيش الوطنى مايزال فى بكين فلن تكون للضمانات أية فاعلية . ورفضت ان أعود . وكان الأمراء فى الحقيقة يبحثون لأنفسهم عن أماكن للاقامة فى حي المفوضيات فى ذلك الوقت .

هذه الحماسة التى استقبلتنا بها المفوضية اليابانية دفعت كثيرا من كبار الموظفين السابقين فى أسرة تشينغ الذين لم يكونوا معروفين لي سابقا الى القيام بنشاطات . فأرسلوا برقيات من كافة أنحاء البلاد يطلبون فيها من الرئيس التنفيذى دوان تشي روى اعادة بنود المعاملة التفضيلية الأصلية ، وأرسلوا الي اموالا لتغطية نفقاتى ، وبعضهم حضر الى بكين ليقدم احتراماته لي ويعرض علي خططا لاعادة الملكية . وبعض الأمراء المغول تصرف كأنما شرب المنشطات ، فطير برقيات دوارة وأرسل عرائض الى الحكومة المؤقتة يطلب معرفة ما سيحدث بخصوص بنود المعاملة التفضيلية . وأجابت الحكومة المؤقتة بأنها ستستمر دون تغيير . واتخذ الأمراء وكبار الموظفين موقفا أشد فرفضوا الاشتراك فى اجتماعات " لجنة معالجة شؤون بيت تشينغ " . وهذه اللجنة التى تشكلت منذ وقت غير طويل كان عليها ان تنظم جردا بممتلكات بيت تشينغ وتقسمها الى خاصة

وعامة . واستمر شاو ينغ وغيره من أعضاء اللجنة من أسرة تشينغ فى رفضهم الحضور مبلغين السلطات علنا انهم لا يعترفون بهذه اللجنة .

وأخذ الكثير من كبار الموظفين السابقين فى أسرة تشينغ يحضرون الى المفوضية اليابانية كل يوم ليظهروا استقامتهم ويقدموا لي احتراماتهم ويقدموا الأموال ويشرحوا " الخطط الكبيرة لاعادة الملكية " .

وفى عيد رأس السنة الصينية غصت قاعة الاستقبال عندى بالضفائر ، وجلست مواجها الجنوب على الطريقة الامبراطورية فوق كرس غربى الطراز قام مقام العرش واستقبلت المهنئين .

وأبدى الكثير من كبار الموظفين السابقين امتنانهم للمضيفين اليابانيين . ورأوا فى الحفاوة التى لقيتها لدى المفوضية ما يبعث على الأمل ، وقد كتب أحدهم ، وانغ قوه وى ، فى احدى مذكراته ان " المفوض اليابانى . . . لم يأخذ فى اعتباره عظمة جلالتكم السابقة فحسب ، بل ينظر اليكم على أنكم حاكم الصين القادم ، فكيف يمكن لأتباعكم وموظفيكم ألا يكونوا ممتنين ؟ "

وبعد ثلاثة عشر يوما من رأس السنة الصينية حل عيد ميلادى العشرون (وفقا للتقويم الصينى) (٢٦) . ونظرا الى اننى كنت فى منزل غريب فلم أعتزم الاحتفال به ، ولكن مضيفى كان مصمما ان يفرحنى ، فقدم لي القاعة الرئيسية فى المفوضية لأستقبل فيها المهنئين . وفرشت القاعة فى هذه المناسبة بالسجاد الفاخر ، وأقيم خلف الاريكة المزودة بوسادة صفراء ، والتى قامت مقام العرش ، حاجب زجاجى مغطى بورق أصفر . واعتمر جميع الغلمان بقبعات تشينغية كبيرة ذات شراريب حمر . وجاء أكثر من مائة موظف من كبار الموظفين السابقين فى أسرة تشينغ من عدة مدن كبيرة لحضور الاحتفال ، كما حضره أعضاء من السلك الدبلوماسى وكذلك الأمراء وكبار الموظفين وكبار الموظفين السابقين المحليين فى أسرة تشينغ ، ووصل مجمل الحاضرين الى أكثر من ٥٠٠ شخص .

ولبست ثوبا حريريا أزرق وسترة من الديباج الأسود ، ولبس جميع الأمراء وموظفي البلاط وكبار الموظفين السابقين فى أسرة تشينغ نفس الطراز من الثياب . وبالاضافة الى ذلك كانت الأعراف الاحتفالية هي نفسها التى كانت فى القصر . واتحدت الضفائر مع الصفرة الامبراطورية والركوعات التساعية لتبعث فى نفسى مشاعر الألم والاكتئاب الشديدين . وبعد انتهاء المراسم ارتجلت خطابا نشر فى صحافة شانغهاى بصورة غير مضبوطة عدا الجزء الأخير منه ، الذى اثبت نصه فيما يلى :

نظرا الى اننى شاب فى العشرين فليس من الصواب ان أحتفل بـ " حياة مديدة " ، لا سيما واننى غير متحمس للاحتفال وسط الصعوبات الحالية ، وانا ضيف تحت سقف غريب ، ولكن مادمتم قد جئتم من مكان بعيد فانى أود ان اغتنم هذه الفرصة لأقابلكم وأتحدث اليكم . اننى مدرك تماما انه لايمكن ان يظل فى العالم الحديث أباطرة ، وقد قررت ألا أجازف بأن أكون واحدا من الأباطرة . ان حياتى معزولة داخل الأسوار العالية كانت عبارة عن حياة سجين ، ولم أشعر بأى سرور فى افتقارى لحريتى . منذ فترة طويلة وانا أحمل بين جنبي طموحا فى الذهاب الى الخارج ، وقد درست الانكليزية باجتهاد ودأب من أجل هذا الهدف ، ولكننى كنت أواجه قيودا كثيرة لم تمكننى من تحقيق آمالى .

ان استمرار بنود المعاملة التفضيلية او الغاءها يبدو ان لي مسألة ليست بذات أهمية . ولو اننى ألغيتها تلقائيا لكان ذلك مقبولا ، ولكن من غير المحتمل ان أفعل ذلك مكرها . لقد كانت البنود اتفاقية ثنائية ولا يمكن ان تغير بمرسوم من أحد الفريقين ، ناهيكم عن انها اتفاقية ذات صفة دولية . لقد كان ارسال فنغ يوى شيانغ قواته الى القصر انتهاكا للقانون مجردا من أبسط المشاعر الانسانية على حين ان المسألة كان من الممكن حلها عن طريق التفاوض . لقد كانت عندي منذ وقت طويل رغبة صادقة فى عدم استخدام ذلك اللقب الفارغ ، ولكن اجبارى على التخلى عنه بالقوة المسلحة جعلنى أشعر

بالاستياء البالغ . ان تصرفات همجية كهذه تلحق من وجهة نظر الجمهورية ضررا كبيرا ينال اسمها وسمعتها .

اما عن الدوافع الكامنة وراء طردى من القصر فلن أتكلم شيئا . لعلها معروفة لديكم . ولما كنت عاجزا كليا فانه لم يكن انتصارا عسكريا من جانب فنغ يوى شيانغ ان يفعل ضدى ما فعله ، وانه لمن الصعب ان أصف الخوف المذل الذى تعرضت له بعد مغادرتى القصر . وحتى لو كان محقا فى طردى ، لماذا احتجز جميع ملابسى والزهريات والتخطيطات والكتب التى خلفها أسلافى ؟ لماذا لم يسمح لنا بأخذ طاسات الأرز وأكواب الشاى وأدوات المطبخ التى كانت تستخدم يوميا ؟ أكانت هذه مسألة " حفظ التحف " ؟ أكانت تلك الأدوات ذات قيمة تذكر ؟ اننى لاأعتقد بأنه كان سيتصرف بهذه القسوة حتى فى تعامله مع قطاع الطرق .

وعندما يقول ان اعادة الملكية عام ١٩١٧ قد أبطلت بنود المعاملة التفضيلية فعليه ان يذكر اننى لم أكن وقتها الا صبيا فى الثانية عشرة وغير قادر على تنظيم العملية بنفسى . ولكن لندع هذه المسألة جانبا ، هل كان يدفع ما يسمى بـ " الاعانة المالية السنوية " فى موعدها المحدد منذ ان وقعت البنود ؟ هل كان يدفع للأمراء والنبلاء الرواتب المنصوص عليها فى هذه البنود ؟ هل كانت تدفع نفقات معيشة المانشويين كما ينبغى وفقا للبنود التى تنص على المعاملة التفضيلية ؟ ان مسؤولية الغاء البنود تتحملها الجمهورية ، لكنها لا تريد الاقرار بمسئوليتها فى ذلك ، متذرعة بحركة اعادة الملكية لعام ١٩١٧ . أليس هذا منتهى الاجحاف ؟

اننى لا أود ان أشكو ، ولكننى لا أستطيع ان أدع هذه الفرصة تفوت دون ان أكشف عما يعتمل فى قلبى من أسى ، حتى اذا ما سمع برلمان الجمهورية بذلك وكان لديه أدنى شعور انسانى فلعله يحس بأن هذه المسألة يجب ان تحل حلا عادلا . وسأقبل بحل كهذا دونما اعتراض .

ولدي اعلان آخر هام أود ان أصرح به . اننى لن أوافق أبدا على أى اقتراح يقول بوجوب طلبى تدخلا أجنبيا ، فانا لا يمكن أبدا ان أستخدم سلطة أجنبية للتدخل فى الشؤون الداخلية للصين . . . .

فى الفترة ما قبل الاحتفال بعيد ميلادى وبعده كانت الصحف ملأى بالتهجمات على جماعتى ، بشكل يعكس سخط الغالبية العظمى من أبناء الشعب . وظهرت احتجاجات عنيفة عندما نشرت " لجنة معالجة شؤون بيت تشينغ " أشياء مثل حاشية بنود المعاملة التفضيلية التى كتبها يوان شى كاى عندما كان امبراطورا ووثائق عن اساليب ادارة الأسرة فى رهن او بيع ونقل كنوز القصر . ولكن الذى سبب أشد السخط هو الاتصالات بين البلاط الصغير واليابانيين ومحاولات كبار الموظفين السابقين فى أسرة تشينغ اعادة البنود . وقد ظهرت فى بكين " عصبة مناهضة المعاملة التفضيلية لبيت تشينغ " ، وبدأت تقوم بنشاطات فعالة ضد بيت البلاط الصغير . وقد عبرت الصحافة عن استياء الرأى العام بطرق مختلفة : كتابات هجائية قصيرة ، اتهامات مباشرة، نصائح وتحذيرات للمفوضية اليابانية والسلطات الجمهورية . وعندما أنظر اليها اليوم أتبين كم كانت حياتى ستختلف لو اننى قبلت بأى واحد من هذه الانتقادات . وقد كشفت بعض المقالات عن مؤامرات اليابانيين ، واعيد هنا نشر جزء من احدى هذه المقالات التى نشرت فى صحيفة بكين اليومية وهى تصف المؤامرات التى كان يدبرها اليابانيون لصالحي بشكل مقارب جدا لما حدث فيما بعد ، وانها لتجفلنى اذ أقرأها اليوم :

وأسوأ جزء فى المؤامرة هو الابقاء عليه الى ان تقع حادثة فى مقاطعة هامة، وعندها ترسله دولة ما الى هناك مع حماية مسلحة لاحياء لقب أسلافه القدماء . والمقاطعة ستفصل عن الجمهورية وستتلقى حماية تلك الدولة . والخطة الثانية ستتم معالجتها بنفس الطريق حيث سيتم الالحاق بدولة ما . . .

ان ذعر بو يى وهربه كانا نتيجة فزع تعمد اظهاره أناس معينون . ولقد وقع فى فخهم الذى كان جزءا من تدبير طويل المدى خطط له فى وقت سابق . . . وانهم فى معاملتهم الحالية له عازمون على تزويده بكل شيء مهما كلف ذلك ، لقد عاملت الدولة المعنية أتباعه على خير وجه ، فوقعوا تحت سيطرتها دون ادراك منهم انهم سيغدون أدواتها فى المستقبل .

هذه الكلمات الصادقة بدت لي فى ذلك الوقت افتراء محضا ، وان الغرض منها مخادعتى للعودة الى القصر الشمالى والى الاضطهاد ثانية .

عندما كنت مقيما فى المفوضية اليابانية خرجت عدة مرات ليلا على الدراجة مصطحبا معى خادما او خادمين . ثم أغلقت البوابة الرئيسية للمفوضية ولم يعد يسمح لي بالخروج . وفى احدى المرات التى خرجت فيها وصلت الى الخندق المائى المحيط بالمدينة المحرمة ، وعندما نظرت الى الأبراج والشرفات تذكرت قصر تهذيب النفوس وقصر السماء الصافية اللذين غادرتهما منذ وقت قريب ، كما تذكرت عرشي والصفرة الامبراطورية فضجت فى نفسى رغبة الانتقام واستعادة العرش . وامتلأت عيناى بالدموع عندما سرى فى جسدى عزم العودة الى هنا فى المستقبل ملكا مظفرا تماما كما فعل أول أسلافى من قبل . ثم تمتمت بكلمة الوداع ، واعتليت دراجتى عائدا بأقصى سرعة . . .

فى كل يوم من الأشهر الثلاثة التى أمضيتها فى المفوضية اليابانية كنت أتلقى العناية الفائقة من مضيفي اليابانيين وأيمان الولاء من كبار الموظفين السابقين والاحتجاج من عامة الناس . وتحت هذه التأثيرات الثلاثة أخذ كل من طموحى وحقدى يتنامى دون انقطاع . ورأيت أنه ليس من المناسب لي ان أستمر مقيما هناك ، وفكرت فى القيام ببعض الاستعدادات من اجل مستقبلي . وعاودتنى الرغبة فى الخروج للدراسة فى اليابان ، وهى فكرة أيدتها المفوضية اليابانية بحماس .

واستمر الصراع حولى بين لوه تشن يوى وتشنغ شياو شيوى فى المفوضية . ثم انتهى بانتصار لوه وتقاعد تشنغ وعودته الى شانغهاى .

وبعد عيد ميلادى بوقت غير طويل أبلغنى لوه تشن يوى انه رتب مع أحد موظفى المفوضية وجوب قيامى فى تيانجين بالاستعدادات للذهب الى اليابان ، حيث انه لم يكن أبدا من الملائم لي ان أستمر مقيما فى المفوضية . وسيكون من الأفضل لي ان أجد منزلا فى منطقة الامتيازات اليابانية اذ ان المنزل

الذى اشتريته سابقا كان غير مناسب من حيث موقعه داخل منطقة الامتيازات البريطانية . وهذا كله بدا معقولا بالنسبة لي ، لا سيما اننى رغبت فى رؤية مدينة تيانجين الكبيرة ، لذلك وافقت حالا . وأرسلت " مرشد المكتبة الجنوبية " ليجد لي منزلا فى منطقة الامتيازات اليابانية فى تيانجين ، واستقر رأيه أخيرا على حديقة تشانغ ، وبعد بضعة أيام أخبرنى لوه تشن يوى ان المنزل قد أعد وان الجيش الوطنى يقوم بتغيير حاميته ، لذلك يجب ان ننتهز هذه الفرصة ونتحرك فى الحال . فتحدثت فى الأمر مع يوشيزاوا ، فوافق على رحيلى . كما أبلغ بذلك دوان تشى روى فعرض دوان بالاضافة الى موافقته ان يزودنى بحرس عسكرى . وكان يوشيزاوا قد قرر ان يجلب مسئول شرطة القنصلية اليابانية فى تيانجين الى بكين مع بعض أفراد البوليس السرى ، حيث تعين أولا ان أذهب تحت حمايتهم ومن ثم تلحق بى زوجتاي .

وفى الساعة السابعة مساء من يوم ٢٣ فبراير ١٩٢٥ استأذنت المفوض اليابانى وزوجته . والتقطنا بعض الصور ، ثم شكرتهما ، وتمنيا لي رحلة مصحوبة بالسلامة . ثم غادرت المفوضية من بوابتها الخلفية ، يصحبنى موظف يابانى وأفراد من البوليس السرى ، وتوجهنا الى محطة القطار فى تشيانمن . وهناك قابلت لوه تشن يوى وابنه . وعند كل محطة وقف فيها القطار كان يصعد اليه عدد من رجال البوليس اليابانى والجواسيس بثياب مدنية سوداء ، ولدى وصولنا تيانجين كانت العربة قد غصت بهم تقريبا . وعندما نزلت من القطار وجدت فى استقبالى القنصل اليابانى فى تيانجين يوشيداشيغرا وعشرات من ضباط وجنود الحامية اليابانية .

وبعد ثلاثة أيام نشرت صحيفة « شونتيان تايمز » بيانا صادرا عن المفوضية اليابانية يعلن ان عزمى على مغادرة بكين كان معروفا لدى الحكومة المؤقتة منذ وقت طويل ، وانها لم ترغب قط فى التدخل فى الخطة ، وان رحيلى المفاجىء كان نتيجة وضعى غير المستقر فى بكين .

الفصل الرابع

تيانجين

جهود لوه تشن يوى

عندما وصلت تيانجين وجدت ان لوه تشن يوى لم يصدق حين أخبرنى بأن البيت جاهز ، فأمضيت يومى الأول فى فندق ياماتو . وفى اليوم التالى وصلت وان رونغ وون شيو وبقية من كانوا معى فى المفوضية اليابانية ، وانتقلنا جميعا الى حديقة تشانغ التى أثثت على عجل .

كانت حديقة تشانغ تغطى عشرين مو (٢٧) من الارض وتشتمل على دار كبيرة . وكانت تعود لضابط سابق من أسرة تشينغ لم يأخذ منى أية أجرة وكنس لي الفناء بنفسه تعبيرا عن ولائه لي . وقد أقمنا فيها خمس سنوات ، ثم انتقلنا منها الى " الحديقة الهادئة " بعد موته ، وذلك عندما طلب ابنه منا أجرة .

كان هدفي من المجيء الى تيانجين هو الذهاب الى الخارج ، ولكننى انتهيت الى البقاء سبع سنوات هناك ، سبع سنوات راوحت فيها بين فئات مختلفة وأفكار متعددة وتغيرت فيها العلاقات وموازين القوى ، فضعف الأمراء الذين يقودهم والدي ولم يعودوا قادرين على منحى دعما حقيقيا . ولم أعد أرى جونستون معلمي الخصوصى ، ولكنه زارنى عام ١٩٢٦ ، فى محاولة لاقامة تعاون بينى وبين أمير الحرب وو بى فو وأتباعه ولم ينجح فى ذلك ، فعاد الى انكلترا .

ويمكننى تقسيم الناس الذى سعوا لكسب ودى ابان تلك السنوات السبع الى فئات . فهناك " كبار الموظفين " بقيادة تشن باو تشن ، وكانوا فى البداية يأملون اعادة بنود المعاملة التفضيلية ثم اكتفوا فيما بعد بالرغبة فى الحفاظ على

الوضع الراهن . ويمكن تسمية هؤلاء " فئة العودة الى القصر " . وهناك فئة أخرى حول لوه تشن يوى علقت آمالها على ذهابى الى الخارج وحصولى على مساعدة من البلدان الأجنبية ، وعلى رأسها اليابان ، ويمكن اعتبارهم " حلفاء اليابان " او فئة " الذهاب الى الخارج " وقد ضمت مخضرمى أسرة تشينغ وواحد او اثنين من الأمراء المانشويين مثل بو وى . والفئة الثالثة هى التى كنت أقودها انا وكانت ترى خير وسيلة هو الاتصال بأمراء الحرب وشراؤهم . ومجموعتنا من " العسكريين " كانت متنافرة نوعا ما ، وهى تضم مخضرمى أسرة تشينغ وسياسيين جمهوريين .

وعندما عاد تشنغ شياو شيوى للعمل معى لم يربط نفسه بأية زمرة . وبدا انه يمتدح ويهاجم معا الاقتراحات التى يقدمها الآخرون ، ثم يقترح أفكارا لم يتوصل اليها أى منهم ، كاستخدام المرشدين الأجانب وسياسة " الباب المفتوح " (التعاون مع اى بلد يرغب فى المساعدة على اعادة الملكية) ، وقد لقيت اقتراحاته هذه معارضة جميع الفئات الأخرى . وعندما استقر أخيرا على سياسة الاعتماد على اليابان تغلب على جميع مناوئيه ومن بينهم منافسه القديم لوه تشن يوى ، صدر الزمرة المؤيدة لليابانيين .

ولنترك هذه التطورات الأخيرة جانبا ، ونبدأ أولا بالقاء نظرة على لوه تشن يوى وهو موظف كبير فى أسرة تشينغ كان فى حوالى الخمسين عندما جاء الى المدينة المحرمة ، مربوع القامة يلبس نظارة ذهبية الاطار (كان يخلعها دائما فى حضرتى) ، له لحية يختلط فيها البياض الصفرة وضفيرة بيضاء . وكان يتكلم ببطء بلكنة ناحية شاوشينغ من مقاطعة تشجيانغ التى جاء منها . وكنت قد قابلته لأول مرة بعد زواجى عندما عين " مرشد المكتبة الجنوبية " واشترك فى عمل التقييم الفنى لبرونزيات القصر القديمة . والى جانب احرازه شهرة واسعة بوصفه أديبا جذب اهتمامى كذلك بوصفه ملكيا .

اقام لوه فى اليابان ، او فى منطقة الامتيازات اليابانية داخل الصين طوال

المدة التى اعقبت ثورة ١٩١١ . وكون نفسه بوصفه " مرجع " فى الاثريات بشتى الوسائل الماكرة . وكان يزاول تجارة تلفيق الأدوات العتيقة والأختام واللوحات والتخطيطات وانتحل دون حياء معرفة زميله وانغ قوه وى ، الذى انتحر - ربما لانه لم يتحمل قسوته . وبلغ به الحذق فى التلفيق ان زور مذكرة انتحار من وانغ يزعم فيها انه انتحر بسبب ولائه لأسرة تشينغ . وبهذه الطريقة حصل لوه على الحظوة عندي .

وكان أول شيء تخاصم عليه لوه تشن يوى وتشنغ شياو شيوى هو مسألة ذهابي الى الخارج . وكان انتقالى من المفوضية اليابانية الى منطقة الامتيازات اليابانية فى تيانجين قد اوصل معارضة الرأى العام الى ذروتها . فظهرت " عصبة مناهضة تشينغ " فى تيانجين بهدف مهاجمتى ليس الا وقد انتهز لوه تشن يوى وزملاؤه هذه الفرصة للضغط علي متذرعين بأنه لم يعد أمامى من خيار الا الذهاب الى الخارج ، وبأن خروجى ضرورى لسلامتى ولاعادة الملكية . وقد حظى رأيهم هذا لبعض الوقت بتأييد حماسى بين كبار موظفى الأسرة .

واعتبر تشن باو تشن وزمرته أفكارا كهذه تهورا . فقد رأوا أننى لم أكن فى وضع شديد الخطورة ، وخافوا ألا ألقى ترحيبا فى اليابان . ولكن اذا كان من المتعذر على ان أقيم فى اليابان أو فى الصين ، فليس هناك مجال للتفكير فى ان دوان تشى روى وتشانغ تسوه لين وأمثالهما سيسمحون لي بالعودة الى المدينة المحرمة والعيش فيها كما كنت من قبل . ومع اننى لم أنجذب الى نصيحة تشن باو تشن ، الا ان تحذيراته لي جعلتنى أتشكك فى اقتراحات لوه تشن يوى .

وفى عام ١٩٢٦ تطور الوضع السياسى الى ما كان يأمله تشن باو تشن وجماعته . فقد تحول تشانغ تسوه لين الى التعاون مع وو بى فو واصطدم بزميله السابق فنغ يوى شيانغ . وهوجم جيش فنغ يوى شيانغ الوطنى من جيش فنغتيان التابع لتشانغ تسوه لين ، فاضطر فنغ الى سحب جنوده من تيانجين ،

وطوقت فى تلك الأثناء وحداته التى كانت فى بكين . وعندما اكتشف فنغ يوى شيانغ الصلات بين دوان تشى روى وتشانغ تسوه لين ، فر دوان من قبضته . لكن فنغ يوى شيانغ اضطر فيما بعد الى الانسحاب من العاصمة بعد تحرج وضعه فيها . وفى يوليو التقى " المارشالان " تشانغ تسوه لين و وو بى فو فى بكين ، فأثارت هذه الحركة التفاؤل بين أفراد " فئة العودة الى القصر " ودفعتهم الى ابداء نشاط كبير . وقد ذهب تشن باو تشن الى بكين ليرى بعض معارفه ورئيس الوزراء الجديد ، بينما ارسل كانغ يو وى ، أحد اصلاحيي ١٨٩٨ ، برقيات الى تشانغ تسوه لين و وو بى فو وتشانغ تسونغ تشانغ وغيرهم يدعوهم الى اعادة بنود المعاملة التفضيلية . وكتب كذلك رسالة طويلة الى وو بى فو عدد فيها " مآثر وفضائل " أسرة تشينغ وحثه على السعى لاعادتها الى السلطة .

ولكن هذه كانت فى الواقع الأيام الأخيرة لأمراء الحرب التابعين لعصبة بيبانغ . ومع ان جميع أمراء الحرب الشماليين كانوا قد بدأوا بالتعاون فيما بينهم وعين تشانغ تسوه لين نفسه قائد " جيش التهدئة " ، الا ان الحملة الشمالية التي ولدت من التعاون بين الكومينتانغ والحزب الشيوعى كانت قد اخذت عام ١٩٢٥ بضرب قوات أمراء الحرب الشماليين ، فلم تترك لهم مجالا للتفكير فى بنود المعاملة التفضيلية . وكذلك لم تثمر نشاطات تشن باو تشن شيئا ، بينما رد وو بى فو على رسالة كانغ يو وى ردا مقتضبا منافقا : " ان ولاءك ثابت لا يتغير كالحجر والمعدن ، ولكن اذا ارتفعت نبرة الغناء ارتفاعا مفرطا فلا أحد يستطيع الاشتراك فيه " . وبعد سنة من ذلك مات كانغ يو وى خائبا فى تشينغداو .

ومع تلاشى جميع الآمال فى العودة الى القصر يئس تشن باو تشن وزمرته وأصبح لوه تشن يوى أكثر نشاطا . وفى مارس ١٩٢٦ ، الفترة التى جعلنى فيها اقتراب جيش الحملة الشمالية فى غاية القلق ، أرسل الي النبيل المانشوى

بو وى رسولا من مدينة ليوشون التى كانت فى قبضة اليابانيين بمذكرة لي ورسالة الى لوه تشن يوى قال فيهما انه على علاقة حميمة بالموظفين اليابانيين وانه يتمنى لو انتقل الى ليوشون حيث سأكون " أولا فى مأمن من الخطر ثم يمكن وضع خطط بعيدة المدى . . . على المرء ان يؤمن اقامة مستقرة قبل رحيله الى الخارج " . وسمعت كثيرا من الثرثرة حول لوه تشن يوى لم تساعدنى على الثقة به تماما ، ولكننى خرجت بانطباع جيد عن بو وى . فبعد وقت قصير من وصولي الى تيانجين جاء هو من ليوشون ليرانى ، وقد هزنى من الأعماق بملاحظته التالية : " لن تفنى أسرة تشينغ العظيمة ما دمت حيا ! " ولذلك كان طبيعيا ان تحركنى مذكرته التى تنصحنى بالذهاب الى ليوشون ، وتضاءل شكي فى لوه تشن يوى لأن بو وى اختاره ناطقا باسمه .

وعندما استولى جيش الحملة الشمالية على ووتشانغ عام ١٩٢٦ وتضعضعت جبهة أمراء الحرب الشماليين بكاملها ، أخبرنى لوه تشن يوى ان الجيش الثورى عبارة عن " فيضانات مدمرة ووحوش مفترسة " و" قتلة وحراقين " ، وانى اذا وقعت فى أيديهم فلن يكون هناك أمل فى بقائى حيا . فقررت ان أذهب معه الى ميناء داليان الذى يحتله اليابانيون ، ولكننى غيرت رأيى بناء على نصيحة تشن باو تشن . فقد سمع تشن من المفوضية اليابانية ان الوضع ليس سيئا كما يقال ، وهو ما بدا واضحا فيما بعد مع وصول الاخبار عن التطهيرات التى قام بها الكومينتانغ ضد الشيوعيين الذين قام تشيانغ كاى شيك بتذبيحهم قائلا انهم " فيضانات مدمرة ووحوش مفترسة " . وفى نفس الوقت تقريبا تلقينا تقارير عن قصف البحرية البريطانية لنانجينغ وعن تحركات القوات اليابانية فى شاندونغ لاعتراض تقدم القوات الجنوبية نحو الشمال . وهذا كله أعطانى المزيد من الثقة فى الموقف الراسخ لتشن باو تشن ومجموعته وجعلنى أتأكد من ان الوضع ليس خطيرا كما استنتج لوه تشن يوى وغيره ، حيث بدا واضحا ان تشيانغ كاى شيك كان جبانا امام الأجانب ، شأنه

شأن يوان شى كاى ودوان تشى روى وشانغ تسوه لين وأمثالهم . وأقمت فى منطقة الامتيازات الأجنبية آمنا كعهدى من قبل .

وبالطبع لم يختلف انصار " العودة الى القصر " وانصار " ذهابى الى الخارج " فى أملهم النهائى فى اعادة الملكية . وبعد ان رأى تشن باو تشن وزمرته ان آمالهم فى العودة الى القصر قد خابت انقلبوا الى فكرتهم السابقة بأن " أعيش مغمورا وأنتظر فرصتى " . ولكنهم فى مسألة التحالف مع اليابان لم يكونوا معارضين حقا لزمرة لوه تشن يوى . وذهب تشن باو تشن نفسه الى التسليم بانه اذا لم يكن هناك من خيار غير ذهابى الى الخارج ، فان المشكلة الوحيدة هى اختيار الناس الصالحين لمرافقتى .

أما كبار الموظفين السابقين فى أسرة تشينغ فهم الذين عارضوا فكرة ذهابى الى الخارج معارضة صلبة من بين قليلين جدا على ما أذكر . وقد قال أحدهم " ان اليابان مهتمة بمصالحها فقط وغير قادرة على التفرغ لقضية اعادة الملكية " . وكان هؤلاء يعتقدون بأن اعادة الملكية لا يمكن ان تتم الا على أيدى كبار الموظفين السابقين فى أسرة تشينغ ، وقد ودوا لو يطرد لوه من صفوفهم.

ولم يكن النزاع بين هاتين الفئتين صراعا على المقترحات والوسائل وانما هو عراك بين الأفراد . فالى جانب المذكرات المقترحة والنقاشات كان هناك صراع سرى عنيف لكسبى الى جانبهم . وقد استخدم لوه تشن يوى كثيرا من الحيل البارعة ، الا انه خسر فى السجال .

جاءنى ذات يوم الى حجرة المقابلات الصغيرة حاملا صرة طويلة رقيقة ملفوفة بقماش ، وقال :

— ان تابعك يستحق الموت لازعاجه القلب السماوى الى هذا الحد . فلو كان علي التجاوز عن اخطاء الغير بسبب الصداقة لكنت عديم الولاء والاستقامة .

فسألته :

ـــ عم تتحدث ؟

ثم نظرت اليه فى حيرة ، وراقبته وهو يفتح الصرة ببطء وترو مثل خصى عجوز يغسل وجهه ويسرح شعره . وكان فى الصرة لفيفتان بسطهما دون تعجل وتبين ، قبل ان ينتهى من نشرهما أنهما مقطع شعرى كتبته فى الثناء على تشن باو تشن .

ـ لقد وجد تابعك هاتين اللفيفتين المكتوبتين بالفرشاة الامبراطورية فى السوق ، وبتوفيق كبير تمكنت من اعادتهما .

ولم أكن أعرف فى ذلك الوقت ان لوه تشن يوى وأصدقاءه كانوا غارقين فى أعمال ماكرة كشراء خدم منافسيهم ، ولذلك اعتقدت حقا ان تشن باو تشن لم يحترم " الهبة الكريمة " للامبراطور فسمح بأن تباع بعض تخطيطاتى فى السوق . وغضبت غضبا شديدا لم أعرف معه ماذا أقول . ولوحت الى لوه بالانصراف حالا .

كان تشن باو تشن حينذاك فى بكين ، وعندما سمع صديقه هو سه يوان بهذا الأمر أصر على انه لا يمكن أن يرتكب غلطة كهذه . كما لم يصدق ان خادما من خدم تشن يجرؤ على سرقة اللفيفتين لبيعهما فى السوق . وقال انه لمن الأكثر احتمالا ان يكون احد خدام تشن سرقهما ليبيعهما . وكيف وصلتا الى يد لوه تشن يوى ؟ هذه كانت أسئلة لم يجب هو سه يوان عنها . وعندما الححت عليه حدثنى فقط بقصة وزير لأحد أسلافى من الأباطرة لم يرغب فى التكلم مع الامبراطور بصراحة حول القيام برحلة لم يحبذها الوزير لان الامبراطور كان مريضا من جهة ولانه من جهة اخرى كان لا يثق بأعوانه . واكتفى الوزير بأن نصح الامبراطور بعدم السفر ولم يذكر الأسباب . ثم ظهر ان رأى الوزير كان سليما حيث مات امبراطور فى أثناء الرحلة .

فسألته :

— ماذا تعنى بهذه القصة ؟ وما علاقتها بتشن باو تشن ؟
— ان تابعك يشير الى تشن باو تشن . ان لديه شيئا يقوله ولكنه لن يقوله حرفيا .

ولم استطع صبرا ، فطلبت منه ان يطرق الموضوع مباشرة ، ولكنه اكتفى بالقول بأن تشن تابع مخلص واننى ذكى بما فيه الكفاية لأستخلص مغزى هذه القصة بنفسى . ومع اننى لم أفهمها جيدا ، الا اننى ارتحت لسماع هو سه يوان يثنى على تشن باو تشن ، وزال عنى ذلك الاستياء الذى أحدثه موضوع اللفيفتين . وعلى اى حال فبعد سلسلة من الهزائم انتقل لوه تشن يوى أخيرا الى ليوشون فى نهاية عام ١٩٢٨ ليزاول عملا آخر .

ولنغير الحديث عن نزاعات الموظفين فى أسرة تشينغ الى الحديث عن سبب بقائى فى تيانجين وعدم سفرى الى الخارج : انها الآمال التى عقدتها على أمراء الحرب .

علاقاتى بقادة زمرة فنغتيان

كنت قادرا على التعاون مع أكبر عدد من أمراء الحرب خلال سنواتى السبع فى تيانجين . وكان لكل منهم اوهامه بشأن قضيتى . ووبى فو سمى نفسه " تابعى " فى احدى رسائله ، وتشانغ تسوه لين سجد لي ، ودوان تشى روى طلب مقابلة معى بمبادرة منه . لكن أمراء الحرب الذين عقدت عليهم أعز الآمال هم زمرة فنغتيان الذين أقمت معهم أوثق العلاقات وأطولها زمنا ، منذ ان سجد لي تشانغ تسوه لين .

حدث هذا حين جاء والد زوجتى رونغ يوان فى يوم من أيام يونيو عام ١٩٢٥ ليخبرنى فى فرحة غامرة بأن تشانغ تسوه لين قد أرسل مبعوثا موثوقا به ليعطينى ١٠٠ ألف يوان ومعه رسالة يأمل فيها تشانغ ان يتمكن من مقابلتى

فى البيت الذى يقيم فيه . فعارض تشن باو تشن هذا الأمر حالما سمع به ، وقال انه لايجوز أبدا ان يذهب الامبراطور لزيارة ضابط جمهورى، لاسيما ان المكان المقترح يقع خارج منطقة الامتيازات الأجنبية . ووافقت أنا على ان هذا سيكون مدعاة للاذلال والخطر ، ولذلك رفضت . وأدهشنى ان رونغ يوان جلب مبعوث تشانغ تسوه لين ثانية فى الليلة التالية ، وقال ان تشانغ ينتظرنى فى بيته وانه لن ينالنى خطر داخل الأراضى الصينية ، وانه من غير الملائم له ان يدخل منطقة الامتيازات الأجنبية ، وهذا هو السبب فى تكرار دعوته لي الى الذهاب لرؤيته . وركز رونغ يوان مرارا على ولاء تشانغ تسوه لين ، وتذكرت الاهتمام الذى أظهره لي مؤخرا وما بلغت به عندما كنت مقيما فى القصر من ان تعاطف تشانغ تسوه لين مع أسرة تشينغ يأتى فى الدرجة الثانية بعد تعاطف تشانغ شيون . فركبت سيارة وتوجهت اليه دون ان أخبر أحدا .

فى ذلك المساء من أوائل الصيف كانت مغامرتى الاولى فى الخروج من منطقة الامتيازات اليابانية . وعندما وصلت الى حديقة أسرة تشاو حيث كان تشانغ تسوه لين يقيم ، رأيت حرس شرف غريبا متكونا من جنود يلبسون بزات رمادية ويمسكون حرابا وسيوفا وبنادق حديثة ويصفون عند البوابة الرئيسية . وقد مرت السيارة من بينهم الى داخل الحديقة .

وعندما خرجت من السيارة أخذت الى قاعة شديدة الانارة ، حيث رأيت رجلا قصيرا بشارب ، يلبس ثيابا مدنية ويقبل نحوى . وعرفت حالا انه تشانغ تسوه لين . ولم أعرف كيف ينبغى لي ان أحييه اذ كانت تلك هى المرة الأولى التى أخرج فيها لزيارة شخصية جمهورية هامة ، ورونغ يوان لم يقدم لي أية توجيهات . ولكننى ذهلت حين جثا أمامى من غير أدنى تردد وسجد سائلا :

— كيف صحة جلالتكم ؟

فقلت :

ـــ كيف حالك أيها المشير ؟

وخففت الى مساعدته على النهوض ، ومشينا معا الى داخل قاعة الاستقبال . ورفع ذلك من معنوياتي وجعلنى متشكرا لأنه خفف من شعورى بعدم الارتياح الناتج عن تصاغر هيبتي بمجيئي لرؤيته . وما جعلنى أكثر ارتياحا هو بالطبع اكتشافى ان هذا الرجل البالغ الأهمية لم ينس الماضى .

كانت القاعة مؤثثة على نحو فاخر بمناضد وكراسى من الخشب الصلب ، وأرائك غربية الطراز وحاجز زجاجي ولكنها غير منسجمة مع الذوق الصينى . وجلسنا حول مائدة مستديرة ، وبدأ تشانغ تسوه لين يتحدث وهو يدخن سيجارة بعد أخرى . ولم يكد يفتح فمه بالحديث حتى شرع يشتم فنغ يوى شيانغ على اخراجه اياى من المدينة المحرمة بالقوة لكى يستولى على كنوز القصر . وقال انه هو نفسه من ناحية أخرى شديد الاهتمام بصيانة حضارة الصين القديمة وكنوزها الأثرية ، وانه اعتنى بصيانة قصر تشينغ فى فنغتيان عناية جيدة ، وانه اراد ان يخطط لأخذ المجموعة الكاملة الشهيرة من كتب المكتبات الأربع (٢٨) من بكين ليحفظها بكاملها . وقال بلهجة تأنيبية انه كان ينبغى لي ألا أهرب الى المفوضية اليابانية بعد ان وصل هو الى بكين بجنوده اذ كان يستطيع ان يضمن سلامتى . وسألنى عن حياتى منذ خروجي من القصر ، وطلب منى ان أخبره بأى شىء أريده .

فقلت له اننى كنت مدركا لمدى تفكيره بى ، ولكننى كنت مجبرا على الهرب الى المفوضية اليابانية لأن رجال فنغ يوى شيانغ كانوا ما يزالون فى بكين فى ذلك الوقت . وذكرت له اننى أعرف منذ وقت طويل مدى العناية الفائقة بالقصور الامبراطورية والأضرحة فى فنغتيان ، واننى كذلك أفهم مشاعره .

ـــ اذا كان جلالتكم راغبا فى المجىء الى فنغتيان والاقامة فى القصر هناك ، فسيكون من الممكن لي ترتيب هذا الأمر .

– أيها المشير تشانغ ، انك فى غاية اللطف .

ولكن المشير غير الموضوع الى الحديث عن حياتى اليومية وقال :

– اذا اردتم اى شيء فى المستقبل فاكتبوا لي .

وكان الشيء الوحيد الذى ينقصني هو العرش ، ولكنني لا أستطيع قول ذلك علنا .

وخلال محادثتنا كنا وحيدين فى القاعة ماعدا بعض الذباب الذى لم أكن أراه فى مثل هذا الوقت فى منطقة الامتيازات .

ودخل ضابط كبير بعد قليل وقال :

– رئيس الأركان يريد ان يراكم يا سيدى .

فلوح تشانغ تسوه لين بيده وقال :

– ليس هناك ما يدعو الى العجلة ، أطلب منه ان ينتظر لحظة .

فنهضت فى الحال وقلت اننى سأغادر لأنه مشغول جدا . فأجاب فورا : "ليس هناك أمر مستعجل ، ليس هناك أمر مستعجل" . ولمحت وجه امرأة خلف الحاجز الزجاجي (فيما بعد سمعت انها حظيته الخامسة) ، وشعرت انه لابد ان يكون فى عجلة من الأمر ، فاستأذنت ثانية ، ولم يحاول هذه المرة ان يستبقيني .

كل مرة كنت أخرج فيها كان يصحبنى أحد رجال البوليس السرى اليابانى الذين كانوا متمركزين فى حديقة تشانغ . وهذا المساء لم يكن استثناء . ولم أكن متأكدا من ان تشانغ تسوه لين لن يلاحظه واقفا بجانب سيارتى ، وفيما كان يودعنى قال بصوت عال :

– اذا ما اعترضك هؤلاء اليابانيون بأدنى ازعاج ، فأخبرنى وسأواجههم بكل وسيلة .

ومشت بنا السيارة مارة بحرس الشرف الى منطقة الامتيازات . وفى اليوم التالى جاء القنصل اليابانى ليقدم لي تحذيرا :

ـ اذا قام جلالتكم برحلة أخرى الى الأراضى الصينية ، فان الحكومة اليابانية لن تعود قادرة على ضمان أمنكم !

رغم ادعاء تشانغ تسوه لين بأنه يعرف كيف يتعامل مع اليابانيين ورغم احتجاج القنصل ، فقد كان من المعروف لدى الجميع فى ذلك الوقت انه كانت هناك روابط بين اليابانيين وتشانغ تسوه لين ، وانه لو لا الذخيرة التى يتزود بها تشانغ من اليابان لما كان قادرا على الاحتفاظ بجيش كبير كجيشه . لذا فان الآمال التى نتجت عن هذا اللقاء لم تضعف بهذا الاحتجاج او باعتراضات تشن باو تشن وجماعته .

عندما جاءت حكومة تاناكا الى السلطة فى اليابان عام ١٩٢٧ ، تعززت آمالى باعادة الملكية . فرئيس هذه الحكومة معروف بمخططاته التوسعية فى شرقى آسيا وغيرها . وقد اولى اهتماما خاصا بشمال شرقى الصين ، الجزء الذى اعتبره هو مختلفا تماما عن الأجزاء الأخرى من البلاد . وقد اعطت هذه الحكومة الدليل على الاستعداد للتدخل العسكرى لحماية مصالح اليابان .

وقد كسب تشانغ تسوه لين دعم وزارة تاناكا فصار زعيما لأمراء الحرب فى شمالى الصين وقائد عام لجيش التهدئة ، وعندما تقدمت قوات تشيانغ كاى شيك شمالا تقدم الجنود اليابانيون الذين كانوا " يحمون المصالح الشرعية " لليابان فى الشمال الشرقى ومنغوليا الداخلية الى الجنوب حتى جينان ، مجتازين مئات الأميال حيث قاموا بمذبحة جينان الكبرى . وأصدر القائد اليابانى أوكامورا انذارا الى تشيانغ كاى شيك (ارسل لي ضابط ركن الحامية اليابانية فى تيانجين نسخة من هذا الانذار دليلا على الاهتمام الذى يحيطنى به) . فقام تشيانغ كاى شيك المتحمس لكسب عطف الامبريالية ، والذى كانت يده ماتزال ملطخة بدماء الشيوعيين والعمال والطلبة الذين ذبحهم منذ خان الثورة فى ١٢ أبريل ١٩٢٧ ، قام بالانسحاب الذليل من جينان لدى تسلمه هذا الانذار ومنع الشعب من القيام بأى نشاط معادى لليابانيين .

فى ذلك الوقت كانت علاقتى بأمراء الحرب فى فنغتيان تزداد متانة ، وكنا نتبادل الزيارات علنا بعد مقابلتى لتشانغ تسوه لين . وكان قهرمان والدى الذى له كثير من الاخوان بالمؤاخاة بين آمرى زمرة فنغتيان احد الذين قدموا لي هؤلاء الضباط . وكانت اصول المقابلات فى حديقة تشانغ قد تغيرت عما هي فى المدينة المحرمة : فهم لم يسجدوا لى وأنا لم أمنحهم الحق بركوب الخيل او بأن يحملوا فى محفة داخل البلاط ، وانما ينحنون لي أو يصافحوننى ، ومنذ ذلك الحين ونحن نتصرف بصفة أنداد ، ولم أتبع فى الكتابة اليهم لغة الاباطرة . وكانت درجة العلاقة بينى وبين اى منهم تتحدد على اساس موقفه من اعادة الملكية .

كان أحد ضباط فنغتيان ممن عقدت عليه أكبر الآمال هو تشانغ تسونغ تشانغ . وقد التقيت به فى تيانجين وكان رجلا متين البنية فوق الأربعين من عمره تعلو وجهه المنتفخ زرقة الأفيون . وكان قد بدأ حياته متشردا فى ينغكو واشتغل فى وكر للقمار وهو لايزال غلاما حيث أمضى وقته مع المحتالين والمتشردين والمقامرين . وبعد فترة قضاها قاطع طريق فى الشمال الشرقى ذهب الى ميناء فالديفوستوك الروسى وصار شرطيا سريا خاصا لغرفة التجارة الصينية . ولما كان يبدد نقوده على من حوله بسخاء ويجيد بناء علاقاته بالآخرين ، فقد أصبح شخصا قياديا فى عالم فالديفوستوك السفلى وذلك بالتعاون الوثيق مع الشرطة العسكرية القيصرية . وأدار الكثير من المواخير و اوكار القمار ومباءات الأفيون . وبعد انتفاضة ووتشانغ عام ١٩١١ ارسل ثوار الجنوب مبعوثين الى اقليم الحدود الصينية الروسية قاموا باقناع قاطع طريق محلى يدعى " الرصاصة ليو " بالانضمام اليهم مع رجاله ، وحولوهم الى فوج فرسان تحت قيادة ليو . وكان تشانغ تسونغ تشانغ وسيطا فى هذه الصفقة فرافقهم الى شانغهاى واستطاع ان يصبح آمر فوج فى الجيش الثورى ووضع " الرصاصة ليو" تحت امرته بصفة قائد كتيبة . ومع اندلاع " الثورة الثانية " (محاولة الاطاحة بيوان شى كاى

عام ١٩١٣) انتقل تشانغ الى جانب المعادين للثورة وحظى باعجاب فنغ قوه تشانغ أمير الحرب فى عصبة بييانغ لما قام به من تقتيل الثوار ، وعين رئيسا لكتيبة حرس فنغ قوه تشانغ . وفيما بعد ارتقى بمختلف الاساليب الى قيادة الفرقة الحادية عشرة .

وبعد هزيمته فى جيانغسو وآنهوى هرب الى الشمال الشرقى حيث انضم الى تشانغ تسوه لين وتسلم امرة فوج . ومع ازدهار أحوال جيش فنغتيان ارتقى الى قائد فرقة ثم الى قائد جيش ، فالى مفوض للشؤون العسكرية فى شاندونغ والى قائد عام لحملة ابادة قطاع الطرق فى جيانغسو وآنهوى وشاندونغ . واستمر بعدها ليصبح قائدا لجيوش تشيلى وشاندونغ المتحالفة ، ذلك المركز الذى جعل منه اشبه بامبراطور محلى . وبسبب دناءة منشئه أعطته الصحافة الجنوبية لقب " الضابط ابو لحم الكلب " ، كما لقب فيما بعد " الضابط الطويل الساقين " لانه اشتهر بسرعة فراره من المعركة بمجرد ان يشم رائحة الخسارة .

وفى أبريل ١٩٢٨ هرب الى اليابان بعد انهيار جيشه امام هجوم — كماشة على نهر لوان فى مقاطعة خبى شنه تشيانغ كاى شيك وتشانغ شيويه ليانغ ابن تشانغ تسوه لين . ثم عاد الى شاندونغ عام ١٩٣٢ بحجة زيارة قبور اسلافه ، وقام سرا باقناع ضابط محلى بالتمرد ، على أمل ان يصبح قادرا على استخدام جنده لاعادة حكمه فى شاندونغ . لكنه قتل فى سبتمبر بتدبير من حاكم شاندونغ . وقد تركت جثته فى العراء ، اذ لم يجد غلامه أحدا يرغب فى نقلها مقابل أى ثمن ، كما رفض النجارون عمل تابوت له ، مما اضطر سلطات المقاطعة التى دبرت مقتله الى ان تدفن جثته على حسابها .

هذا الوحشى الذى انتهى مثل هذه النهاية المخزية رحبت به كضيف كريم فى حديقة تشانغ وأصبح رجلا عقدت عليه أكبر آمالي . وكان قد زارنى متنكرا عندما كنت مقيما فى القصر الشمالى ببكين . وبعد ان انتقلت الى تيانجين أخذ يأتى لزيارتى كلما حضر الى المدينة . وكان يزورنى فى نصف الليل

لانه ينام فى النهار ولا يأتينى الا بعد أن يدخن الأفيون فى المساء . حيث يصبح بعد ذلك منشرح الأسارير ويتحدث ساعات طويلة حديثا كله ثرثرة فارغة .

عام ١٩٢٦ شنت قوات تشانغ تسوه لين و وو بى فو هجوما مشتركا ضد فنغ يوى شيانغ حيث دارت معركة حامية فى نانكو فى الشمال الغربى من بكين . وكانت الوحدات الأولى التى تحتل نانكو بعد انسحاب فنغ يوى شيانغ هى وحدات تشانغ تسونغ تشانغ . ولدى سماعى بنجاح تشانغ تسونغ تشانغ بعثت اليه برسالة تهنئة على انتصاره على " الحمر " وتخليص الصين من " الشيوعية " .

ولم أنتظر تقارير الصحف لأسمع بانتصار تشانغ تسونغ تشانغ حيث كانت لي مخابراتى الخاصة . كان هناك أناس يجمعون لي المعلومات وآخرون يترجمون لي الصحف الأجنبية . وعندما علمت من الصحف الصينية والأجنبية ومن تقارير مخابراتى الخاصة بانتصار تشانغ تسونغ تشانغ وبنفوذه المتزايد طرت من الفرح . ورجوت ان يصبح انتصار تشانغ تسونغ تشانغ كاملا ويضع بذلك أسس اعادة الملكية . ولكن هذا الضابط " ابو لحم الكلب " لم يكن يتحدث عما فكرت فيه على نحو واضح ايام صعوده الا بعد ان أصبح يعرف بـ " الضابط الطويل الساقين " .

عام ١٩٢٨ شن تشيانغ كاى شيك وفنغ يوى شيانغ ويان شى شان (أمير الحرب الحاكم فى مقاطعة شانشى) هجوما منسقا فى شمالى الصين . واستطاعوا ، بعد تحاشى الجنود اليابانيين الذين كانوا يساعدون تشانغ تسونغ تشانغ على امتداد سكة حديد تيانجين — بوكو ، ابتلاع قاعدة شاندونغ التابعة لتشانغ تسونغ تشانغ وأجبروه على الهرب الى الشمال الشرقى . وفى هذا الوقت قتل تشانغ تسوه لين على يد اليابانيين فى أحد الانفجارات ، ورفض ابنه تشانغ شيويه ليانغ " المشير الشاب " السماح لتشانغ تسونغ تشانغ بالمروربالطرق المؤدية الى الشمال الشرقى .

وأصبح جنود تشانغ تسونغ تشانغ فى وضع يائس بمنطقة لوتاى — لوانتشو حيث كانوا عرضة لهجوم من اتجاهين ، وكانت النكبة عظيمة . وفى ذلك الوقت جاء ضابط ركن لدى تشانغ ليرانى ، ومعه رسالة منه تباهى فيها بكثرة ما لديه من الجند والمدفعية ، وادعى انه لن يعانى أية صعوبة فى استعادة بكين وتيانجين . وتابع يقول ان تدريب جيوش جديدة يتكلف مليونين وخمسمائة الف يوان شهريا . " اننى أرجو بكل تواضع انكم فى حكمتكم ستمنحوننى شيئا ، فتمكنون بذلك جنديكم المتواضع من ان يعرف ان لديه ما يستطيع الاعتماد عليه . " وقد أكد الضابط الذى جلب هذه الرسالة ان تشانغ تسونغ تشانغ على وشك الانتصار وان كل ما يحتاج اليه هو بعض الدعم منى .

عندما سمع تشن باو تشن وهو سه يوان باننى أفكر فى تبديد اموال اضافية جاءا ونصحانى بالعدول عن ذلك ، فانتهيت الى ارسالى بمجرد أمر وعظى بتشجيعه . وبعد ذلك مباشرة حدث الانهيار التام لتشانغ تسونغ تشانغ وهرب الى اليابان . وصار كلما ابتعد عنى كثرت رسائله الي وكانت رسائله الغاصة بتعابير الولاء لبيت تشينغ تنتهى دائما بطلب المال . لكننى عملت برجاء تشن باو تشن وتوقفت عن اعطائه الاموال او الكتابة اليه . ومع ذلك بقيت أشعر بالامتنان الى زمرة فنغتيان مع ان تشانغ تسوه لين قد مات .

كان معروفا لدى الجميع ان تشانغ تسوه لين قد قتل على يد اليابانيين . وقد سمعت فيها بعد ان السبب فى قتلهم اياه انه اصبح أقل فأقل اطاعة ، وهذا بسبب وقوعه تحت تأثير ابنه " المشير الشاب " تشانغ شيويه ليانغ الذى أراد ان يقطع العلاقة باليابان ويصادق أمريكا . وبسبب هذا قال اليابانيون انه " ناكر للجميل وغير ودى " .

وقد سمعت فيما بعد وصفا لمقتل تشانغ من مجرم الحرب اليابانى العقيد كاواموتو الذى اشترك فى المؤامرة حيث اعترف انه امر عناصر جيش قواندونغ اليابانى بترتيب المكان الذى سيلقى فيه تشانغ مصرعه — وهو محطة

القطار فى هوانغقوتون عند ملتقى خط بكين - فنغتيان وخطوط مانشوريا الجنوبية وقال : " دفنا ثلاثين كيسا من المتفجرات الشديدة عند الملتقى ، وركبنا معدات كهربائية فى برج مراقبة على بعد ٥٠٠ متر تقريبا ، ووضعنا جهاز تغيير الخط الحديدى فى شمال الملتقى ، كما أخفينا فصيلة صدامية هناك ، وفى الساعة الخامسة والنصف من يوم ٤ يونيو ١٩٢٨ وصل قطار تشانغ تسوه لين المدرع الأزرق . فضغط الزر ودمر تشانغ والقطار معا " . ولاخفاء الحقيقة ارسل جيش قواندونغ على الفور جنودا وعمالا لاصلاح الخط المتعطل ، وقتلوا اثنين من الصينيين وضعوا جثتيهما فى مكان الحادثة بعد ان حشوا جيوبهما برسائل ووثائق مزيفة من جيش الحملة الشمالية وألقوا القبض كذلك على عشرة من السكان الأبرياء قائلين ان كل ما جرى كان من تخطيط جيش الحملة الشمالية . وقال كاواموتو : " لقد وضعنا جميع أمراء الحرب الموالين لليابانيين تحت رقابة مشددة . فعندما يكونون نافعين لنا نساعدهم ، وعندما لا يكون اى نفع لنا فيهم فاننا نجد وسائل لابادتهم . "

ومع ان مصرع تشانغ تسوه لين قد أجفلنى وان بعض كبار موظفى أسرة تشينغ السابقين حاول ان يجعل منه انذارا لي ، الا اننى تجاهلت نصيحتهم لاننى أعتبر نفسى مختلفا عن تشانغ تسوه لين . لقد كان مجرد قائد عسكرى ، يمكن لليابانيين ان يجدوا آخرين يحلون محله . اما انا فكنت امبراطورا ، ولا يستطيع اليابانيون ان يجدوا امبراطورا آخر فى الصين كلها . وعرض أفراد حاشيتى الرأى التالى : " ان الناس فى الشمال الشرقى يكرهون اليابانيين من صميم قلوبهم ، واليابانيون يحاولون منع تشانغ شيويه ليانغ من التعاون مع الكومينتانغ . هم أقوياء الى الحد الذى يمكنهم من الاستيلاء على الشمال الشرقى بالقوة ، ولكنهم عاجزون عن ادارة هذا الاقليم ، ومن دون وجود جلالتكم على العرش سيجدون من الصعب جدا انجاز أى شيء " . واقتنعت تماما بأن اليابان تعرف هذه الحقيقة ، وبنيت سياستى على هذا الافتراض :

اذا أردت الاعتماد على قوة اليابان فعلي أولا ان استميل قلوب الناس فى الشمال الشرقى . لذلك بحثت عن الرؤساء العسكريين السابقين لدى تشانغ تسوه لين الذين يمكن ان استخدمهم فى نشاطاتى لاعادة الملكية . وكان الرجل الذى عمل باسمى بين قادة زمرة فنغتيان هو شانغ يان ينغ ، وهو من كبار الأعوان انحدر من عائلة مانشوية وكان مركزه فى قوانغدونغ ، وكان عضوا فى أكاديمية هانلين ، ثم أصبح عضوا فى جمعية الصليب الأحمر فى الشمال الشرقى . ولما كان تشانغ شيويه ليانغ قد أبدى بكل وضوح رغبته فى التعاون مع تشيانغ كاى شيك ، فقد اضطر شانغ يان ينغ الى العمل بأقصى السرية ، ولم تعد نشاطاته تأتى بأية ثمار .

سيميونوف و"تشوقه ليانغ الثانى" (٢٩)

لا أستطيع ان أتذكر كم أنفقت من الاموال او اليشب او اللآلىء والمجوهرات لكسب صداقة العسكريين وشرائهم ، ولكننى أعرف تماما ان الذى ظفر بأكبر قدر منها هو الروسى الابيض سيميونوف .

كان سيميونوف جنرالا قيصريا قاد بقايا جنده الى المناطق الحدودية الصينية فى الشمال الشرقى ومنغوليا الداخلية بعد هزيمته على يد الجيش الأحمر السوفياتى ، حيث قاموا بالسلب والاغتصاب والاحراق وكل ما يخطر على البال من الأعمال الشريرة . وحاولوا مرة غزو جمهورية منغوليا الشعبية ، وبعد ان هزموا هزيمة منكرة حاولوا انشاء قاعدة على الحدود الصينية المنغولية فطردتهم القوات الصينية المتمركزة هناك . وقد تناقص عددهم حتى صاروا مع حاول عام ١٩٢٧ شرذمة من قطاع الطرق . اما سيميونوف فأخذ ينشط فى بكين وتيانجين وشانغهاى وليوشون وهونغ كونغ واليابان وغيرها من الأماكن ، بحثا عن نصير بين أمراء الحرب الصينيين والسياسيين الأجانب . وعندما لم يجد سوقا

لبضاعته أصبح مجرد محتال بسيط . ثم أسرته القوات السوفياتية بعد الحرب العالمية الثانية وحينما كنت انا سجينا فى الاتحاد السوفياتى وسمعت انه أعدم . وخلال سنواتى السبع فى تيانجين كنت على صلة دائما بهذا السفاك الذى قتل الكثير من الصينيين والسوفيات والمغول . وتلقى منى مبالغ ضخمة ، كما اننى عقدت عليه آمالا لا تحد .

عرفنى على سيميونوف وزكاه لي النبيل المغولى شنغ يون ولوه تشن يوى ، ولكن تشن باو تشن عارض لقائى معه فرفضت رؤيته . وفيما بعد قابل تشنغ شياو شيوى سيميونوف بواسطة لوه تشن يوى الذى اعتبره من أكثر الأعوان الأجانب كفاءة . وقد أشاد لي به وأوصانى بالمحالفة بينه وبين تشانغ تسونغ تشانغ (الضابط ابو لحم الكلب) وكنت حينذاك أعلق آمالى على تشانغ تسونغ تشانغ فوافقت على اقتراح تشنغ شياو شيوى . وبفضل نشاطات تشنغ شياو شيوى تلقى ابو لحم الكلب مرتزقة أجانب من سيميونوف واعدادا كبيرة من الجنود الروس البيض . وفيما بعد وقع الطرفان " اتفاق عسكرى صينى — روسى ضد البلاشفية " .

وبعد تشجيع وحث من تشنغ شياو شيوى قابلت سيميونوف فى حديقة تشانغ فى أكتوبر ١٩٢٥ . وقد سررت غاية السرور بتلك المقابلة واعتقدت ان هذا الرجل قادر على ان " ينجز أعمالا عظيمة فى مواجهته للصعوبات ، ويطيح بالشيوعية ويعيد الحكم القيصرى " ، وأعطيته ٥٠ ألف يوان لمساعدته فى نشاطاته . وقد التقط تشنغ شياو شيوى وسيميونوف وليو فنغ تشي وغيرهم صورة مشتركة لهم وتآخوا فيما بينهم على الولاء لبيت تشينغ .

كانت تلك الأيام تشهد موجة من النشاطات المعادية للسوفيات والشيوعيين اجتاحت العالم بعد هزيمة تدخل الأربع عشرة دولة ضد الاتحاد السوفياتى . وأذكر ان تشنغ شياو شيوى وسيميونوف أخبرانى بأن بريطانيا وأمريكا واليابان قد اتفقت على جعل جيش سيميونوف قوة صدامية ضد السوفيات وانه يجب

ان يدعم بالذخائر الحربية والاموال وان " الأسرة الامبراطورية الروسية " عقدت آمالا كبيرة عليه . وكان ممثلو القيصر على اتصال بتشنغ شياو شيوى ، ولكننى لا أستطيع ان أتذكر التفاصيل . وما أذكره تماما هو ان سيميونوف وضع خطة جمعتني معه على نحو وثيق : كان سيستخدم مؤيديه وجنده فى الشمال الشرقى ومنغوليا الداخلية لاقامة قاعدة " ضد الشيوعيين " على ان أتولى الحكم هنالك . وفتحت حسابا مصرفيا لسيميونوف لمساعدته على تغطية نفقات نشاطه ، وقد تولى تشنغ شياو شيوى تنظيم هذا الحساب وتزويد سيميونوف بالأموال كلما احتاج اليها . وأظن ان الوديعة المصرفية الأولى كانت ١٠ آلاف يوان .

وكان سيميونوف قد اوضح لي ذات مرة انه لا يحتاج للمال لانه سيتسلم ١٨٠ مليون روبل من اللاجئين السياسيين الروس البيض (فيما بعد رفع الرقم الى ٣٠٠ مليون) ، كما سيتلقى دعما ماليا من أمريكا وبريطانيا واليابان .

لكن طلباته على الاموال لم تتوقف متذرعا بأن " المبالغ الضخمة " لم تصل الى يديه بعد ، وكان فى كل مرة يمد يده الي يحدثنى عن مشروعه المذهل ، قال فى احدى المرات ان القائد العسكرى اليابانى فى تيانجين قد تفاهم مع تشانغ تسوه لين على السفر الى فنغتيان لمناقشة " الخطة الكبرى " ، ولكنه لم يجد لسوء الحظ سبيلا لتغطية نفقات سفره . وفى مرة أخرى قال ان القنصل السوفياتى فى شانغهاى أراد مقابلته بناء على تعليمات من رؤسائه للتفاهم معه على اتفاق تمنحه الحكومة السوفياتية بموجبه قسما من الشرق الأقصى لينشىء فيه حكما ذاتيا له ، وطلب منى مبلغا لسد تكاليف سفره الى طوكيو لاستقصاء هذا الأمر . وليس من المتيسر لي ان أحسب ما أخذه منى من الاموال ، ولكننى أذكر انه تلقى منى فى الأشهر الثلاثة التى سبقت " حادثة ١٨ سبتمبر" (٣٠) ٨٠٠ يوان .

كان من بين الوسطاء العديدين بينى وبين سيميونوف شخص يدعى

وانغ شي ادعى انه يتمتع بثقة سيميونوف المطلقة وانه على صلات وثيقة أيضا باليابانيين وأمراء الحرب الصينيين . وكنت أسمع منه دائما عبارات كهذه : " هذه أشد المراحل خطورة " ، " هذه هي الفرصة الأخيرة " ، " هذه اللحظة هي اللحظة الحاسمة التي لا تمر الا كل الف عام : هذه الفرصة يجب ألا تفوت " ، " لا تضيعوا هذه الفرصة — انها لن تعود ثانية قط " وهلم جرا . وكانت له القدرة على التحدث الي بحماس شديد . وقد دأب كذلك على كتابة مذكرات ملأها ببيانات عنيفة منها ان اليابانيين قرروا تجنيد ٨٠٠٠ كورى تحت قيادة سيميونوف مع تزويده بجميع الامدادات المالية ، وانه سيجند عشرة آلاف روسى أبيض بنفس الطريقة ، وان بريطانيا ستقطع علاقاتها بروسيا السوفياتية وتعطيه ٨٠ مليون يوان تودع فى مؤسسة هونغ كونغ وشانغهاى المصرفية . و" انهم ينتظرون فقط توثيق تقريره قبل تسليم الاموال . . . وان فرنسا وايطاليا تعطفان عليه أيضا وكلتاهما تريد ان تتعاون معه وان أمريكا سوف تقدم ٥ ملايين دولار اولا كما ستقدم مساعدة اخرى لتنظيم جيش دولى ضد الشيوعيين من المتطوعين فى مانشوريا ومنغوليا تحت قيادته ، لتدمير روسيا السوفياتية . "

ولما لم يكن تشنغ شياو شيوى فى حديقة تشانغ فى ذلك الوقت ، فان طلب وانغ شي لاجراء مقابلة شخصية معي لمناقشة خطته الجهنمية هذه قد لقى معارضة تشن باو تشن وهو سه يوان فلم يتمكن قط من دخول حديقة تشانغ .

كان هو سه يوان مسؤولا عن مكتبى فى تيانجين ، وكان هو الذى ينخل لي الناس والمذكرات ويحدد لي من يجب ان أراه وما سأقرأه . وقد اسندت اليه هذه المهمة لانني رأيت انه أمين . وكان قد بين لي ان مذكرات وانغ شى عبارة عن نسيج من الكذب ، فقبلت نصيحته ونصيحة تشن باو تشن بأن لا تكون لي علاقة بوانغ شى او أى مندوب آخر عن سيميونوف .

ولكن تشنغ شياو شيوى كلمنى حال عودته الى تيانجين فى دفع المزيد من الأموال الى " المرشدين الأجانب " ، ومن بينهم نمساوى وانكليزى . وكان النمساوى نبيلا سابقا تولى ادارة مكتب فى ادارة منطقة الامتيازات النمساوية فى تيانجين . وقال انه رجل بالغ الأهمية فى اوروبا ويمكنه ان يقدم لنا دعمه هناك ، فعينته مرشدا ، وأرسلته الى أوروبا ليعمل باسمى ، وأعطيته ١٨٠٠ يوان راتبا لستة أشهر . وكان الانكليزى صحفيا يدعى روس ، قال ان من الضرورى ان تكون لي جريدة تنطق بلساني ، وطلب منى ٢٠ الف يوان لانجاز هذا الهدف . فأعطيته ثلاثة آلاف ولكن الصحيفة توقفت بعد بضعة أيام .

تمكن كثير من الناس من النفاذ الى داخل حديقة تشانغ بحجة ان لهم صلات بالعسكريين او انهم يؤيدون اعادة الملكية ، وذلك على الرغم من محاولات هو سه يوان لابقائهم فى البوابة . ومنذ عام ١٩٢٦ وحشد وراء حشد من الضباط المهزومين والساسة الفاشلين يتدفقون على مناطق الامتيازات الاجنبية ، بينما ازداد عدد الداخلين فى حمايتى عما كان عليه سابقا .

من اجدر هؤلاء بالذكر هو ليو فنغ تشى ، " تشوقه ليانغ الثانى " الذى زكاه أحد معاونى تشانغ شيون قائلا انه " تشوقه ليانغ حديث " وانه استراتيجى من الدرجة الأولى ، وبوجوده الى جانبكم فان مشروع اعادة الملكية العظيم سينجح بالتأكيد . كان ليو فنغ تشى فى الأربعين من عمره تقريبا ، وعندما قابلته ادعى أولا انه رجل ذو مقدرة جبارة ، ثم طلب منى تحفا ولوحات وتخطيطات وساعات ذهبية يستطيع بواسطتها ان ينشىء صلات مع أرباب السلطة .

" ان اللفائف المكتوبة بخط جلالتكم لا تعنى شيئا بالنسبة لأناس من هذا النوع . " كانت هذه هى المرة الاولى التى أسمع فيها شيئا كهذا . ومع اننى شعرت بعدم الارتياح لهذا القول ، الا اننى أعجبت به لصراحته . لقد شعرت انه تجرأ على قول أشياء لا يقولها الآخرون ، وكلماته كانت صادقة

بالتأكيد . وكنت متساهلا معه غاية التساهل ، فسمحت له بأخذ اعداد كبيرة من أثمن الأشياء التى فى حوزتى . وفيما بعد حدد بالضبط ما أراد . فقد طلب لواحد من معاونى تشانغ تسوه لين مجوهرات بلغت قيمتها عشرة آلاف يوان . ولكى يكسب ثلاثة ضباط آخرين من زمرة فنغتيان أشار الى انه يجب ان يعطى كل منهم عشر لؤلؤات من لآلىء البلاط ، كما طلب لاحدهم الدرة التى كانت فى أعلى القبعة الامبراطورية . وكانت رسائله المتضمنة مثل هذه الطلبات تصلنى كل ثلاثة او خمسة أيام ، وكانت تغص بمثل هذه الجمل : " لكى يكسب المرء عبقريا حقيقيا يجب ان يكون سخيا . والبخل مطنة استصغار لصاحبه ، وعلى من يسعى الى هدف جليل ان لا يكون تفكيره ضيقا . "

ولو اننا أخذنا بهذه التقارير فان جميع ضباط زمرة فنغتيان تقريبا ، من رتبة قائد فيلق فما فوق (وبعض آمرى الأفواج أيضا) ورؤساء جمعية الرمح الأحمر الذين ينضوى تحت ألويتهم ٤٠٠ ألف رجل وابطال الغابات من قطاع الطرق يجب ان يتسلموا منى لآلىء وخزفيات اثرية والماسا ، ولكانوا جميعا قد أثيروا بافتقارى الى دقيق التفكير ، ولمكثوا ينتظرون فقط أمري لقيامهم بانتفاضة مسلحة ! ولكن مع انه لم يكن هناك حد لعدد الكنوز التى أخذها ليو فنغ تشى ، الا انه لم تظهر أية علامة على نشاط تلك القوات . وساعدتنى نصائح تشن باو تشن على الشك فى هذه الأمور ، وأصبحت أقل رغبة فى العطاء . لقد تعود " تشوقه ليانغ الثانى " ان يستخدم فى محادثاته ورسائله النقاط التالية : " لقد انفقت كذا وكذا مبلغا ، وهذا لا يشمل نفقات سفرى وضيافتى " ، و" اننى أجد صعوبة كبيرة فى دفع اى مبلغ بدلا منكم بعد ان أنفقت ثروة أسرتى كلها " ، و" الحالة ملحة وهذه هى الفرصة الحاسمة . يجب ان تعطينى ٢٠ ألف يوان مهما كلف الأمر " .

وأدركت ان فى الأمر ما يسوء ولذلك لم أرسل له بعدها أى مبلغ . وأخيرا كتب الي والدموع فى عينيه ، يطلب عشر يوانات فقط . ثم بلغنى

انه قتل برصاص جيش فنغتيان بسبب اعمال احتيال ونصب قام بها فى الشمال الشرقى .

كنت على مشارف حادثة ١٨ سبتمبر عندما اختفى آخر واحد من قبيلة " المرشدين " عن نظرى ، فبعد ذلك بوقت قصير اعترف جميع أمراء الحرب الشماليين بسلطة حكومة الكومينتانغ . وعندها لم يبق عندي أى وهم بشأنهم ، فتوجهت بآمالى الى مكان آخر .

حادثة المدفن الشرقى

كانت سنة ١٩٢٨ بالنسبة لي سنة انفعالات وصدمات .

فى تلك السنة أصدرت حكومة تاناكا اليابانية بلاغا بعدم السماح للقوات الصينية بالدخول الى " مانشوريا او منغوليا " واردفته بارسال قوات الى جينان لاعتراض زحف قوات الكومينتانغ شمالا . ولاذت بالفرار جيوش تشانغ تسوه لين و وو بى فو وتشانغ تسونغ تشانغ ، أمراء الحرب الذين كنت على صلة بهم ، بعد ان لحقت بها سلسلة من الهزائم . وفيما كان عملائى يرسلون الي أخبارا طيبة مثيرة عن الطريقة التى يكسبون بها دعم أمراء الحرب ، كنت غالبا ما أقرأ فى الصحف ان واحدا او أكثر من هؤلاء العسكريين الموالين قد نفى أو قتل .

وسمعت ان كلا من حكومتى الشمال والجنوب فى الصين قد قطعت العلاقة بالاتحاد السوفياتى ، كما فعلت بريطانيا ، وان الكومينتانغ كان يقوم بحملة تطهير كبيرة فى صفوف الحزب . وبدا ان التهديد الذى كنت عرضة له من " الفيضانات المدمرة والوحوش المفترسة " الذين حدثنى عنهم تشنغ شياو شيوى وتشن باو تشن قد أصبح ضئيلا . ولكن هؤلاء أنفسهم أخبرونى أننى فى خطر شديد وان خصومى ينشطون فى كل مكان كما قرأت فى الصحف ان

هناك انتفاضة فى قوانغدونغ ، وفى تلك الأثناء تحالف فنغ يوى شيانغ الذى طالما اعتبرته "متطرفا" و"أحمر" مع تشيانغ كاى شيك وشن هجوما على أمراء الحرب الشماليين على امتداد سكة بكين — هانكو الحديدية . وفى النصف الثانى من عام ١٩٢٨ جاءت الأخبار المغمة كثيفة وسريعة : تشانغ تسوه لين مات ، والمفوض الأمريكى لدى الصين رتب تحالفا بين ابنه تشانغ شيويه ليانغ وتشيانغ كاى شيك ، وما الى ذلك من أخبار . ولكن الحادثة التى سببت لي أكبر صدمة هى سرقة المدفن الشرقى .

يقع هذا المدفن فى وادى مالان فى محافظة تسونهوا بمقاطعة خبى ، ويضم قبرى الامبراطور تشيان لونغ والامبراطورة الأرملة تسى شى . اما السارق فهو سون ديان ينغ مقامر وبائع أفيون ومعاون لتشانغ تسونغ تشانغ سابقا ، وقائد جيش تحت لواء تشيانغ كاى شيك لاحقا . وقد تمت السرقة تحت ستار مناورات عسكرية اعلن عنها المذكور وقطع على اثرها جميع الطرق المؤدية الى المدفن ، ثم طلب من جنده ان يحفروا . واستمر الحفر ثلاثة أيام بلياليها استخرجت خلالها جميع الكنوز التى كانت مدفونة مع تشيان لونغ وتسى شى .

كان تشيان لونغ وتسى شى من أكثر حكام أسرة تشينغ تبذيرا . وقد قرأت وصفا للقبرين سأوجزه فيما يلى ولو انه قد لا يكون دقيقا :

> يقع المدفن فى سرداب يؤدى اليه نفق مرصوف بالرخام الأبيض وتقطعه اربع بوابات حجرية ، وسقف المدفن مؤلف من قبة ثمانية الزوايا نقشت عليها تسعة تنانين ذهبية لامعة . والمدفن مقارب فى حجمه لقصر الوئام الأوسط فى المدينة المحرمة . وقد وضع الجسدان داخل تابوتين منجورين من خشب صلب مر بعملية تجفيف طويلة الامد ، وهما موضوعان فوق بئر ثمانية الزوايا . وقد دفن فى داخل الضريحين سبائك من الذهب والفضة واوعية جنائزية من الذهب والفضة أيضا ، هذا الى جانب مقادير كبيرة من المجوهرات النادرة . واحتوى ضريح تسى شى على مواد جنائزية من اللآلىء والأحجار الكريمة والزمرد

والماس ، ومن بينها تاج العنقاء الذى كانت تلبسه وكان مصنوعا من درر منظومة بأسلاك من الذهب . وكان على غطائها زهرة فاوانيا مصنوعة كليا من الاحجار الكريمة ، وعلى ذراعها سوار يبهر فى لمعانه ، صيغ على شكل أقحوانة وست زهرات برقوق صغيرة مرصعة كلها بماسات مختلفة الأحجام . وكان فى يدها صولجان لصيد الشياطين طوله أكثر من عشرة سنتيمترات مصنوع من الزمرد ، وفى قدميها حذاء من اللؤلؤ . والى جانب هذا كله يحتوى التابوت على سبع عشرة سبحة من اللآلىء والأحجار الكريمة وعدة أزواج من اساور الزمرد . ودفنت مع تشيان لونغ تخطيطات ولوحات وكتب وسيوف وحلى من اليشب والعاج والمرجان وتماثيل لبوذا من الذهب وما الى ذلك . أما الأشياء المصنوعة من الحرير فقد بليت ولم يعد من الممكن استبيانها .

وردنى التقرير بالسرقة من الموظف المسؤول عن حماية المدفن الشرقى ، وسبب لي صدمة أشد من تلك التى تلقيتها عندما طردت من القصر . كما سبب صدمة مماثلة للعشيرة الامبراطورية وكبار موظفي أسرة تشينغ السابقين . وتدفق الى منزلى أناس من جميع الفئات ، عبروا عن اشمئزازهم من جنود تشيانغ كاى شيك ، وأرسل كبار الأعوان السابقين فى كافة أنحاء البلاد مبالغ كبيرة من أجل اعادة ترتيب المدفن كما كان . واقيمت لوحات تأبين لتشيان لونغ وتسى شى فى حديقة تشانغ مع مناضد للبخور ، وجاء رجال أسرة تشينغ فى سيل لا ينقطع لينوحوا ويسجدوا ويبكوا امام اللوحات . وبعث بيت تشينغ واعوانه السابقون برقيات الى تشيانغ كاى شيك ويان شى شان قائد حامية منطقة بكين — تيانجين يطلبون فيها معاقبة سون ديان ينغ ويصرون على ان تقوم السلطات باصلاح القبرين . وتقرر ان تستمر المراسم الجنائزية فى حديقة تشانغ الى ان يتم الاصلاح .

وكانت ردة الفعل الأولية لدى حكومة تشيانغ كاى شيك مرضية . فقد أمر يان شى شان باجراء تحقيق ، كما ألقي يان هذا القبض علي قائد الفرقة

الذى أرسله سون ديان ينغ الى بكين . ولكن لم يمض وقت طويل حتى انتشر خبر اطلاق سراح ذلك الضابط ، وقرر تشيانغ كاى شياك ألا يتابع البحث فى هذه المسألة . وقيل ان سون ديان ينغ قد أرسل شيئا مما غنمه الى عروس تشيانغ كاى شيك الجديدة سونغ مي لينغ ، حيث أصبحت درر تاج العنقاء الذى كانت تلبسه تسى شى زينة فى حذاء عقيلة تشيانغ كاى شيك . واشتعل قلبي بحقد لم أستشعره من قبل . ووقفت أمام القاعة الجنائزية الكئيبة المظلمة وأخذت على نفسى هذا العهد امام رجال عشيرتى الباكين :

— اذا لم أنتقم من هذا الفعل الشنيع فلست آيشين — جيورو !

وتذكرت ما قاله لي بو وى حين رآنى فى تيانجين لاول مرة فأعلنت قائلا :

— لن تفنى أسرة تشينغ العظيمة مادمت حيا !

وبلغ حماسى لاعادة الملكية والانتقام ذروته من جديد .

وفى تلك الأيام كان تشنغ شياو شيوى واوه تشن يوى من أقرب الناس الي وهما اللذان شحذا عزمي وزادا من سخطى ورغبتى فى الانتقام بما كانا يقصان علي من نوادر التاريخ وما ينقلان الي من الأخبار المستجدة . وقد حددا لي فى ذلك مهمتين اساسيتين : النضال ضد حكومة الكومينتانغ الى النهاية ، ومواصلة مراسم التأبين الى ان يتم اصلاح المدفن .

لكن الوضع استمر يتطور فى غير صالحنا وتوقف التحقيق فى سرقة المدفن ، ولم تعد السلطات الجديدة فى منطقة بكين — تيانجين تضم أصدقاء قدامى مثل دوان تشى روى ، وانتقل والدى وعائلته كلها من بكين الى تيانجين لأنه خاف من ان يستمر فى اقامته هناك . وتغير مزاجي من السخط الى الاكتئاب. وأدرك نزلاء حديقة تشانغ ان زواج تشيانغ كاى شيك السمسار المرتبط بعالم الرذيلة والاجرام من سونغ مى لينغ ابنة العائلة الكومبرادورية العاملة فى خدمة مصالح بريطانيا والولايات المتحدة دليل على ان تشيانغ كاى شيك أشد تبعية للمستعمرين من دوان تشى روى او تشانغ تسوه لين أو سون تشوان فانغ

او وو بي فو . ومع نهاية هذه السنة أصبحت حكومة تشيانغ كاي شيك في نانجينغ معترفا بها من جميع البلدان بما في ذلك اليابان ، وأصبحت سلطته أكبر من سلطة أي من أمراء الحرب السابقين . وشعرت بأن مستقبلي كئيب جدا وانه في ظل رجل طماع كهذا ، لا مجال مطلقا للتفكير ليس فقط في اعادة الملكية ، بل وحتى الاحتفاظ بموطىء قدم في البلاد . ولم أجد سبيلا ، غير ان ألجأ الى العرافين لأحاول استفتاح مصير حكومة تشيانغ كاي شيك ومصيري .

كنت ألتهب شوقا الى الانتقام والسعي لتحقيق أهدافي بالاعتماد على ارادتي دون انتظار ما تفعله السماء . ان خبرتي التي اكتسبتها خلال السنوات الماضية مع تجربة ظهور تشيانغ كاي شيك جعلتني أعتقد بأنه اذا ما أراد المرء انجاز شيء ما ، فان من الضروري ان تكون له سلطة عسكرية ، لأن الأجانب يدعمون في الواقع الرجل الذي لديه جيش . فعندما يكون لـ " أمبراطور أسرة تشينغ العظيم " قوات فلا بد ان الأجانب سيكونون معه أصدق مما هم مع اولئك العسكريين المنحدرين من عصابات قطاع الطرق والمتشردين . وقررت ان أرسل بعض أفراد أسرتي الموثوقين الى المدرسة العسكرية في اليابان ، معتبرا ذلك أهم من ذهابي انا الى الخارج .

وقد وقع اختياري اول الامر على شقيقي بو جيه وزوج شقيقتي رون تشي ، فطلبت من القنصل الياباني في تيانجين ان يزكي لهما معلما " خصوصيا " يعلمهما اللغة اليابانية . واختار توياماتاكيو لهذا العمل ، عضوا في " جمعية التنين الأسود اليابانية " كان يعرف كثيرا من الساسة اليابانيين . (سار هذا الرجل فيما بعد الى اليابان ليعمل من اجل تحقيق حلمي في اعادة الملكية ، لكنه أبعد عني مكرها بعد ان ذهبت الى الشمال الشرقي لأنه لم يكن منتميا الى زمرة الجيش .) وبعد أن اعطى بو جيه ورون تشي بعض الدروس اليابانية عاد الى اليابان لترتيب دراستهما هناك . وبعث من هناك يقول انه على الرغم من

أنهما لن يتمكنا حاليا من الدخول الى المدرسة العسكرية التابعة للجيش اليابانى ، الا أنهما يستطيعان أولا ان يذهبا الى مدرسة خصوصية لأبناء النبلاء اليابانيين . وغادر جنرالا المستقبل الى اليابان مع توياما فى مارس ١٩٢٩ ، بعد سبعة أشهر من حادثة المدفن الشرقى .

القنصلية والحامية وجمعية التنين الأسود

مع حلول عام ١٩٢٨ رأى معظم مرشدي ان الأمل الوحيد فى اعادة الملكية يكمن فى اليابان التى يمكن ان أكون نافعا جدا لها فى الشمال الشرقى . ونصحونى أخيرا باجراء مفاوضات حذرة مع اليابانيين الذين وجدت نفسى أكثر فأكثر اتفاقا معهم .

بينت قبل الآن كيف بدأت أثق باليابانيين بعد ان أصبحت موضع " اهتمامهم " منذ دخلت القصر الشمالى . وبعد اقامتى فى المفوضية اليابانية وانتقالى الى تيانجين ازددت ثقة بأن اليابان ستكون المصدر الرئيسى للدعم الأجنبى من أجل اعادة ملكي فى المستقبل .

ولقد دعانى القنصل اليابانى الى زيارة مدرسة ابتدائية للصبيان اليابانيين خلال سنتى الأولى فى تيانجين . فاصطف صبيان المدرسة على طول الطريق يحملون الأعلام الورقية ، واستقبلونى يهتفون : " بانتساى " (عاش ! عاش !). وقد ملأ هذا المشهد عيني بالدموع ، ورحت أتنهد لحالتى . وعندما كان القتال فى احدى الحروب بين أمراء الحرب يقترب من تيانجين انتظمت جميع الحاميات الأجنبية داخل المدينة فى جيش متحالف ، ولما أعلنوا انهم سيتدبرون أمر الجيش الوطنى اذا هو اقترب كثيرا من مناطق الامتيازات قام قائد الحامية اليابانية بزيارة الى حديقة تشانغ خصيصا ليقول لي : " نرجو جلالتكم ألا تقلق . لقد صممنا على عدم السماح للجنود الصينيين بأن يطأوا

مناطق الامتيازات . " ولقد سررت كثيرا لسماعي هذا القول .

وفى عيد رأس السنة او عيد ميلادى اعتاد القنصل اليابانى والضباط الكبار فى الحامية ان يأتوا لتهنئتى . وكانوا يدعوننى أيضا لمشاهدة العرض العسكرى فى عيد ميلاد الامبراطور اليابانى . وأذكر ان القائد اليابانى دعا عددا من اللاجئين السياسيين ذوى المراتب العالية الى أحد هذه العروض . وعندما وصلت مرة الى ساحة العرض تقدم القائد على حصانه خصيصا ليحيينى ، ولما انتهى العرض هتف جميع الضيوف الصينيين مع اليابانيين بصوت واحد : " تنوبانتساى " (عاش الامبراطور اليابانى) .

وقد اعتاد العقداء فى هيئة أركان الحامية اليابانية ان يأتوا ويخبرونى بالشؤون الجارية ، وظلوا يفعلون ذلك سنوات طويلة على النحو الذى يمليه الواجب : كانوا أحيانا يجلبون معهم رسوما بيانية وجداول أعدوها خصيصا . وكان أحد هؤلاء هو يوشيوكا الذى أصبح فيما بعد " ملحقا لدى البيت الامبراطورى "، وقد ظل معي عشر سنوات فى عهد " امبراطورية مانشوريا " ، وسأتحدث عنه كثيرا فى الفصل السادس .

المواضيع الرئيسية التى كنت أبحثها مع ضباط الأركان اليابانيين هى الحروب الأهلية ، وكانوا غالبا ما يقدمون تحليلات مثل " ان السبب الاساسى فى الفوضى التى تعم الصين هى انها تفتقر الى قائد وليس فيها امبراطور . " وكانوا يتحدثون عن تفوق النظام الامبراطورى اليابانى ويقولون ان قلوب أبناء الشعب الصينى لا يكسبها الا " الامبراطور شيوان تونغ " . وكان ضعف القوات المسلحة الصينية وانحلالها يشكل الموضوع المفضل لديهم ، وقد قارنوها بالطبع مع الجيش اليابانى الامبراطورى . وهذا الائتلاف بين الأحاديث والعروض العسكرية جعلنى أومن ايمانا قويا بقدرة القوات المسلحة اليابانية وأثق ثقة كبيرة بالدعم الذى تقدمه لي .

كنت أتمشى ذات مرة بجانب نهر باى فرأيت مركبا حربيا يابانيا

يرسو فى النهر . ولا أدرى كيف ميزنى الربان ، ولكنه ظهر فجأة على ضفة النهر ودعانى بكل احترام الى زيارة مركبه . وعندما صعدت المركب ، المسمى فوجى ، اصطف ضباط البحرية اليابانيون لتحيتى . ولما كانت هذه مناسبة مفاجئة ولم يكن بيننا مترجمون فقد اضطررنا الى التحدث كتابة (٣١) . ورد لي الربان فيما بعد الزيارة مع عدد من الضباط ، وأعطيته صورة لي موقعة بناء على طلبه ، وأشار الى انه قد اعتبر ذلك شرفا عظيما . وجعلتنى هذه الحادثة أشعر بأن اليابانيين يحترموننى من صميم قلوبهم . وقد صاروا الآن يشغلون مجالا أرحب فى تفكيرى بعد اخفاقى فى كسب أمراء الحرب وشراء السياسيين والمرشدين الأجانب .

كان اليابانيون فى البداية يمثلون فى نظرى كيانا منفردا لا يشمل بالطبع سكان اليابان العاديين وانما يتكون من اعضاء المفوضية اليابانية والقنصلية وحامية تيانجين ، وكذلك بعض السماسرة الذين كانوا على صلة مع لوه تشن يوى وشنغ يون ممن ليس لهم منصب عسكرى او مدنى . فهؤلاء هم الذين " حمونى " وعاملونى كـ " امبراطور " وشاركونى جميعا فى نفس الازدراء للجمهورية ، كما اظهروا اشادتهم بأسرة تشينغ العظيمة ، وعبروا جميعا عن عزمهم على مساعدتى عندما أثرت فى البداية مسألة ذهابى الى اليابان .

كنت قد قررت الذهاب الى اليابان باقناع من لوه تشن يوى عندما كنت خائفا من اقتراب جيش الحملة الشمالية عام ١٩٢٧ ، وبعد المناقشات مع القنصل اليابانى أحيلت المسألة الى اليابان . فعبرت حكومة تاناكا عن الترحيب وتقرر ان أستقبل هناك بالاسلوب الملائم لعاهل أجنبى . وأخبرنى لوه تشن يوى ان السلطات العسكرية اليابانية قد قامت باستعدادات لتزويدي بحراسة عسكرية اثناء سفرى . ولكن بعد ان هدأت الأزمة أقنعنى تشن باو تشن وتشنغ شياو شيوى بعدم الذهاب . ولما لم تعد شعارات " تسقط الامبريالية " و" ألغوا المعاهدات غير المتكافئة" سائدة بعد تأسيس الحكومة الوطنية فى

نانجينغ ، بدأت أدرك ان اليابانيين الذين ظلوا يعاملونني بنفس " الاحترام " و" الحماية " السابقين ، قد انقسموا فى مواقفهم ازاء ضرورة ذهابي الى الخارج . وقد اسخطني هذا الانقسام أشد السخط .

قال لي لوه تشن يوى فى النصف الثانى من عام ١٩٢٧ : " على الرغم من ان منطقة الامتيازات اليابانية آمنة نوعا ما ، الا ان هناك أناسا من جميع الفئات حول هذه المنطقة . ان هيئة اركان الحامية اليابانية قد ابلغت بتسلل عدد من العملاء السريين (يشير الى الناس الذين كانوا يعملون سرا فى اماكن شتى من الصين) من الحزب الثورى (عبارة استخدمت فى حديقة تشانغ للاشارة كل من الحزب الشيوعى والكومينتانغ)، لذا فان أمن جلالتكم يجب ان يثير الاهتمام . وفى رأى تابعكم سيكون من الأفضل ان تقيموا فى اليابان فى مثل هذه الظروف ، ولن يكون هناك اعتراض على الذهاب الى ليوشون أولا . فالأمير قونغ (بو وى) قد رتب كل شيء هناك ، والسلطات العسكرية اليابانية راغبة فى تقديم المساعدة وتحمل مسؤولية حماية جلالتكم . " وكنت قبل هذا منزعجا من " العملاء السريين للحزب الثورى " ، فتجدد عزمي على الذهاب الى ليوشون بعد سماع هذا التقرير . ولذا أمرت تشنغ ، متجاهلا احتجاجات تشن باو تشن وتشغ شياو شيوى ، بأن يذهب الى القنصل اليابانى كاتو ويطلب منه رؤيتي شخصيا . فتردد تشنغ شياو شيوى لحظة ، ثم سألني :

— اذا جلالتكم دعوتم كاتو الى القدوم لرؤيتكم ، فمن سيترجم ؟ شيه جيه شي ؟

وأدركت ما قصد . كان شيه جيه شي مقربا جدا الى لوه تشن يوى ، وكان تشنغ شياو شيوى لا يرتاح للاستعانة بأحد رجال لوه تشن يوى ، وكنت مدركا أن لوه لن يكون مسرورا بأن يقوم ابن تشنغ او ابن شقيقة تشن باو تشن بهذه المهمة . وفكرت فى الأمر مليا وأعلنت قراري التالي :

— سآتى بمترجم للانكليزية . كاتو يعرف الانكليزية .

ووصل كاتو مع مساعديه الاثنين . وبعد أن استمع لطلبي قال :

— لا أستطيع ان أعطي جلالتكم جوابا فوريا عن هذه المسألة ، اذ لابد لي من احالتها الى طوكيو .

وتساءلت ان كان ضروريا احالة هذه المسألة الى طوكيو ؟ أليست هيئة اركان الحامية اليابانية قد أخبرت لوه تشن يوى بأنه لن تكون هناك مشكلة بهذا الخصوص لاسيما وان بعض اللاجئين الاثرياء في تيانجين كانوا يذهبون الى ليوشون فرارا من القيظ حتى دون ان يبلغوا القنصل الياباني بذلك ، فلماذا اذن كل هذه الضجة بخصوصي ؟ وقبل ان أنتهي من قول هذا كله سألني كاتو سؤالا مربكا :

— هل يمكن ان أسأل ان كانت هذه رغبة جلالتكم ؟

فأجبت دون أدنى تردد :

— نعم ، انها رغبتي .

وقلت مرة ثانية انني سمعت مؤخرا بأنني سأكون عرضة للخطر في تيانجين . فبناء على معلومات الحامية اليابانية عرفت ان الثوريين قد ارسلوا مؤخرا عددا من عملائهم السريين الى هنا : والقنصل يدرك هذا بالتأكيد .

فقال كاتو مغتما :

— هذه كلها اشاعات ، لا داعي الى ان يصدق جلالتكم ذلك .

واستغربت كيف يعتبر تقارير المخابرات العسكرية اشاعات . فقد سبق لي على اساس هذه التقارير ان طلبت منه زيادة قوة حرسي واستجاب هو لطلبي فكيف هو الآن لا يصدق بالتقارير ؟

— كيف يمكن لتقارير المخابرات العسكرية ان تكون اشاعات ؟

وظل كاتو صامتا وقتا طويلا ، بينما تململ مساعداه على الأريكة في عدم ارتياح . ثم قال أخيرا :

— يمكن لجلالتكم ان تثقوا تمام الثقة بأنه لا خطر هناك أبدا . وطبيعي

ان أحيل الى حكومتى مسألة الذهاب الى ليوشون التى عرضها جلالتكم .
هذه المحادثة أعطتنى الايحاء الأول بالتنافر القائم بين القنصلية والحامية . واعتبرت هذا أمرا غريبا ومزعجا فى نفس الوقت ، فأرسلت فى طلب لوه تشن يوى وشيه جيه شى وسألتهما عن ذلك ، فاخبرانى بأنهما سمعا من افراد الحامية اليابانية او من أصدقائها ما أكد على ان الأمور كانت كذلك . وقالا أيضا :

ـ ان تقارير المخابرات العسكرية موثوق بها تماما . وهى تعطى دائما صورة واضحة عن كل تحرك للثوريين . وعلى أية حال ، حتى اذا كانت تقارير الاغتيال مجرد اشاعات ، فان علينا ان نظل حذرين .

وبعد بضعة أيام أخبرنى والد زوجتى رونغ يوان ان بعض أصدقائه ممن يقيمون فى مناطق الامتيازات الاجنبية أخبروه بأن السفاكين الذين يعملون لصالح فنغ يوى شيانغ قد وصلوا مؤخرا الى داخل منطقتي الامتيازات البريطانية والفرنسية ، لذا فان الوضع مخيف جدا . كما أخبرنى احد أفراد بيت تشينغ بأنه رأى أناسا مريبين بالقرب من البوابة الرئيسية يتطلعون الى داخل الفناء . فاستدعيت فى الحال رئيس مكتب شؤونى العامة وقائد الحرس وأخبرتهما بأن يطلبا من البوليس اليابانى تشديد الاحتياطات الأمنية عند البوابة . وأصدرت كذلك تعليمات الى الحرس بأن يراقبوا الغرباء خارج البوابة مراقبة دقيقة وألا يسمحوا لأحد بالخروج او الدخول ليلا .

وذات ليلة نهضت على ازيز طلقة خارج النافذة ، تبعتها على الفور طلقة أخرى . فقفزت من سريرى وأمرت الحرس بالتجمع ، مقتنعا بأن عملاء فنغ يوى شيانغ السريين قد وصلونا أخيرا ونهض البيت كله ، وانتشر الحرس فى كل مكان . واستنفر البوليس عند البوابة الرئيسية ، وخرج أفراد البوليس السرى اليابانى المتمركزون فى المنزل للقيام بالتحريات . وعندما قبضوا على الرجل الذى أطلق الرصاصتين تبين لدهشتى أنه يابانى .

وفى اليوم التالى أخبرنى تونغ جى شيوى ، رئيس مكتب شؤونى العامة ان هذا الشخص هو عضو فى جمعية التنين الأسود يدعى كيشيدا ، وانه عندما أخذ الى دار البوليس اليابانى أبعدته هيئة اركان الحامية اليابانية على الفور . فأصبحت لدي الآن فكرة واضحة عن مجرى الأمور .

وكان لي بعض الاتصالات المسبقة بأعضاء جمعية التنين الأسود . ففى عام ١٩٢٥ قابلت تسوكودا تويو . وهو شخصية هامة فى الجمعية بتشجيع من اوه تشن يوى . وكان لوه قد أخبرنى بأن كثيرا من المتنفذين وغيرهم فى اليابان ، ومن بينهم بعض العسكريين ، يخططون لمساعدتى على اعادة الملكية ، وانهم أرسلوا ممثلهم تسوكودا ليجرى معي حديثا خاصا . وقال ان هذه فرصة يجب ألا تفوت وان علي الاجتماع به حالا ولم أكن قد سمعت بتسوكودا هذا من قبل ، ولكن بعض موظفى ادارة الأسرة ممن يعرفونه قال لي انه كان يكثر التردد الى القصور الأميرية منذ ثورة ١٩١١ وانه كان على علاقة جيدة بعدد من أمراء العشيرة الامبراطورية . وقد تأثرت بما قاله لي لوه تشن يوى ، الا اننى شعرت بأن القنصل اليابانى الذى هو الممثل الرسمى لبلاده والذى هو سيحمينى ، يجب ان يدعى لحضور المحادثة . فأرسلت له شخصا ليبلغه بذلك ويدعوه للحضور . وحالما رأى تسوكودا القنصل استدار هاربا ، وهذا ما أدهش تشن باو تشن وتشنغ شياو شيوى وكل من كان حاضرا . وعندما أنظر الى هذا الأمر اليوم يبدو واضحا ان هذه الحركة من لوه تشن يوى ومحاولة كيشيدا اخافتى بالطلقتين ليلا كان لهما علاقة بنشاطات تسوكودا التى كانت بدورها مدعومة دون شك من هيئة اركان الحامية اليابانية .

فيما بعد أرسلت فى طلب تشن باو تشن وتشنغ شياو شيوى لأسألهما عن رأيهما بمسألة الطلقتين . فقال تشنغ : " يبدو ان كلا من الجيش والحكومة اليابانيين يريد لجلالتكم .ان تقيموا تحت حمايتهم فى المناطق الخاضعة لسيطرتهم . ومع انهما لا يتعاونان مع بعضهما ، الا ان هذا لا يسبب أدنى سوء

لنا . ولكن تصرفات لوه تشن يوى متهورة جدا وقد تؤدى الى نكبة ، فيجب ألا تعهد اليه بعمل هام قط . "

ولكن رأى تشن باو تشن كان كما يلى : " ان كلا من هيئة اركان الحامية اليابانية وجمعية التنين الأسود يتصرف دون أدنى مسؤولية . فلا تخضع لأى احد ماعدا المفوض اليابانى والقنصل اليابانى . " وبعد التفكير فى هذه المسألة شعرت انهما مصيبان ، وقررت ألا أطلب من القنصل سماحا بمغادرة تيانجين . ولم أعد أهتم بلوه تشن يوى ، الذى باع منزله فى تيانجين فى السنة التالية وذهب الى داليان .

ومن الغريب انه حالما غادر لوه تشن يوى قلت الاشاعات ، ولم يعد رونغ يوان وتشى جى تشونغ يجلبان تقارير المخابرات العسكرية المدهشة . لكنى لم أبدأ فى فهم السبب الا بعد ذلك بوقت طويل .

وكان مترجمى للغة الانكليزية هو الذى أوضح لي الأمور ، لانه كان سلفا لوالد زوجتى رونغ يوان . ولانه كان يحكم عمله على صلة بهيئة اركان الحامية اليابانية وقد عرف شيئا عما كان يجرى خلف الكواليس أخبرنى به فيما بعد . من ذلك ان هيئة اركان الحامية اليابانية قد أنشأت منظمة سرية خاصة لمعالجة شؤون حديقة تشانغ ، وأن لوه تشن يوى ورونغ يوان وشيه جيه شى على الأقل كانوا على صلة بهذه المنظمة ، التى كانت قاعدة فى بيت معروف لعامة الناس بأنه دار مينو .

وبعد ان قام مترجمى بالترجمة لي فى مقابلتى مع كاتو استبقاه لوه ورونغ وشيه لأنهم أرادوا ان يعرفوا ما جرى فى المحادثة . واثاروا ضجة عندما سمعوا ان كاتو لم يكن متحمسا لذهابى الى الخارج ، وقد استخلص المترجم من نقاشهم ان عضوا من هيئة أركان الحامية اليابانية قد أخبر لوه بأنهم يريدون أخذي الى ليوشون . وقام لوه والآخرون بأخذ المترجم الى دار مينو ليروا ضباط الأركان ، ومع انهم لم يجدوه الا ان المترجم استطاع حينئذ اكتشاف

المنظمة المذكورة . وفيما بعد سمع من رونغ يوان والآخرين بأنهم كانوا يحصلون هناك على أفيون وفتيات واموال .

كان مينو تومو يوشى ، صاحب الدار ، رائد ركن يكثر التردد الى حديقة تشانغ مع قائد الحامية اليابانية . ولم اتخيل قط فى ذلك الوقت ان هذا الرجل قد أنشأ صلات سرية مع اعضاء أسرتى ، وعرف كل ما كان يجرى فى حديقة تشانغ ، وانه قد استخدم رونغ يوان وغيره لبث الاشاعات التى جعلتنى أرغب فى الهروب الى ليوشون . وعندما سمعت بعض الحقائق عن دار مينو أدركت ان السبب الذى دفع الجيش اليابانى الى بذل جهوده لكسب رونغ يوان وأمثاله هو انهم كانوا على صراع مع القنصلية اليابانية بشأنى . وهذا الصراع ، كما أشار تشنغ شياو شيوى ، لم يكن الا فى صالحى .

اما جمعية التنين الأسود فقد افادنى تشنغ شياو شيوى بشىء عنها فيما بعد . كانت هذه الجمعية ، أكبر منظمات السماسرة اليابانيين وكان اسمها اولا " جمعية المحيط الأسود " . وقد تأسست على يد هيراوكا كوتارو بعد الحرب الصينية — الفرنسية (١٨٨٣—١٨٨٥) . وكانت عبارة عن منظمة للوكلاء السريين مهمتها القيام بنشاطات تجسسية فى الصين . وقد انشأت لهذا الغرض قواعد فى فوتشو ويانتاى (تشيفو) وشانغهاى ، ونشطت تحت ستار قنصليات ومدارس ومحلات تصور . ويشير اسم جمعية التنين الأسود الى " اجتياز نهر آمور " (الاسم الصينى لهذا النهر هو نهر التنين الأسود) ، وقد ظهرت هذه الجمعية لاول مرة عام ١٩٠١ ، ولعبت دورا هاما فى الحرب الروسية — اليابانية (١٩٠٤—١٩٠٥) ، وقيل ان تعداد عضويتها قد وصل الى مئات الآلاف ، وان لها اعتمادات مالية هائلة . وكان تویاما میتسورو من أشهر قادتها ، وقد تغلغل أعضاؤها تحت توجيهه الى كل طبقة من طبقات المجتمع الصينى من نبلاء أسرة تشينغ وكبار موظفيها الى الباعة المتجولين وحتى العاملين فى حديقة تشانغ . وكان كثير من الشخصيات اليابانية (مثل دويهارا وهيروتا كوكى

وهيرانوما كيتشيرو وآريتاها تشيرو وكاتسوكى سايجى) من أتباع توياما . وقد ذكر تشنغ شياو شيوى ان توياما هو بوذى مؤمن له لحية شمطاء طويلة ووجه " سمح " ، وكان شغوفا بالورود ويكره ان يغادر حديقته . ومع ذلك فقد خطط هذا الرجل ونفذ مؤامرات وجرائم مرعبة .

ويجب ان يرد الفضل الى لوه تشن يوى فى اعتراف تشنغ شياو شيوى بسلطة جمعية التنين الأسود والجيش اليابانى . ان تشنغ ولوه وتشن باو تشن يمثلون أصلا ثلاث مدارس مختلفة . فقد اعتبر لوه كل ما يقوله العسكريون او شخصيات التنين الأسود موثوقا تماما ، والسبب الرئيسى فى ثقته بسيميونوف يرجع الى انه هو الآخر على صلة بالجمعية . ورأى تشن باو تشن من ناحية أخرى انه لايمكن الثقة بأحد من اليابانيين ما عدا أعضاء القنصلية الذين يمثلون الحكومة اليابانية . ووقف تشنغ شياو شيوى اول الامر صراحة الى جانب تشن باو تشن ، ولكن ادعاءات لوه وسلوك جمعية التنين الأسود الشائن مكنته فيما بعد من أن يرى الطريقة التى كانت تسلكها بعض القرى فى طوكيو وان يتكهن بالنوايا الحقيقية للسلطات اليابانية . لقد رأى ان اليابان قوة يمكنه الاعتماد عليها ، فقرر ان يترك مؤقتا فكرة الادارة المشتركة للصين من جانب جميع الدول الأجنبية ، وذهب الى اليابان ليطلب مساعدة جمعية التنين الأسود وهيئة الأركان العامة اليابانية .

كان تشنغ شياو شيوى يأمل اول الامر بزيادة تدخل اليابان فى السياسات الصينية بعد أن يئس من الحصول على دعم دولي لقاطع الطريق الروسى الأبيض سيميونوف . وعندما غير خططه أصبحت لديه وجهة نظر أعمق بكثير مما لدى لوه تشن يوى ، ولم يعد يولى اهتماما بـ " دار مينو " او هيئة اركان الحامية اليابانية او القنصلية اليابانية فى تيانجين . كان هدفه طوكيو . ولكنه فى ذلك الوقت لم يعتبر اليابان مساعدنا الاجنبى الوحيد ، فقد رأى انها مساعدنا الأول الى حد ما .

وكان قد ذهب الى اليابان باذن منى وبموافقة من المفوض اليابانى يوشيزاوا . وهناك أجرى اتصالا بالجيش وجمعية التنين الأسود ، وأبلغنى بارتياح كبير لدى عودته ان أكثرية المتنفذين فى اليابان قد عبروا عن " اهتمامهم " بى و" تعاطفهم " معى بخصوص اعادة الملكية وأظهروا اهتماما بخططى للمستقبل . وقال انه يجب علينا ان نتحين الفرصة لنطلب المساعدة .

وخلال وجوده فى اليابان قابل مختلف أصناف الناس الذين كانوا مهتمين باعادة الملكية ، من بينهم موظفون عسكريون ومدنيون كانوا قد اتصلوا بى فى بكين وتيانجين ، وكذلك تسوكودا الشخصية الهامة فى جميعة التنين الاسود والذى كان قد هرب لدى رؤيته القنصل اليابانى ، وكيشيدا عضو الجمعية الذى أطلق الطلقتين فى تلك الليلة . وقابل أيضا بعض الشخصيات الهامة ممن كانوا سابقا بعيدين عن الأنظار وأصبحوا فيما بعد رؤساء وزارات او وزراء حرب او شغلوا مناصب هامة أخرى (٣٢) . وربما كان تشنغ شياو شيوى قد استثير جدا بطريقة رد فعلهم على سياسته " سياسة فتح البلد كله " . وعندما تدفق الحشد الأول من " الضيوف " اليابانيين من خلال " الباب المفتوح " بعد تأسيس " امبراطورية مانشوريا " كان ما يزال متشبثا بحلمه فى الادارة المشتركة واعلان سياسة " الباب المفتوح والفرص المتساوية " على العالم الخارجى . لقد كان كخادم ساعد عصابة لصوص على فتح بوابة منزل سيده ، لكن كرمه لم يقف عند هذا الحد فاراد ان يوجه الدعوة الى جميع العصابات الاخرى لتدخل ، مما حدا بالعصابة الأولى الى رفسه فى فورة غضب .

الحياة فى القصر المؤقت

بعد ان أمضيت مدة فى حديقة تشانغ شعرت بأنها أفضل مكان الى ان يصبح الوقت مؤاتيا لاعادة الملكية او أجبر على المغادرة . وهذا كان أحد

الأسباب فى فتور تحمسى للذهاب الى الخارج .

لقد بدا لي ان حديقة تشانغ (وفيما بعد الحديقة الهادئة) خالية من جميع الأشياء التى كنت أكرهها فى المدينة المحرمة الى جانب احتفاظها بكل الضروريات . ان أكثر ما كرهته فى المدينة المحرمة هو اولا قيودها التى لم تسمح لي حتى بركوب سيارة او الخروج للتمشى فى الشوارع ، وثانيا هو ادارة الأسرة المزعجة للغاية . ان لدي الآن حرية التصرف كما يحلو لي ، وليس بوسع المعنيين بى الا ان يحتجوا ولكنهم لا يستطيعون التدخل كما كانوا .

ان العنصر الجوهرى فى حياتى داخل المدينة المحرمة ، وهو الهيبة الامبراطورية بقي هنا مصونا . ومع اننى الآن ألبس سترة وثوبا لصينيين عاديين ، او فى غالب الأحيان ملابس غربية بدلا من الثياب الامبراطورية الثقيلة ، الا ان الناس ظلوا يسجدون او يركعون لي . وكان مقر اقامتى هذا قد بنى فى الاصل منتزها ، بلا آجر مزجج او دعائم منقوشة ومطبوعة بالرسوم ، ولكنه مع ذلك ظل يدعى " قصرا مؤقتا " . وقد وجدت فيه منزلا أجنبى الطراز بمغاسل حديثة وتدفئة مركزية أفضل بكثير مما فى قصر تهذيب النفوس . وكان النبلاء يأتون من بكين بالتناوب ليقوموا بالواجبات المطلوبة . وقد اتخذت من حجرة بيع التذاكر السابقة فى الحديقة " مكتب حراسة بوابة السماء الصافية " . ومع انه لم تعد هنالك " مكتبة جنوبية " او " قاعة الاجتهاد العظيم " او " ادارة الأسرة " ، الا ان الناس جعلوا من مكتب بيت تشينغ المرابط فى تيانجين دعامتهم الروحية المشتركة . وظللت أخاطب تماما بنفس الطريقة السابقة ، والتواريخ ظلت تعطى وفقا لعهد شيوان تونغ (٣٣) . وهذا كله بدا لي طبيعيا وضروريا .

كان الموظف الوحيد من كبار موظفى ادارة الأسرة والذى بقى معى هو رونغ يوان . اما الآخرون ، فتولى بعضهم تعهد ممتلكاتى فى بكين وتقاعد بعضهم لتقدمهم فى السن . وقد اصدرت دفعة اولى من المراسيم بعد وصولى

الى تيانجين تضمنت المرسومين التاليين ، أحدهما : " تعيين تشنغ شياو شيوى وهو سه يوان ويانغ تشونغ شى ورن سو وتشينغ فانغ تشانغ وشياو بينغ يان وتشن تسنغ شاو ووان شنغ شيه وليو شيانغ يه مستشارين لي فى تيانجين . والثانى : " تأسيس مكتب ادارى تحت اشراف تشنغ شياو شيوى وهو سه يوان ، ومكتب شؤون عامة تحت اشراف تونغ جى شيوى ، ومكتب للمالية تحت اشراف تشينغ فانغ تشانغ ، ومكتب للعلاقات الخارجية تحت اشراف ليو شيانغ يه " . وكان تشن باو تشن ولوه تشن يوى وتشنغ شياو شيوى اعوانا مقربين أراهم يوميا . وكان عليهم المجيء كل صباح الى الغرف الغربية خارج المبنى الرئيسى لينتظروا " استدعاءهم لمقابلتى " . اما الذين يطلبون " مقابلتى " من غيرهم فكانوا ينتظرون فى حجرة صغيرة عند البوابة الرئيسية ، وكان فى عدادهم جنود وساسة وموظفون سابقون فى اسرة تشينغ ونوعيات شتى من الشخصيات الحديثة والشعراء والكتاب والأطباء والعرافين والمنجمين والفراسين ورئيس حزب الشباب الرجعى وبعض نجوم التنس والصحفيين واحد أعضاء لجنة الانضباط فى الكومينتانغ . وكان البوليس اليابانى المتمركز فى حديقة تشانغ ، قد أقام فى منزل مقابل ، وكان يلاحظ القادمين والمغادرين ويسجل اسماءهم . وكنت كلما خرجت يتبعنى واحد منهم .

وكانت الحالة الاقتصادية فى حديقة تشانغ اقل بحبوحة بالطبع مما كانت عليه فى المدينة المحرمة ، ولكن ما تزال عندى ثروة هائلة . فقد تحولت بعض النفائس العديدة التى جلبتها معي من المدينة المحرمة الى اموال نقدية تدر علي فوائد منتظمة فى المصارف الأجنبية ، وبعضها الآخر تحول الى عقارات تدر على ايجارات شهرية . ومازلت أملك مساحة كبيرة من الأراضى فى الشمال والشمال الشرقى . وقد أنشأ بيت تشينغ والسلطات الجمهورية معا مكتبا خاصا لمعالجة تأجير وبيع هذه الأراضى التى كانت " ممتلكات خاصة للامبراطور " . وكانت حصتنا من بيع هذه الممتلكات أحد مصادر دخلنا ، رغم ان الجانبين

كان لهما سهم فى الغنيمة : وبالاضافة الى ذلك ما زلت أملك مقادير كبيرة من الكنوز الفنية التى نقلتها انا وبو جيه فى خطتنا السابقة للهروب فى القصر كما وصفت فى الفصل الثالث .

وبعد ان انتقلت الى تيانجين كانت هناك أماكن كثيرة ترسل اليها الاموال شهريا ، وأنشىء لهذا الغرض عدد من المكاتب : " مكتب بكين " ، " مكتب المدافن والمعابد " ، " مكتب لياونينغ " ، " مكتب العشيرة الامبراطورية " ، " مكتب ادارة الممتلكات الخاصة (ممتلكات الامبراطور) " (وهو المكتب التشينغى — الجمهورى المشترك الذى ذكرته آنفا) . وعين أيضا موظفون للعناية بالقبور الامبراطورية . واستنادا الى وثيقة عثرت عليها فيما بعد كانت النفقة الشهرية لبكين والمدفن الشرقى والمدفن الغربى تبلغ ١٥٨٣٧ يوان ، والنفقة الشهرية فى تيانجين أكثر من عشرة آلاف يوان . وكان الباب الأكبر فى الميزانية هو الاموال التى صرفت لشراء أمراء الحرب او التأثير فيهم ، وهذا لا علاقة له بالنفقة الشهرية المذكورة . وربما وصلت المشتريات المختلفة الى ثلثى معدل المصروفات الشهرية . وقد صرفت انا على المشتريات عندما كنت فى تيانجين أكثر بكثير مما صرفته فى بكين ، وكان المبلغ يزداد كل شهر ، ولم أسأل قط من شراء البيانوات او ساعات اليد او الساعات المنبهة او أجهزة الراديو او الملابس الغربية او الأحذية الجلدية او النظارات .

وكانت وان رونغ سيدة شابة فى تيانجين تعرف من طرق التبذير على الأمور التافهة أكثر مما أعرف . وكان بينها وبين ون شيو الزوجة الثانية مباراة فى الشراء اجبرتنى فيما بعد على تقنين مصروفاتهما . وكانت نفقة وان رونغ ألف يوان ، ونفقة ون شيو حوالى ثمانمائة . وعندما تعرضنا لصعوبات مالية خفضت هاتين النفقتين الى ثلاثمائة للامبراطورة ومائتين للزوجة . ولم يكن هناك بالطبع حد لمصروفى الشخصى .

ونتيجة لتبذيرنا المذهل تعرضت حديقة تشانغ لعسر مادي ميئوس منه تماما كما حدث في المدينة المحرمة حتى صرنا أحيانا غير قادرين على دفع فواتيرنا او الأجور المطلوبة منا وحتى رواتب الاعوان الكبار و" المستشارين " .

ولما كنت أنفق مبالغ لا تحصى على شراء كميات هائلة من التوافه ، فقد أصبحت أكثر قناعة من السابق بآراء معلمي جونستون بأن كل ما هو أجنبي جيد وكل ما هو صيني ، ما عدا النظام الامبراطوري ، سيىء . ان حبة من علكة النعناع او قرصا من أسبرين باير تكفي لأن تجعلني أزفر من الغباء الكامل لدى الصينيين ، ولو ان هذا لا يشملني لأني كنت أرقى من جميع الناس كما كنت واثقا ان الأجانب الأذكياء يشاركونني هذا التقدير لنفسي .

كانت المعاملة التي لقيتها في مناطق الامتيازات الاجنبية مختلفة تماما عن تلك التي لقيها أي صيني آخر . فبالاضافة الى اليابانيين كان القناصل والضباط الكبار من أمريكا وبريطانيا وفرنسا وايطاليا ومدراء الشركات الأجنبية يحترمونني جميعا غاية الاحترام ويخاطبونني بعبارة " جلالتكم الامبراطورية " . وكانوا يدعونني في أعيادهم الوطنية لأستعرض جندهم وأزور ثكناتهم وأشاهد طائراتهم وسفنهم الحربية الحديثة الوصول . وكانوا جميعا يأتون لتهنئتي في عيد رأس السنة وفي عيد ميلادي .

وكان جونستون قدمني ، قبل ان يفارقني ، الى القنصل البريطاني وآمر الحامية البريطانية ، وهما قدماني الى خلفيهما اللذين قدماني بدورهما الى خلفيهما ايضا ، لذلك استمرت علاقتي الاجتماعية بالضباط البريطانيين دون انقطاع . وعندما جاء دوق غلاوسيستر ، الابن الثالث للملك جورج الخامس ملك انكلترا ، الى الصين زارني في تيانجين وقبل صورة مني ليحملها الى والده الذي كتب لي فيما بعد رسالة يشكرني فيها على ذلك ، وأرسل بدوره صورته الى القنصل البريطاني ليقدمها لي . وتبادلت الصور كذلك مع ملك ايطاليا

بواسطة القنصل الايطالى .

وزرت عددا من الثكنات ، وشاهدت كثيرا من العروض العسكرية الأجنبية . وعندما كان هؤلاء الجنود ـ الذين سمحت لهم الامبراطورة الارملة تسى شى بالدخول الى أراضى الصين بناء على اتفاقية ١٩٠١ ـ يستعرضون امامى بزهوهم العسكرى ، كنت فى غاية السرور لأننى شعرت ان الطريقة التى يعاملنى بها الأجانب تدل على انهم مايزالون يعتبروننى أمبراطورا .

وكان فى تيانجين " نادى ريفى " يديره الانكليزى هو عبارة عن مسلاة فاخرة لم يكن يسمح الا للرؤساء الأجانب بدخولها ، اما الصينيون فكانوا ممنوعين منعا باتا من الوصول اليها . وكنت أنا المستثنى الوحيد من هذا المنع (٣٤) وكان مسموحا لي بأن أدخلها بحرية وان آخذ معى أفرادا من عائلتى . وقد تمتعنا بهذا الامتياز المبهج بوصفنا من " خواص الصينيين " .

وكنت أحب شراء الملابس والماس من المخازن الأجنبية مثل مخزن " الطريق الباهر " ومخزن " ليدلو وشركاه " لأتزين بها كسيد أجنبى من فرسان " الاسكواير " . وكنت كلما خرجت ألبس أحدث الملابس الغربية المفصلة من قماش انكليزى ، وأضع دبوسا من الماس فى ربطة عنقي وأزرارا ماسية فى أكمامى واتختم بالماس وأحمل " عصا الحضارة " فى يدى واضع نظارة سايز ألمانية . وكنت أتطيب بعطور من مستحضرات ماكس فاكتور وأصطحب كلبين ألزاسيين او ثلاثة وزوجة وحظية بملابس غربية الشكل . . .

وقد اثارت طريقة حياتى هذه اعتراضات شديدة من تشن باو تشن وهو سه يوان ، اللذين لم يعارضا مطلقا عاداتى فى الانفاق او علاقاتي بالأجانب ، ولكنهما كانا يعترضان عند ذهابى الى شركة تشونغ يوان للحلاقة او عندما كان يصادف ان أذهب الى المسرح او السينما لابسا ملابس غربية ، لأنهما يعتبران ذلك تهاونا فى مراسم الهيبة الامبراطورية . ولما لم تؤثر النصائح المتكررة التى قدمها لي هو سه يوان رفع مذكرة انحى فيها على نفسه باللائمة وطلب منى

اذنا بالتقاعد .

وكان سابقا قد طلب اذنا بالتقاعد عندما رأى اننى فقدت شيئا من هيبتى الامبراطورية بسبب ذهابى الى المسرح مع زوجتى وان رونغ لأشاهد ممثل أوبرا بكين الشهير مى لان فانغ . وبعد ان كررت رجائى له بأن يبقى وكافأته ببطانتى معطف من فرو الثعلب واكدت له عزمى على قبول انتقاداته ، تهللت اساريره وامتدحنى بأننى " حاكم لامع " لاننى قبلت النصائح ، وأصبح كلا الطرفين مسرورا . وقد سويت الازمة الناتجة عن زيارتى لصالون الحلاقة ، بنفس الطريقة تماما .

وحل عيد ميلاد وان رونغ العشرون (٣٥) خلال سنتنا الأولى فى تيانجين ، فرتب والدها الأمور لاحضار جوقة أجنبية للعزف فى هذه المناسبة . وحالما سمع أحد مخضرمى تشينغ بذلك سارع الى الاعتراض علي قائلا بأن " فى الموسيقى الأجنبية رنة حزن " ولا يمكن ان تعزف فى عيد ميلاد امبراطورة . فأعطيته مائتى يوان ليلغى هذه الفقرة من الاحتفالات . وهذا لابد انه كان فى الوقت الذى بدأت أقدم فيه مكافآت للأعوان الذين كانوا ينتقدوننى .

ومنذ ذلك الحين الى ان سجنت لم أخرج قط الى المسرح او الى صالون الحلاقة . ولم يكن السبب فى اتباعى نصيحة هو سه يوان اننى خشيت ان يستمر فى تذمره ، بل لأننى رأيت انه كان مصيبا فى قوله ان مما يتعارض مع هيبتى ان أذهب الى المسرح . ويمكن ان أعطى هنا مثالا على " التقدم " الذى أحرزته فى هذا المضمار ، فعندما زار أمير سويدى مدينة تيانجين وأراد ان يقابلنى رفضت ذلك لاننى رأيت صورة له مع الممثل مى لان فانغ فى الصحف ، ورأيت اننى يجب ان أظهر عدم استحسانى لتصرفه المشين .

وكان هو سه يوان وغيره من أعضاء فريق تشن باو تشن مختلفين عن تشنغ شياو شيوى ولوه تشن يوى وزملائهما فى انهم بدوا يائسين من اعادة الملكية وكانوا معارضين للاقدام على اى مخاطرة . وعلقوا الكثير من الأهمية

على هيبتى الامبراطورية أكثر مما فعل تشنغ شياو شيوى والآخرون ، وهذا كان سببا آخر فى اننى اطعتهم فيما طلبوا منى . ومع اننى وجدت الكثير من اقتراحاتهم متزمتا ، الا اننى كنت أقبل دائما الاقتراحات التى يظهرون فيها ولاءهم . ورغم اننى كنت أعيش حياة غريبة فى مستوطنة أجنبية الا اننى لم أنس قط مركزى وتذكرت ان " الامبراطور يجب ان يبقى امبراطورا " .

وعندما فاجأتنى زوجتى ون شيو بطلب الطلاق وحصلت عليه عام ١٩٣١ ، ولم يهمل المخضرمون مطالبتى بأن أصدر مرسوما بخفض درجتها من مرتبة زوجة امبراطور الى امرأة عادية ، وبالطبع استجبت .

ان طلاق ون شيو يذكرنى بعلاقتى الشاذة بها . فلم يكن السبب الذى هجرتنى من أجله مسألة عواطف بقدرما كان مسألة الفراغ الروحى فى حديقة تشانغ . فقد انصب اهتمامى الوحيد فى الحياة على اعادة الملكية . ولم أكن أعرف معنى للحب . وبينما كان الزوج والزوجة متساويين فى الزيجات العادية ، فان كلا من زوجتى وحظيتى كانتا عبدتين وأداتين لسيدهما .

لقد نشأت ون شيو منذ سنواتها المبكرة على التسليم بـ " الطاعات الثلاث والفضائل الأربع " الخاصة بالمرأة ، وبدأت حياتها كـ " عقيلة قصر " قبل ان تبلغ الرابعة عشرة فكانت افكار الولاء للعاهل والزوج مدفونة فى أعماقها . وحين تجرأت على طلب الطلاق على الرغم من هذا كله ، فقد برهنت على شجاعة كبيرة . لقد كان عليها ان تجتاز عقبات كثيرة للحصول على الطلاق ، وعوملت بعد ذلك معاملة سيئة . وقد قيل ان أسرتها حثتها على ذلك من أجل حقوق الطلاق الضخمة . ولكن المشاكل التى سببتها لها أسرتها كانت فى منتهى الايلام ، فقد حصلت على قدر ضئيل من الحقوق البالغة ٥٠ ألف يوان ، بعد ان دفعت ما دفعت الى محاميها والى الوسطاء ، وبعد ان أخذت أسرتها ما أخذته . ويمكن ان يضاف الى ذلك خسارتها النفسية التى كانت أسوأ بما لا يقاس .

وقد نشر أحد أشقائها رسالة مفتوحة فى احدى صحف تيانجين هاجمها فيها واتهمها بالتنكر لبيت تشينغ .

وشاع أخيرا ان ون شيو قد أجبرت على ذلك من " الامبراطورة " وان رونغ ، ومع ان هذه لم تكن هى الحقيقة بكاملها الاانها كانت بالتأكيد أحد أسباب رحيل ون شيو . ولا أعرف كثيرا عما حدث لها بعد طلاقها سوى انها أصبحت معلمة مدرسة ابتدائية ، وماتت عام ١٩٥٠ . ولم تتزوج ثانية .

الفصل الخامس

الى الشمال الشرقي

الحديقة الهادئة غير الهادئة

فى يوليو ١٩٢٩ انتقلت من حديقة تشانغ الى " الحديقة الهادئة " . وكان لهذا المنزل فى السابق اسم آخر ، وتغييره الى " الحديقة الهادئة " لم يكن خاليا من مغزى .

بعد الحملة الشمالية امتدت سلطة الكومينتانغ الى شمالى الصين . وأخذ أمراء الحرب الذين كنت على علاقة جيدة بهم فى الانهيار ، وأعلن الشمال الشرقى الذى كنت أعلق عليه الآمال الكبيرة تحالفه مع حكومة نانجينغ الوطنية . ويئس كل واحد فى حديقة تشانغ . وتبعثر بعض كبار الموظفين فى أسرة تشينغ ممن كانوا فى حاشيتى ، وبقى بعض الأعوان ملازمين لي . ولكن لم يبق ممن يتكلم عن اعادة الملكية الا تشنغ شياو شيوى ولوه تشن يوى وبضعة آخرين . والمسألة الوحيدة التى شغلت معظم هؤلاء الناس هى كيف ستعاملنى أسرة تشيانغ كاى شيك الجديدة . وانا نفسى كنت شديد القلق بخصوص ذلك .

ولكن قلقنا لم يستمر طويلا ، اذ سرعان ما رأينا الحروب الأهلية فى ظل حكومة نانجينغ الكومينتانغية تستمر كما كانت عليه فى ظل نظام أمراء الحرب فى بكين . و" التوحيد " الذى أنجزه تشيانغ كاى شيك بدا أكثر فأكثر خداعا ، وتجددت الآمال فى حديقة تشانغ . وخيل لنا ان مشروع التوحيد العظيم لا يمكن ان ينجزه أحد غيرى ، وهذا لم يكن فقط رأى الأعوان الكبار فى أسرة تشينغ ممن كانوا فى خدمتى بل وضباط الأركان اليابانيين الذين كانوا يأتون الى الحديقة الهادئة لاحاطتى علما بالتطورات

الجارية كل أسبوع . وكان الاسم الذى اخترته لمنزلي الجديد — الحديقة الهادئة — لا يعنى اننى أردت السلم والهدوء بل اردت به اننى عزمت على انتظار فرصتى بهدوء .

وهكذا بعد سنتين من الانتظار فى الحديقة الهادئة حصلنا على بعض الأخبار فى صيف ١٩٣١ .

قبل شهرين من "حادثة ١٨ سبتمبر" تلقى شقيقى الأصغر بو جيه الذى كان يدرس فى طوكيو ، والذى كان على وشك العودة الى الصين فى عطلة صيفية ، دعوة من قائد كتيبة يدعى يوشيوكا ياسونورى للمكوث معه بضعة أيام قبل العودة الى الصين ، وكان يوشيوكا سابقا ضابط ركن مع القوات اليابانية فى تيانجين وقد تردد كثيرا الى حديقة تشانغ ليلخص لي التطورات الجارية . وقوبل بو جيه بضيافة كريمة من الآمر يوشيوكا وزوجته . وعندما استأذنهما مودعا أخذه يوشيوكا جانبا وقال له : " عندما تصل الى تيانجين يمكنك ان تخبر شقيقك الكبير بأن تشانغ شيويه ليانغ قد تصرف مؤخرا تصرفا مشينا وان شيئا قد يحدث قريبا فى مانشوريا . أرجوك ان تطلب من الامبراطور شيوان تونغ ان يعتنى بنفسه : ان وضعه ليس ميئوسا منه . " وأخبرنى بو جيه بهذا عندما وصل تيانجين فى ١٠ يوليو . وفى ٢٩ يوليو جاء النبيل اليابانى ميتسونو كاتسوكونى لزيارتى ، واستقبلته بحضور تشنغ شياو شيوى وبو جيه . وخلال هذا اللقاء العادى قدم لي زائرى هدية فوق العادة : مروحة يابانية كتب عليها هذا البيت : " السماء لن تدع قو جيان يفشل . والدنيا لا تخلو من فان لى" (٣٦) .

وقام ميتسونو كاتسوكونى بزيارة بو جيه قبل عودته الى الصين وشرح له مغزى ذلك البيت . وكتب بو جيه الي يخبرنى بذلك . والبيت يشير الى قصة من قصص الحرب الأهلية فى اليابان بين الأسر الشمالية والجنوبية تتعلق بالامبراطور غودايقو الذى انتفض على المتغلب كاماكورا ، لكنه فشل وأسره

المتغلب المذكور ، ثم نفاه الى اوكي . غير ان الامبراطور استطاع فيما بعد ان يقهر كاماكورا بمساعدة أعوان من طراز فان لى وعاد الى كيوتو كما عاد الملك قو جيان الى دولة يوه . وكان ذلك بداية لعودة الملك الى كيمو . وهذا ما اراده ميتسونو من كتابة البيت المذكور ، ولو انه لم يذكر ما جرى فيما بعد للامبراطور غودايقو الذى طرد بعد ثلاث سنين فقط على يد متغلب آخر هو اشيكاجا تاكاوجى . وعلى اى حال فأنا لم أكن مهتما بالخلفية التاريخية بل بتلقى هذا التلميح من يابانى . وفى ذلك الوقت بدأت أزمة الشمال الشرقى تتضح ، وصرت أحلم فى ارتقاء العرش من جديد . وقد عزز هذا التلميح من حماسى فاندفعت الى العمل بغض النظر عما ان كان ذلك قد صدر عن مجرد اهتمام شخصى منه او بدفع من جهة رسمية .

ان الهجوم الذى شنته القوات اليابانية فى شنيانغ فى ١٨ سبتمبر وانسحاب القوات الصينية قد أثارا الحديقة الهادئة . فحالما سمعت هذا الخبر اشتقت الى الذهاب الى الشمال الشرقى ، ولكننى عرفت ان هذا كان مستحيلا من غير موافقة اليابانيين . وأخبرنى تشنغ شياو شيوى ان الوضع فى شنيانغ مايزال مضطربا ، ونصحنى بألا أكون متسرعا ، فعاجلا او آجلا سيدعونى اليابانيون لا محالة الى الذهاب ، وأفضل شىء فى اللحظة الراهنة هو ان أتصل بأكبر عدد ممكن من الناس . لذلك قررت ان أرسل ليو شيانغ يه ليرى الضباط اليابانيين الكبار فى الشمال الشرقى ، ومن بينهم أوتشيدا ياسودا (مدير سكة مانشوريا الجنوبية) ، وهونجوشيجرو (قائد جيش قواندونغ) . وأرسلت كذلك قهرمانى تونغ جى شيوى الى الشمال الشرقى للاتصال بكبار الأعوان فى أسرة تشينغ هناك . وفكر عضو آخر من حاشيتى هو شانغ يان ينغ ، بزيارة القادة العسكريين فى الشمال الشرقى الذين يعرفهم . وبعد ذهاب هؤلاء الثلاثة بوقت قصير تحققت نبوءة تشنغ شياو شيوى وجاء مبعوث من جيش قواندونغ اليابانى لرؤيتى .

ففى عصر يوم ٣٠ سبتمبر جاء الى الحديقة الهادئة مترجم من الحامية اليابانية فى تيانجين يدعى يوشيدا ليخبرنى بأن القائد اليابانى ، الفريق كاشى كوهوى يريدنى ان أذهب وحدي لأراه بخصوص مسألة هامة . فذهبت الى الثكنة اليابانية مفعما بالتوقعات السعيدة . وعندما وصلت الى الثكنة وجدت الجنرال كاشى ينتظرنى خارج باب منزله الأمامى . وكان فى قاعة الاستقبال اثنان يقفان باحترام : لوه تشن يوى لابسا ثوبا وسترة صينيين وآخر غريب بملابس غربية ، حزرت من انحناءته انه يابانى . وبعد ذلك قدمه الجنرال كاشى لي . كان اسمه كايسومى توشيتشى ، وكان مرسلا من العقيد اتاجاكى من هيئة أركان جيش قواندونغ . وبعد تقديمه انصرف الجنرال كاشى .

ولم يبق فى القاعة الا نحن الثلاثة . فحيانى لوه تشن يوى وقدم لي مغلفا يحتوى رسالة من شخص من ارحامى الابعدين ، اسمه شى تشيا كان رئيس أركان تشانغ تسوه شيانغ نائب مدير الأمن العام فى الشمال الشرقى وكان شى تشيا قد استغل فرصة غياب تشانغ تسوه شيانغ الذى كان ايضا حاكم مقاطعة جيلين وامر بفتح بوابات مدينة جيلين لاستقبال الجند اليابانيين الذين تمكنوا بذلك من الاستيلاء على جيلين دون اطلاق أية طلقة . وقد قال شى تشيا فى رسالته ان الفرصة التى ظل ينتظرها عشرين عاما (منذ ثورة ١٩١١) قد حانت أخيرا ، ورجانى ألا أفوت هذه الفرصة وأذهب حالا الى " الأرض التى ظهر فيها أسلافنا " لأتولى مسؤولية الخطة . وقال ايضا ان بوسعى ان أكسب الشمال الشرقى مع الدعم اليابانى ، ومن ثم أفكر فى بقية البلاد ، وحالما أصل شنيانغ ستعلن جيلين اعادة الملكية .

بعد ان انتهيت من قراءتى الرسالة كرر لوه تشن يوى فكرتها الرئيسية ، وأخبرنى بالتفصيل عن نشاطاته وعن " المساعدة الغير مغرضة " من جيش قواندونغ . وحسب كلامه يمكن لـ " اعادة الملكية " ان تتحقق فى الشمال الشرقى كله خلال أيام ، وأن " رعيتى " تتشوق الى عودتى ، وان جيش قواندونغ

قد وافق على ارتقائي العرش من الجديد وأرسل كايسومى لابلاغي بذلك . وان كل شيء قد أعد ، فليس علي الا ان اتحرك ، وسيحملني مركب يابانى الى داليان . وكان منفعلا غاية الانفعال وهو يتكلم بحيث احمر وجهه وارتعش جسده بكامله وجحظت عيناه .

ونظرت الى لوه تشن يوى وكايسومى وانا مضطرب . كان واضحا ان هذا اللقاء مع لوه مختلف عن أى لقاء سابق ، لاننا نتحدث الآن فى الحامية اليابانية بحضور مندوب جيش قواندونغ . هذا أولا ، وثانيا انه جاء برسالة من شي تشيا . وكنت فوق ذلك قد قرأت فى صحف داليان فى اليوم السابق ان "جميع الأوساط فى شنيانغ مستعدة للترحيب بأمبراطور تشينغ السابق" ، وكانت صحف تيانجين ملآى بأخبار عن انسحابات القوات الصينية فى الشمال الشرقى وعن مساعى بريطانيا فى عصبة الأمم للتستر على أعمال اليابان الشنيعة .

فأخبرت لوه وكايسومى اننى سأعطيهما جوابا بعد ان أفكر فى الأمر . من ثم ظهر الجنرال كاشي وقال اننى سأكون عرضة للخطر اذا انا مكثت فى تيانجين ، وانه يأمل فى ان آخذ بنصيحة العقيد اتاجاكى وأذهب الى الشمال الشرقى . وبدت لي هذه الكلمات صحيحة تماما ، فيما كنت متجها الى البيت فى سيارتى .

لكن حرارتى سرعان ما هبطت حين وصلت الى الحديقة الهادئة . وكان اول معارض للخطة هو سه يوان وتشى تسنغ شو (معلم وان رونغ الخصوصى) . وقد ردوا علي بأن لوه تشن يوى قد تهور كعادته وان على المرء الا يضع ثقته بمنتهى البساطة فى مبعوث هو مجرد عقيد . وقالوا ان الوضع فى الشمال الشرقى وموقف الدول الحقيقى وميول الرأى العام لم تتضح بعد ، ويجب ان أنتظر على الأقل حتى يعود ليو شيانغ يه من مهمته الاستقصائية قبل ان أتخذ أى قرار . فهززت رأسى فى جزع من هذه النصيحة المخيبة للأمل ، وقلت :

ـــ ان رسالة شي تشيا لا يمكن ان تكون هراء .

كان تشن باو تشن ذو الأربعة والثمانين عاما فى غاية الارتباك ، وقد تردد بعض الوقت ثم قال فى حزن :

ـــ كان أمل تابعك المتواضع على الدوام هو اعادة النظام القديم ، لأن من الطبيعي ان تستجيب السماء لرغبة الشعب . ولكن التسرع فى هذا الوضع المضطرب قد يعرضنا الى صعوبات يتعذر التغلب عليها !

ولما رأيت انى لا أستطيع اقناع هؤلاء الشيوخ أرسلت فى طلب تشنغ شياو شيوى فى الحال . وتخيلت ان تشنغ المفعم بالحيوية رغم عمره البالغ الواحدة والسبعين سيكون مسرورا بدعوة جيش قواندونغ ، وبرسالة شى تشيا . ولكن رده لم يكن كما أملت .

ـــ بعد تعاقبات المد والجزر الماضية يبزغ فجر جديد . ان اعادة الملكية ستتم بلا شك بدءا من مانشوريا ولن يحول شيء دون تحقيقها حتى وان لم يرحب اليابانيون بجلالتكم .

وبعد لحظة تفكير أضاف يقول :

ـــ ولكن سيكون آمن لجلالتكم ان تنتظروا عودة تونغ جى شيوى .

الخلافات بين اليابانيين

فيما كانت الفئات داخل الحديقة الهادئة ما تزال على خلاف ، جاء نائب القنصل اليابانى فى تيانجين فى اليوم التالى . لقد عرفت القنصلية كل شيء عن زيارتى للثكنة اليابانية . وفهموا مشاعرى وظروفى فهما تاما ، ولكنهم رأوا ان من الأفضل ان أتصرف بحذر وأمكث فى تيانجين فى ذلك الوقت . وبينوا لي انهم يقدمون هذا التحذير بوصفهم مسؤولين عن حمايتى .

ومنذ ذلك اليوم ونائب القنصل ينصحنى بالتريث اما شخصيا واما من

خلال تشن باو تشن وابن أخته او تشنغ شياو شيوى وابنه بينما ظل يوشيدا ، المترجم الملحق بالحامية اليابانية ، يخبرنى على الدوام بأن العسكريين اليابانيين مصممون على مساعدتى فى العودة الى العرش ويحاول اقناعى بالذهب الى الشمال الشرقى حالا .

واختلفت وجهة نظرى حول الجيش والحكومة اليابانيين عن وجهة نظر تشن باو تشن ، لقد اعتقد بأنه وفقا للنظام الطبيعى يجب ان يحكم المدنيون البلاد ، وطالبنى بالحاح ان أفعل ما يقوله العسكريون دون ان تكون هناك أية اشارة من طوكيو . أما رأيى فكان مختلفا . لقد رأيت ان مصيرى فى أيدى العسكريين لا الساسة . فالمسئولون اليابانيون يعلنون على العالم انهم مستعدون لحل " الخلافات الصينية اليابانية " سلما ، بينما جيش قواندونغ مستمر فى زحفه ومهاجمته للقوات الصينية المتراجعة . ومع اننى لم أفهم ان صيحات تشيانغ كاى شيك ووانغ جينغ وى الاحتجاجية عند تسليمهم أراضى الوطن للعدو لم تكن الا خداعا ، الا أننى استطعت ان أرى ان العنصر الحاسم فى الوضع هو العسكريون اليابانيون . وقد اشار تشن باو تشن الى ان موقف القوى الأجنبية المبهم يبعث على القلق ، ولكن رأيت انا ان بريطانيا على الأقل تدعمنى . فبعد زيارتى الى الثكنة اليابانية بوقت قصير جاء العميد ف . هـ . بورنل نوجنت ، قائد القوات البريطانية فى تيانجين ليرانى وقدم تهانيه الشخصية بالفرصة التى وفرتها لي " حادثة ١٨ سبتمبر " ، وقال انه سيكون فخورا بأن يخدم جنديا تحت امرتي اذا انا عدت الى العرش فى مانشوريا . وبعد ذلك بفترة قصيرة رأيت جونستون ثانية . وقيل انه أتى الى الصين فى هذه المرة بصفته مندوبا للخارجية البريطانية ، وإنتهز الفرصة ليزورنى . وكان مسرورا بخصوص " مستقبلى " ، وطلب منى ان أكتب مقدمة لكتابه « الشفق داخل المدينة المحرمة » . وقال انه سيضيف خاتمة بعنوان « التنين يعود الى البيت » .

كانت الأخبار التى حملها ليو شيانغ يه وتونغ جى شيوى لدى عودتهما

من الشمال الشرقى مشجعة نوعا ما . عاد تونغ جى شيوى أولا وقال ان رأى اعوان تشينغ الذين لقيهم فى شنيانغ هو أن الوقت مواتي وان علي ألا أتأخر فى السفر. وعندما عاد ليو شيانغ يه قال انه على الرغم من عدم تمكنه من رؤية اوتشيدا او هونجو ، الا انه قابل ضابط أركان جيش قواندونغ العقيد اتاجاكى وأحد كبار الأعوان فى الاسرة ، جين ليانغ ، وتأكد ان ما أخبرنى به لوه تشن يوى وكايسومى كان صحيحا تماما . لقد كان جين ليانغ يقول فى تفاؤل مفرط : " كل شيء فى فنغتيان جاهز واننا ننتظر فقط قدوم جلالتكم . " وكان قد ذهب الى جيلين أيضا ووجد حقا ان الجيش اليابانى مسيطر على المنطقة كلها ، وان شى تشيا وغيره مستعدون لاسناد " اعادة الملكية " فى اى وقت .

وبالاضافة الى هذا كانت هناك اشاعات جعلتنى أجزع من بقائى راكدا فى الحديقة الهادئة . كان صحفيو تيانجين سريعين فى التقاط الأخبار ، فسرعان ما انتشر خبر زيارتى للثكنة اليابانية ، حتى ان بعض الصحف قالت اننى قد ذهبت الى الشمال الشرقى فى القارب . كما ظهرت اشاعات اخرى من مصدر غير معروف تقول ان الصينيين يخططون لاتخاذ اجراء ما ضدى . وأصبحت أكثر اقتناعا مما سبق بأنه لم يعد من الممكن ان أمكث فى تيانجين .

وأرسلت تشنغ تشوى ، ابن تشنغ شياو شيوى ، ليقول للقنصل اليابانى انه وان لم يكن الوقت قد حان لذهابى الى شنيانغ فليس من ضير فى ذهابى الى ليوشون أولا ، حيث سأكون هناك أكثر أمنا . فأجاب القنصل على الفور بأنه لاحاجة لذهابى الى ليوشون ، وطلب من تشنغ تشوى ان يخبرنى بأن أوتشيدا ياسودا لا يمكن ان يوافق على انتقالى فى الوقت الحاضر . ونظر الى ان اوتشيدا سياسى محنك يحظى باحترام عظيم لدى الجيش فسيكون من الأفضل التصرف بحذر . اما بالنسبة لأمنى فانه مستعد لتحمل المسؤولية كاملة . وانتهى القنصل الى القول بأنه نوى ان يتبادل وجهات النظر مع قائد الحامية ،

الجنرال كاشي . وفي اليوم التالى جاء نائبه ليخبر تشنغ تشوى بأنه هو والجنرال قد اتفقا على ان أيا منهما لا يؤيدنى فى مغادرة تيانجين حالا .

وجعلتنى هذه المعلومات أشعر بالاضطراب ، ودعوت مترجم الحامية ليوضح لي الوضع ، فأدهشنى عندما أخبرنى بأن اللقاء بين القنصل وقائد الحامية لم يتم قط وان الجنرال كاشي يريدنى ان أغادر مع كايسومى حالا . واقترح علي ان أكتب رسالة الى قيادة الحامية أبين فيها بوضوح اصرارى على الذهاب . فكتبت الرسالة . وبطريقة ما سمع القنصل اليابانى بذلك ، وخف لرؤية تشن باو تشن وتشنغ شياو شيوى ليتأكد ان كنت حقا قد كتبت هذه الرسالة .

انزعجت انزعاجا شديدا لهذا الخلاف بين السلطات اليابانية المدنية والعسكرية ، ولكن لم أعرف كيف أتصرف ازاء ذلك . وعندها جاءت رسالة من ليو شيانغ يه الذى ذهب الى الشمال الشرقى ثانية قال فيها انه اكتشف الافكار الحقيقية لهونجو ، قائد جيش قواندونغ : فنظرا الى ان مقاطعات الشمال الشرقى الثلاث لم تصبح كلها الى الآن تحت سيطرة الجيش اليابانى ، فان من الأفضل الانتظار الى ان توحد هذه المقاطعات وتستقر . ولما كان هذا هو رأى صاحب الكلمة العليا فى مصيرى ، فلم يبق عندى خيار الا ان أطيعه وأنتظر . وأدركت الآن انه بالاضافة الى اختلاف الرأى بين القنصل والحامية فى تيانجين كان هناك نزاع داخل جيش قواندونغ .

وبعد ان أخبرت لوه تشن يوى وكايسومى بأننى لن أغادر فى الوقت الراهن ، مكثت أترقب الأخبار فى ايام كأنها سنين . وأصدرت حينها عددا من " المراسيم الامبراطورية " وأرسلت ابنى اخى ، شيان يوان وشيان جى ، الى الشمال الشرقى لاستمالة بعض الأمراء المغول وتقديم هدايا اليشب الى تشانغ هاى بنغ وقوى فو اللذين كانا من اوائل المستسلمين لقوات الاحتلال اليابانى . وبناء على طلب ضابط يابانى كتبت رسائل الى ما تشان شان الذى رفض الاستسلام والى بعض الأمراء المغول الذين استبسلوا فى المقاومة أدعوهم للاستسلام .

ووزعت عليهم الألقاب ، وأعددت احتياطيا كبيرا من مراسيم التعيين فى مناصب رسمية مع ابقاء اعمدة شاغرة للأسماء .

ويجب أن أذكر اننى عملت فى ذلك الوقت بموجب اقتراح من تشنغ شياو شيوى الذى أصبح أقل حذرا حينذاك ، وأرسلت معلم شقيقى اليابانى الى اليابان ليجرى اتصالا بوزير الجيش الجديد مينامى جيرو وقائد جمعية التنين الأسود تویاما میتسورو . وكتبت لكل منهما رسالة نسخت كلا منهما عن مسودتين وضعهما تشنغ شياو شيوى (انكرت فيما بعد موثوقيتهما امام المحكمة العسكرية الدولية للشرق الأقصى) وبعد ثلاثة أسابيع قابلت ، دويهارا ، ضابط أركان جيش قواندونغ ، وتقرر ان أذهب الى الشمال الشرقى .

لقاء دويهارا

ومن بين الخمسة والعشرين من مجرمى الحرب الذين حاكمتهم المحكمة العسكرية الدولية للشرق الأقصى تبين ان المجرمين المسؤولين عن أكثر الجرائم هما دويهارا واتاجاكى . وكانت التهم الموجهة ضدهم متشابهة الى حد ما ، وقد شملت سبع "جرائم ضد السلم" الى جانب أخطر "جرائم الحرب العادية والجرائم المرتكبة ضد الانسانية" وفى مقدمتها "الأمر والسماح بانتهاك المعاهدات" . وقد شنقا عام ١٩٤٨ .

كان دويهارا عسكريا جنى ثروات طائلة من اعمال العدوان على الصين. وكان قد جاء الى الصين لاول مرة عام ١٩١٣ وعمل مساعدا لاحد قادة جيش قواندونغ اليابانى ولأمراء الحرب فى الشمال الشرقى طوال عشر سنوات ونيف . وكان دويهارا على علاقة حميمة بتشانغ تسوه لين . ولكن عندما قرر جيش قواتدانغ تصفية تشانغ عام ١٩٢٨ اشترك هو فى تحقيق هذه المهمة . وبعد ذلك بوقت قصير رفع الى رتبة عقيد ، وأصبح مسؤولا عن منظمة سرية

فى شنيانغ . وكانت له ما بين ١٩٣١ الى ١٩٣٥ ادوار فى كثير من المؤامرات اليابانية ضد الصين ، كالتخطيط لاثارة الفتن ، وانشاء سلطات محلية عميلة ، واثارة الاقتتال .

وبعد مدة قصيرة قضاها دويهارا قائد فيلق أصبح مسؤولا عن قيادة منظمة سرية لجيش قواندونغ . ثم تحول بعد " حادثة ٧ يوليو " ١٩٣٧ من العمل السرى الى العمل العسكرى المكشوف بصفة قائد فرقة اولا ، ثم قائد للجيوش اليابانية فى الصين وجنوب شرقى آسيا .

وبسبب القصص الغامضة التى أشيعت عنه وصفته الصحافة الغربية بلقب " لورنس الشرق " تشبيها له بالجاسوس الانكلزى المعروف . وقالت الصحف الصينية انه كان يرتدى الملابس الصينية ويتقن الكلام بعدة لهجات صينية . ولكن نشاطاته فى الحقيقة لم تكن فى حاجة الى قدر خارق من الاحتيال الذى عرف به لورنس ، ففى مهمة من قبيل اقناعى بالتوجه الى الشمال الشرقى لم يكن فى حاجة الى اكثر من القدرة على اعطاء وجهه ملامح الجد والصدق . وعندما قابلته لم يكن يلبس ملابس صينية بل فرنجية يابانية الطراز ، ولم يكن فى صينيته التى يتكلمها شيء مدهش ، فقد كان مضطرا الى الاعتماد على يوشيدا مترجم الحامية اليابانية فى تيانجين ليتأكد من عدم حصول سوء فهم .

كان حينذاك فى الثامنة والأربعين ، وكانت محاجر عينيه فى حالة ترهل . وله شارب صغير على شفته العليا ، وقد علت وجهه خلال مقابلتنا كلها ابتسامة لطف واحترام . وكانت هذه الابتسامة كافية لأن تجعلنى أثق بكل كلمته يقولها .

وبعد سؤال مهذب عن صحتى دخل فى الموضوع الرئيسى . فوضح لي أولا النشاط اليابانى ، وقال انه يستهدف فقط معالجة أمر " المشير الشاب " تشانغ شيويه ليانغ الذى أصبح " أهالى مانشوريا تحت حكمه فى حالة فقر شديد ، وليس لدى اليابانيين أية وسيلة لضمان حقوقهم وأمنهم ، غير اتخاذ

اجراء عسكرى". وادعى ان ليس لجيش قواندونغ أية مطامع فى أراضى مانشوريا بل " هو يريد بكل صدق مساعدة أهالى مانشوريا على انشاء دولتهم المستقلة " . ورجانى ألا أفوت هذه الفرصة وأعود سريعا الى الأرض التى ظهر منها أسلافى لأتولى قيادة الدولة الجديدة . وستوقع اليابان اتفاقية دفاع متبادل مع هذا البلد وستحمى سيادته وسلامة أراضيه . وبوصفى رئيسا لهذه الدولة سأكون قادرا على تولى مسؤولية كل شىء .

ومنعتنى نبرته الودود وابتسامته المفعمة بالاحترام وسمعته ومركزه من ان أتخذ ازاءه نفس الموقف الذى اتخذته من لوه تشن يوى وكايسومى . وبدت لي الآن مخاوف تشن باو تشن من ان كايسومى لا يمثل جيش قواندونغ وان جيش قواندونغ لا يمثل الحكومة اليابانية دون أساس . فقد كان دويهارا شخصا هاما فى جيش قواندونغ ، وقد أكد على نحو لا غموض فيه ان " جلالة الامبراطور (امبراطور اليابان) يثق بجيش قواندونغ " .

وظلت هناك مشكلة كبيرة واحدة تقلقنى . فسألته :

ـ ما هو الشكل الذى ستتخذه الدولة الجديدة ؟

ـ كما قلت قبل لحظة ستكون دولة مستقلة ذاتية الحكم ، وستكون تحت سيطرة جلالتكم كليا .

ـ هذا ليس ما سألت عنه . أريد ان أعرف ماذا ستكون ، جمهورية ام ملكية ؟

ـ هذه المشكلة ستحل بعد مجيئكم الى شنيانغ .

فقلت فى اصرار :

ـ كلا ، لن أذهب الا اذا كانت ستتم اعادة الملكية .

فابتسم ابتسامة خفيفة وأجاب دون أن يغير نبرة صوته :

ـ طبعا ستكون ملكية ، لا شك فى ذلك .

ـ حسن جدا . ان كانت ستصبح ملكية فسوف أذهب .

— فى تلك الحالة يجب ان أطلب من جلالتكم المغادرة بأسرع ما يمكن ، وان تكونوا فى مانشوريا قبل اليوم السادس عشر دون تأخر . ويمكننا ان نناقش التفاصيل فى شنيانغ . ويوشيدا يمكن ان يرتب رحلتكم .

وتمنى لي رحلة مصحوبة بالسلامة ، وانحنى لي فى أدب كما فعل من قبل . وانتهت بذلك مقابلتنا . وبعد ان غادر قابلت جينغ ليانغ الذى جاء معه . فجلب لي أخبارا من بعض كبار الأعوان فى أسرة تشينغ فى الشمال الشرقى تفيد انهم استطاعوا كسب ولاء جيش الشمال الشرقى السابق . فشعرت انه لم تبق عقبات فى طريقى .

وبعد رحيل دويهارا طلب منى يوشيدا ، مترجم الجيش اليابانى ، ألا أخبر القنصل بهذه المقابلة وهو سيرتب أمر رحلتى الى داليان . فقررت ألا أناقش المسألة الا مع تشنغ شياو شيوى ، ولكن نظرا الى ان خبر مقابلتى مع دويهارا قد انتشر فى الصحف فى اليوم التالى مما كشف النقاب عن مؤامرة دويهارا ، فقد اضطررت ان أرد على نصح ونقد كثير من الجهات . وبدا تشن باو تشن مذعورا فوعدت بالمداولة مع عدد آخر من مستشاري المقربين .

بعد ثلاثة أيام من زيارة دويهارا وافقت على رؤية مبعوث من حكومة تشيانغ كاى شيك فى نانجينغ ، عرض اعادة بنود المعاملة التفضيلية واقرار دفع مبالغ سنوية او مبلغ اجمالى دفعة واحدة مقابل ان أقيم فى اى مكان ما عدا اليابان او الشمال الشرقي . ولكننى تذكرت انتهاك جنود الكومينتانغ للمدفن الشرقى ، كما تذكرت تشيانغ كاى شيك الذى لم يكن موضع ثقة ، وشككت فى انه ليس مهتما الا بابقائى بعيدا عن اليابانيين للحفاظ على ماء وجهه ، وسأصبح عاجزا بمجرد وضعى تحت سيطرته . وبالاضافة الى ذلك ، ماذا كان اللقب الامبراطورى الذى يعرضه علي يساوى بالقياس الى العرش الامبراطورى الذى وعدنى به دويهارا ؟ وكيف يمكن لمبلغ من النقود ان يكون أكثر اغراء من الشمال الشرقي بكامله ؟ فأعطيت المبعوث جوابا غير

واضح ، وعندما جاء ثانية ليرانى كنت قد غادرت تيانجين .

بالاضافة الى الزوار الكثيرين الذين حاولوا ان يقدموا لي نصائح صادقة او يستقصوا عني تلقيت كذلك مقادير وافرة من الرسائل . وقد تضمنت بعض الرسائل نصائح وتحذيرات وكان منها رسالة من أحد أبناء عشيرتى ، آيشين — جيولوه ، رجانى فيها ألا " أضم قاطع طريق الى حضنى " ، ونصحنى الأأضيع كرامة الصينيين . ولكننى كنت محلقا بعيدا جدا بحلمى فى اعادة الملكية بحيث لم ينفع معى اى تحذير . وبالطبع لم أعبر عن مشاعرى الحقيقية امام الناس . وفى مقابلة مع صحفى فى تيانجين أنكرت بشدة ان تكون لدى أية نية بالذهاب الى الشمال الشرقى ، ولكنى كنت مبحرا على متن مركب يابانى قبل ان تصدر الصحيفة .

قبل يومين من رحيلى عن تيانجين وقعت حادثة أجد من الضرورى ان أذكرها . فقد هرع الى غرفتى مساعد شخصى يدعى تشى جى تشونغ هو يصيح :

— قنبلتين ، قنبلتين ! . . .

وكنت جالسا فى أريكة، فأخافنى هذا الخبر خوفا عجزت معه عن النهوض. ومن خلال الاضطراب الذى تلا ذلك اكتشفت ان غريبا قد جاء بهدية مع بطاقة من مستشار سابق لهيئة القيادة العامة لقوات الأمن فى الشمال الشرقى ووضعها على الطاولة ثم اختفى على الفور . وعندما فحصها تشى جى تشونغ عثر فيها على قنبلتين داخل سلة فاكهة .

وقبل ان يخف الهياج وصل البوليس اليابانى وضباط الجيش اليابانيون واخرجوا القنبلتين . وفى اليوم التالى اخبرنى المترجم يوشيدا انه ثبت بالتحقيقات ان القنبلتين قد انتجتا فى مصنع الاسلحة التابع لتشانغ شيويه ليانغ .

ونصحنى يوشيدا :

— ينبغى لجلالتكم ألا تستقبلوا اى غريب بعد ذلك ، وكلما اسرعتم

فى المغادرة كان ذلك افضل :

— حسن جدا . ارجو ان تقوموا بالترتيبات بأسرع ما يمكن .

— اجل يا صاحب الجلالة . آمل ألا تخبروا احد بذلك ان لم يكن يعنيه الامر مباشرة .

— لن اخبر احدا سآخذ فقط تشنغ شياو شيوى وابنه واثنين من المساعدين .

وخلال هذه الايام تلقيت عددا من رسائل التهديد ومكالمة هاتفية رد عليها مساعدى الشخصى تشى جى تشونغ . ووفقا لما قاله تشى ، فان المكالمة جاءت من نادل في مقهى فيكتوريا حذرنى فيها من ان أذهب الى ذلك المكان وآكل فيه فى الوقت الحاضر ، لأن بعض " المريبين " يقوم باستجوابات عنى . ومضى هذا النادل الحذر يقول بوضوح ان تلك الشخصيات المريبة بدت كأنما لديها أسلحة تخفيها داخل الثياب . وأكثر ما كان مدهشا فى ذلك هو انه تمكن من معرفة انهم قد ارسلوا من لدن تشانغ شيويه ليانغ .

ولا أعرف من كان ذلك النادل ، هذا اذا كان له وجود اصلا . ولكن المساعد تشى جى تشونغ الذى كان قد نقل الي خبر القنبلتين صحبنى من بكين الى تيانجين وهو تابع أمين كان من المفضلين عندي وواحدا من المساعدين الشخصيين الثلاثة الذين صاحبونى الى الشمال الشرقى ، ولا شك فى انه ساعد تشنغ شياو شيوى واليابانيين للحصول على معلومات دقيقة واضحة عن نشاطاتى ومزاجى . وقد أرسلته الى أكاديمية عسكرية فى اليابان ليحصل بعدها على رتبة لواء فى جيش شمالى الصين العميل الى ان اعدم بعد التحرير لنشاطاته المعادية للثورة .

وبعد القنبلتين ورسائل التهديد والمكالمة الهاتفية وقعت " حادثة تيانجين " . وهذه كانت احدى " مآثر " دويهارا . لقد استحث اليابانيون بصورة منتظمة عملاءهم الصينيين على القيام باضطرابات عنيفة فى اجزاء المدينة الأخرى التى تحت الادارة الصينية . واعلنت حينذاك حالة الطوارئ فى منطقة الامتيازات

اليابانية وقطعت المواصلات بينها وبين اجزاء المدينة الأخرى . وانطلقت سيارات مصفحة لكي " تحمي " الحديقة الهادئة مما جعلها حينذاك معزولة عن العالم الخارجي . وكان الشخصان الوحيدان المسموح لهما لدخول والخروج تشنغ شياو شيوى وابنه تشنغ تشوى .

ولدى عودتي الآن بذاكرتي الى الوراء اعتقد ان السبب الذى جعل دويهارا يستعجل ذهابي الى الشمال الشرقي كل تلك العجلة ربما يكون لان الضباط الشباب في جيش قواندونغ كانت لهم حاجة ملحة في التغلب على زمرة منافسة . ولئن كان ذلك لمجرد انه خشي ان أغير رأيي ، فلقد بالغ في تقدير نفوذ حاشيتي علي . لقد قررت ان أذهب ، حتى ان من تبقى من المستشارين الذين كانوا مؤيدين لتشن باو تشن قد بدأوا يؤيدون التعاون النشيط مع اليابان ، مع انهم ما يزالون حتى تلك اللحظة غير واثقين بالجيش الياباني ثقة كبيرة ويرون ان من الأفضل التعامل مع الحكومة اليابانية . ومع ذلك كانوا أكثر مني رغبة في عدم اضاعة هذه الفرصة . ولكنهم خافوا من ان خدمة اليابان قد لا تجلب الا الخزى ولا تعود بأية مكافآت تعويضية . وكان الشرط الذى اقترحوا بمقتضاه وجوب تعاوني مع اليابان هو ان يكون لي الحق في القيام بالتعيينات . لقد كانوا يخشون ألا يتمكنوا من ان يصبحوا موظفين كبارا فيما بعد . وكانوا على استعداد تام للمساومة على شرف الوطن ومصالحه الاقتصادية مقابل الحصول على مراكز .

العبور السرى لنهر باى

كان علي ان أغادر الى الشمال الشرقي في ١٠ نوفمبر ١٩٣١ . ووفقا للخطة تعين علي ان أتسلل خارجا من البوابة الرئيسية للحديقة الهادئة في ذلك المساء دون ان يراني أحد . وهذا بعث في نفسي كثيرا من القلق . ففكرتي

الاولى كانت ان لا أخرج من البوابة الرئيسية ، بل ان أطلب من سائقى فى اللحظة الأخيرة ان يخرج من بوابة المرأب . وعندما أرسلت أوثق مساعدى الشخصيين ، لي الكبير ، ليذهب ويرى ان كان ممكنا فتح باب المرأب أبلغنى بأنه لم يستخدم منذ وقت طويل وان ظاهره من الخارج قد غطى بالاعلانات . وكانت الوسيلة التى استخدمتها فى النهاية هى تلك التى اقترحها تشى جى تشونغ . فاختبأت فى مؤخرة السيارة المعدة للأمتعة ، وقام واحد من خدمى بدور السائق وجلس تشى جى تشونغ بجانبه ، وهكذا غادرنا الحديقة الهادئة .

وفى نقطة غير بعيدة عن البوابة الرئيسية كان المترجم يوشيدا ينتظرنا فى سيارة أخرى ، وعندما رأى سيارتنا تخرج من البوابة مشى خلفنا بمسافة معقولة .

كان هذا هو اليوم الثالث من اضطرابات تيانجين ، وكانت هناك حالة من الحكم العرفى فى منطقة الامتيازات اليابانية والمنطقة المجاورة الصينية الادارة . ولا أستطيع ان أجزم ان كانت تلك الاضطرابات والحكم العرفى متعمدة ام انها مصادفة ، ولكنها هيأت لي أكثر الظروف ملاءمة لهربى . حيث لم يكن يسمح لأية عربة صينية بالمرور . وحين أوقف الجنود اليابانيون سيارتى عند حاجز فى الطريق ، تركونا نمر بعد ان لوح لهم المترجم بيده . ورغم قلة كفاءة سائقى (اول شيء فعله بعد الخروج من الحديقة الهادئة انه اصطدم بعمود كهربائى وأدى الى ارتطام رأسى على نحو مؤذى) ، الا اننا تمكنا من الوصول الى المطعم اليابانى الذى تواعدنا فيه .

وبعد ان توقفت السيارة أمر تشى جى تشونغ السائق بالعودة ، وفتح المترجم مؤخرة السيارة وساعدنى على الخروج ، ثم دخل معى الى المطعم . وهناك كان ينتظرنا ضابط يابانى ، فأخرج معطفا عسكريا يابانيا وقبعة وألبسنى اياهما . ثم رافقنى مع المترجم فى سيارة عسكرية يابانية سارت بنا مباشرة الى رصيف على ضفة نهر باى دون ان يعترضنا اى عائق . وساعدانى على الخروج من السيارة .

وعندما رأيت اننا لم نعد داخل منطقة الامتيازات اليابانية شعرت بالخوف الشديد . فقال لي المترجم يوشيدا بصوت خافت ان ذلك ليس هاما لأننا الآن داخل منطقة الامتيازات البريطانية .

وأسرعت على امتداد الرصيف الأسمنتي مسنودا من جانبي بالضابطين الى ان ظهر أمامنا زورق بخاري صغير غير مضاء . ولمحت في داخل مقصورة الزورق تشنغ شياو شيوى وابنه تشنغ تشوى ، فشعرت بالاطمئنان . وكان هناك أيضا ثلاثة يابانيين ، أحدهم كايسومي الذى قابلته فى الحامية والثانى سمسار يدعى كودو تيتسوسابورو عمل سابقا لصالح النبيل المغولى شنغ يون . وأخبرنى الربان ان هناك عشرة جنود على متن المركب لحمايتى . وكان المركب تابعا لقسم النقل فى الحامية ، وقد ملىء خصيصا بأكياس الرمل وصفائح فولاذية من أجل هذه " المهمة " . بعد عشرين سنة تقريبا قرأت مذكرات كتبها كودو تيتسوسابورو فى المجلة اليابانية « بنغوى شونجو » ذكر فيها انه كان هناك برميل نفط كبير مخفى داخل المركب ، واننا اذا ما اكتشفتنا القوات الصينية وعجزنا عن الهرب منها ، فان الجنود اليابانيين سيشعلون به النار ويدمرون المركب بمن عليه . وفى ذلك الوقت كنت على بعد بضع أقدام فقط من هذا البرميل عندما ظننت اننى كنت أكثر فأكثر قربا من " السعادة " .

عاد المترجم والضابط اللذان رافقانى حتى المركب الى الشاطىء ، وغادر المركب الرصيف . وتأملت الشاطىء فى ضوء مصابيح المركب ، ثم تجولت بنظرى فى انحاء النهر فغمرتنى احاسيس لذيذة . لقد سبق لي ان جئت الى نهر باى فى وضح النهار عدة مرات ، بل ، وبدأت أحلم به فيما كان مستقبلى ييمم شطر الجانب الآخر من المحيط . اما وانا الآن أبحر حقا فقد سيطرت على حالة اهتياج لم أجد الكلمات التى أعبر بها عنها .

غير ان هذا الشعور بالسعادة كان لا يزال مبكرا ، فقد عرفت من تشنغ تشوى اننا بمجرد خروجنا من مناطق الامتيازات الأجنبية سندخل فى دائرة

السلطة الصينية وربما نواجه قوات صينية هناك .

وقفز قلبي الى فمي ، وبدا كل من حولي واجما . وبعد ساعتين من الصمت التام ، انبعثت فجأة صيحة من ضفة النهر : " قف ! "

واستلقيت على الأرض مشاولا كأنما أعصابي كلها قطعت . وصعد الجنود اليابانيون من مقصورة المركب الى سطحه ، ومن السطح سمعت الأوامر تعطى بصوت خافت ، كما سمعت وقع خطوات .

ورأيت عبر النافذة جنودا خلف كل كيس من أكياس الرمل مستعدين لاطلاق النار . وبدا ان القارب يبطىء سيره ويتجه الى الضفة . وأطفئت الأضواء وانبعث من الشاطىء ازيز بندقية . وعلى الفور تقريبا دوى المحرك ، واندفع المركب الى الأمام مبتعدا عن الضفة . وأخذ يخبو صوت الطلقات والصيحات على الشاطىء شيئا فشيئا . ونجحت الخطة اليابانية . لقد اتجهوا فى البداية نحو الضفة كأنما استجابوا للأوامر ، ومن ثم ارتدوا هاربين ، مفاجئين بذلك الجنود الواقفين على الضفة .

وبعد لحظة أشعلت الأنوار فى المركب ثانية ، واستعاد جو المركب حيويته . وفى منتصف الليل وصلنا مصب النهر عند داقو . وفيما كنا ننتظر الباخرة " أواجى مارو " أخرج الجنود اليابانيون حساء ميزو وملفوفا مع مخلل (طرشى) ومشروبا يابانيا يدعى ساكي وازداد تشنغ شياو شيوى حيوية وبدأ يتحدث عن الروابط العريقة والثقافية بين الصين واليابان ، كما ارتجل بعض القصائد واصفا هذه الحادثة بأنها جزء من " مغامرة بطولية " .

على ان هذا لم يكن السبب الوحيد للابتهاج فى ذلك المساء ، فقد أدرك هو قبل اى مستشار آخر انه تحت سطح الخلاف القائم بين الجيش والحكومة اليابانيين تكمن الوحدة . ومع انه لم يوضح عن تلك الحقيقة فى حينها فقد كتب فى يومياته بعد يوم من زيارة دويهارا لي ان القنصل اليابانى اخبر ابنه تشنغ

تشوى بأن الهدف من زيارة دويهارا هو دعوتى الى شنيانغ وان القنصل كان يتظاهر بأنه لا يعرف شيئا عن ذلك .

معزولا

على متن المركب " أواجى مارو " ظل تشنغ شياو شيوى يتحدث طوال النهار عن طموحه فى ان يحكم البلاد ، وفى صباح اليوم الثالث عشر وصلنا الى رصيف سكة جنوبى مانشوريا فى ينغكو بمقاطعة لياونينغ .

لم أفكر قط بالسبب الذى دعانا الى النزول فى ينغكو كى نذهب الى شنيانغ ، فما كنت أفكر فيه فقط هو كيف سيستقبلنى أهالى الشمال الشرقى فى الميناء . وتخيلت انه سيكون هناك حشد سيحييني بنفس الحفاوة التى لقيتها عندما ذهبت الى المدرسة الابتدائية اليابانية فى تيانجين — أناس يلوحون بالأعلام ويهتفون . ولكن كلما اقترب المركب من الرصيف كانت أخيلتى تتراجع . فلم يقع نظرى على حشود ولا أعلام وعندما نزلت الى الشاطىء وجدت ان الحفنة التى جاءت لاستقبالى كلها من اليابانيين .

وعندما قدمت اليهم علمت أنهم أرسلوا جميعا من لدن العقيد اتاجاكى وانهم تحت قيادة أماكاسو ماساهيكو . وهذا الشخص لم يشتهر اسمه فى الصين ، ولكنه كان سيء السمعة فى اليابان . ففى اثناء الزلزال الكبير لعام ١٩٢٣ اراد الجيش انتهاز الارتباك الناجم عن النكبة لتوجيه ضربه لليسار فتولى اماكاسو قتل التقدمى اوسوجى وزوجته وابنه بنفسه . وقد أجبر الرأى العام الجيش على جعله كبش فداء والحكم عليه بالسجن مدى الحياة فى محكمة عسكرية ، ولكن سرعان ما أطلق سراحه وأرسل للدراسة فى فرنسا . وكان الموضوعان اللذان اختارهما هناك هما الفن والموسيقى . وبعد بضع سنوات عاد الى اليابان وأسندت اليه مهمة فى منظمة سرية لجيش قواندونغ . ووفقا لما

جاء فى كتاب نشر فى اليابان بعد الحرب العالمية الثانية فان الانفجار على الخط الحديدى فى ليوتياوقوه ، الذى كان أدى الى " حادثة ١٨ سبتمبر ١٩٣١ " هو من عمل أماكاسو هذا . ولكني عندما قابلته على رصيف ينغكو لم أتصور قط ان هذا الرجل المهذب الذى يضع على عينيه نظارة وقورة ، له مثل ذلك الماضى العجيب ، او أنه من دون جهده ربما لم يكن بوسعى أبدا ان أذهب الى الشمال الشرقى .

أخذنا أماكاسو أنا وتشنغ شياو شيوى وتشنغ تشوى الى عربة كانت فى انتظارنا ، وأقلتنا العربة الى المحطة . وبعد ساعة تقريبا نزلنا من القطار الى عربة أخرى . ودون ان يقدم الينا أى توضيح عن الرحلة وصلت الى ناحية تانغقانغتسى وهى مصح يقع حول ينبوع دافىء ، ودخلت فندق دويتسويقه وقلبي عامر بالشكوك .

كانت تدير هذا الفندق شركة سكك حنوبى مانشوريا اليابانية ، وهو مؤلف من مبنى غربى على الأسلوب اليابانى ومؤثث بأثاث فاخر . وكان مخصصا لضباط الجيش اليابانى والموظفين الكبار فى سكة جنوبى مانشوريا وللبيروقراطيين الصينيين . واخذت الى قاعة استقبال كبيرة فى الطابق الأول حيث كان فى انتظارنا لوه تشن يوى وشانغ يان ينغ وتونغ جى شيوى . وبعد ان حيانى لوه تشن يوى أخبرنى انه قد وصل الى نصف الشوط فى تدارس اعادة الملكية وتأسيس دولة جديدة مع جيش قواندونغ ، ووضح انه لن يكون من الملائم ان يتسرب خبر وصولى قبل انتهاء المداولات ، وسيكون من الخطأ أيضا اذا شوهد أى منا فى الخارج فيما عداه هو . ولم أفهم المغزى الحقيقى لهذا الأمر ، ورأيت ببساطة اننى قد اكتشفت الآن لماذا لم يأت أحد لاستقبالى . وكنت أظن ان المحادثات مع جيش قواندونغ لن تخلق أية مشكلة وانه سيعلن عما قريب اننى ، أمبراطور أسرة تشينغ العظيمة ، قد عدت الى العرش في قصر أسلافي فى شنيانغ . وأثارتني هذه الفكرة بشدة بحيث لم

أنتبه لتعابير القلق التي ارتسمت على وجهي تشنغ شياو شيوى وتشنغ تشوى .
وتناولت بكل سرور وجبة عشاء على الطراز الياباني وتطلعت من النافذة الى الغروب الجميل ثم رقدت مطمئن البال .

وفي الصباح التالى اكتشفت ان فرحتي كانت سابقة جدا لأوانها . فبعد ان غسلت وجهي استدعيت مساعدى تشي جي تشونغ وقلت له اننى أريد ان أخرج للتمشي والتمتع بالمناظر الطبيعية . فقال تشي جي تشونغ وعلى وجهه ملامح قلق :

ـــ ليس هذا ممكنا . انهم لن يدعوا أحدا يخرج .

فسألت فى دهشة :

ـــ لم لا ؟ من قال ذلك ؟ انزل الى الأسفل واسأل .

ـــ انهم لن يسمحوا لنا حتى بالنزول الى الأسفل .

وتبين لي اننى معزول فى فندق دويتسويقه : فالغرباء منعوا من الاقتراب من الفندق ، ونزلاء الطابق السفلى منه لم يسمح لهم بالصعود الى الطابق الأول الذى كنت أسكن فيه مع حاشيتي . والذى حيرنى أشد الحيرة هو عدم السماح لنا بالنزول الى الأسفل . وأرسلت فى طلب لوه تشن يوى ولكن لم يعرف أحد أين ذهب ، واستاء تشنغ شياو شيوى وابنه استياء شديدا وطلب منى ان أطلب توضيحا من اليابانيين . وكان معنا من الضباط اليابانيين الكبار كايسومى وأماكاسو ، وعندما جلب تشي جي تشونغ كايسومى لرؤيتى وقال لي بالصينية بلكنة يابانية وهو يبتسم :

ـــ هذه احتياطات أمنية ، احتياطات أمنية لجلالتكم .

فسأله تشنغ شياو شيوى :

ـــ كم سنمكث هنا ؟

ـــ ذلك يعتمد على العقيد اتاجاكى .

ـــ ماذا عن شي تشيا والآخرين ؟ ألم يقل لوه تشن يوى أن شي تشيا سيأخذني

الى فنغتيان ؟

ــ ذلك أيضا يتوقف على العقيد اتاجاكى .

فسأله تشنغ تشوى :

ــ أين لوه تشن يوى ؟

ــ ذهب الى فنغتيان لرؤية العقيد اتاجاكى . انهم ما يزالون يتناقشون حول الدولة الجديدة ، وعندما يصلون الى اتفاق سيأتى لوه ويأخذ جلالتكم الى فنغتيان .

فابتعد تشنغ تشوى وعلى وجهه ملامح الغضب ، وقال : " هذا مريع ! " وفوجئت بهذا الخرق لأتكيت البلاط ، ولكن الذى لفت انتباهى حقا هو ما قاله كايسومى بأن شكل " الدولة الجديدة " ما يزال قيد المداولة . وكان هذا غريبا جدا . ألم يقل دويهارا وشى تشيا انه ليست هنالك أية مشكلة وان كل ما يلزم بالنسبة لي هو أن آتى لارتقاء العرش ؟ ماذا قصد كايسومى عندما قال ان الامر ما يزال قيد المداولة ؟ وعندما سألت كايسومى هذا السؤال أجابنى اجابة غامضة :

ــ ان انجاز مشروع عظيم كهذا أسهل فى الكلام منه فى الفعل . تحلوا بالصبر يا جلالة الامبراطور ! عندما يحين الوقت سيدعى جلالتكم للتوجه .

فتدخل تشنغ تشوى قائلا :

ــ التوجه الى أين ؟ الى فنغتيان ؟

ــ ذلك يقرره العقيد اتاجاكى .

وتركتهما فى انفعال واستياء ، ودعوت تونغ جى شيوى لرؤيتى فى غرفة أخرى وسألته لماذا أرسل لي برقية من شنيانغ يقول فيها " كل شىء جاهز " . فأجاب تونغ بأن يوان جين كاى قد طلب منه ارسالها ولا يعرف شيئا عن ذلك . فسألت شانغ يان ينغ عن رأيه فى هذه المسألة . ولكنه عجز عن اعطائى جوابا معقولا ، وكم تمنى لو ظهرت له مائدة صلاته ، وعندها سيتمكن من

الحصول على توضيح من الآلهة .

لم أعرف فى ذلك الوقت ان اليابانيين كانوا فى حالة من الاضطراب المسبب لليأس . كانت اليابان معزولة دوليا وكان ما يزال فى داخلها اختلاف فى الآراء حول شكل الحكم الذى يجب ان تتخذه هذه المستعمرة الجديدة ، لذلك لم يستطع جيش قواندونغ ان يسمح لي بالظهور امام الناس . وكانت ردة الفعل الوحيدة عندى اننى فكرت بأن اليابانيين ليسوا متسمين بالاحترام فى تعاملهم معى كما كانوا فى تيانجين ، وان كايسومى يتصرف على نحو مختلف عما كان عليه عندما قابلته هناك .

وبعد أسبوع من الانتظار القلق تلقيت مكالمة هاتفية من اتاجاكى طلب منى فيها ان أنطلق الى ليوشون .

لماذا لم يتعين علي ان أذهب الى شنيانغ ؟ وضح كايسومى بابتسامة ان هذا سيحل عندما أتحدث مع اتاجاكى . لماذا أذهب الى ليوشون ؟ أجاب كايسومى باننى كنت فى تانغقانغتسى عرضة لخطر كبير من " قطاع الطرق " وان من الأفضل لي بكثير ان أذهب الى ليوشون حيث انها مدينة كبيرة وأكثر ملاءمة . وهذا بدا لي معقولا ، فأخذت قطارا وصل بى الى ليوشون صباح اليوم التالى .

وفى ليوشون أقمت فى فندق ياماتو اليابانى . وهنا ، كما فى الفندق السابق ، حجز لنا القسم العلوى من المبنى . وأبلغت بعدم النزول الى الأسفل . ولم يسمح للناس بالصعود الى الأعلى . وأخبرنى كايسومى وأماكناسوبأن المحادثات حول الدولة الجديدة مستمرة وانه لاحاجة لي الى التعجل ، حيث ان شخصا سيأتى ويدعونى الى شنيانغ فى الوقت المناسب . وبعد بضعة أيام منح تشنغ شياو شيوى وتشنغ تشوى نفس معاملة لوه تشن يوى ، وسمح لهما بالخروج بحرية ، بل أصبحا قادرين كذلك على الذهاب الى داليان . واختفت تعابير الاكتئاب من وجه تشنغ شياو شيوى ، وشرع يتحدث بنفس الطريقة مثل

لوه تشن يوى : " انه سيكون من المؤذى لهيبة جلالتكم السماوية ان تظهروا امام الناس الآن . اذا انتظرتم الى ان يرتب وزراؤكم كل شيء فمن ثم يمكن لجلالتكم ارتقاء العرش فى الوقت الملائم . " وقال ايضا انه يجب الا أقابل أحدا اذ ليس من الصواب ان اعلن عن حضورى قبل ان يسوى كل شيء ، وكان جيش قواندونغ هو مضيفى حينذاك، وكان علي ان أعتبر نفسى ضيفا عليه الى ان أرتقى العرش . وكان علي فى ذلك الوقت ان أفعل وفقا لما يراه مضيفى مناسبا . ولذلك لم يكن أمامى من خيار الا ان أكره نفسى على الانتظار ، على الرغم من اننى كنت ما أزال أشعر بعدم القدرة على التحمل .

وأضيف ان أولئك الناس الذين كانوا يخاطبوننى دائما بعبارة " جلالتكم " ويخدموننى باهتمام ملحوظ لم ينظروا الي على اننى سلطان حقيقى بل كأنى الملك المطبوع على ورق اللعب . فاليابانيون الذين كانوا تحت ضغط الدول الغربية والرأى العام الداخلى ارادوا الاحتفاظ بى فى جيوبهم ، الى ان يحين الوقت لاستعمالى . اما تشنغ شياو شيوى ولوه تشن يوى والآخرون فأرادنى كل منهم ايضا لنفسه لكى يضرب مناوئيه ويكون الوحيد الذى يتلقى المكافآت من اليابانيين . ولهذا السبب كنت معزولا . وعندما كنت فى تانغقانغتسى انتهز لوه تشن يوى فرصة القيود المفروضة من اليابانيين ليمنعنى من اجراء اى اتصال ، قاطعا بذلك صلتى مع تشنغ شياو شيوى من جهة وجيش قواندونغ من جهة ثانية . وبمجرد وصولنا الى ليوشون اصبح تشنغ شياو شيوى قادرا على انشاء صلاته مع اليابانيين منافسا بذلك لوه . ومن ثم اتحد الاثنان ليبعدا أى منافس ثالث فيما راحا يتصارعان على كسب ود اليابانيين .

لم أفهم هذا كله فى ذلك الوقت . وكل ما استطعت رؤيته هو أن لوه وتشنغ وابن تشنغ كانوا مع اليابانيين فى عزلي عن الخارج ، ولم يكونوا قلقين بخصوص تونغ جى شيوى او شانغ يان ينغ الذى لم يعرف الا اللجوء الى العرافة والدعاء من السماء ، ولكنهم اتخذوا أشد الاجراءات ازاء الناس الذين

جاءوا من تيانجين لرؤيتي ، بل كانوا كذلك أفظاظا مع زوجتي وان رونغ .
كنت قبل رحيلي من تيانجين قد تركت أمرا مع خادم ليسلمه الى هو سه يوان . وطلبت منه في هذا الأمر ان يتبعني الى الشمال الشرقي وأبلغت تشن تسنغ شو (ابن شقيق تشن باو تشن) ان يجلب وان رونغ الي . وعندما سمعوا انني في ليوشون ذهبوا الى داليان . فأخبرهم لوه تشن يوى ان جيش قواندونغ قد أصدر أوامر بعدم السماح لهم بالذهاب الى ليوشون . فشكت وان رونغ بهذا الأمر وظنت ان شيئا لابد ان يكون قد حدث لي ، لذلك بدأت تبكي وتصرخ . وبهذه الطريقة تمكنت من الحصول على اذن بالمجيء الى ليوشون لتراني في الحال . وبعد شهر تقريبا نقلني جيش قواندونغ الى منزل ابن الأمير السابق سو ، وعندها فقط سمح لوان رونغ وشقيقتي الثانية والثالثة بالاقامة معي في نفس المكان .

وأردت من تشن تسنغ شو وهو سه يوان ان ينتقلوا معي ، ولكن تشنغ شياو شيوى أخبرني بأن جيش قواندونغ قد أمر بأن لايراني أحد باستثنائه هو وابنه ولوه تشن يوى ووانغ شنغ شي . فطلبت منه ان يحاول تدبير الأمر مع أماكاسو وكايسومي . وكانت النتيجة الوحيدة ان سمح لهو سه يوان برؤيتي مرة واحدة بشرط ان يعود الى داليان في نفس اليوم .

وحالما رآني هو سه يوان بدأ يبكي ويقول انه لم يخطر في ذهنه قط ان يمنع من رؤيتي بعد هذه السنوات الطويلة من عمله في خدمتي . وبالرغم من شعوري انا بالوحشة والارتهاب فقد حاولت تعزيته قائلا بأنني عندما أصبح حر في تصرفي سأرسل أمرا بدعوته هو وتشن تسنغ شو الى جانبي . فوقف يبكي وأخبرني بالتفصيل كيف يقوم تشنغ شياو شيوى ولوه تشن يوى بوضع العراقيل أمامهم ويسعون وراء مطامحهم الخاصة ويحاولون اقصاء "المخلصين الصالحين".

ولم ينجح هو سه يوان وأصدقاؤه أبدا في التغلب على لوه تشن يوى وتشنغ شياو شيوى . وجاء تشن باو تشن الى ليوشون عندما كنت هناك حوالى شهرين ، ولكن تشنغ شياو شيوى الذى بز الجميع في كسب ود جيش قواندونغ عدا لوه.

تشن يوى ، لم يرد منافسا آخر أمامه ، فرتب الأمر لابعاده بعد يومين فقط .

خلال أسابيعى الأولى فى الشمال الشرقى خاض لوه تشن يوى وتشنغ شياو شيوى معركتهما الأخيرة وأخذ لوه تشن يوى بزمام المبادرة أولا ، ولكنه كان غبيا بما فيه الكفاية حين أصر على اعادة ملك تشينغ فى مفاوضاته مع اليابانيين الذين كانوا يعتقدون ان رأيه سيكون مربكا لهم من الناحية السياسية . وبعدما انتقلت أنا وتشنغ شياو شيوى الى ليوشون دهش لوه حين رأى جيش قواندونغ قد دعا تشنغ للاشتراك فى المحادثات ، فهو لم يعلم شيئا عن صلات تشنغ بالعسكريين اليابانيين فى طوكيو او صلته بكايسوى فى تيانجين . وكما كان تشنغ شياو شيوى قد تولى فى السابق الاشراف على صلة لوه تشن يوى بالعقيد تاكيموتو فى السنة التى تركت فيها المدينة المحرمة ، فانه قد كسب الآن صداقة كايسومى صديق لوه . وبعد بضع محادثات أجراها أماكاسو مع تشنغ شياو شيوى وابنه تشنغ تشوى أدرك انهما ألين بكثير من لوه تشن يوى الذى كان يريد باصرار استعادة جميع طقوس ومراسم امبراطورية تشينغ السابقة . ومع ان تشنغ شياو شيوى دهش فى البداية عندما سمع بأن جيش قواندونغ يريدنى ان أكون " رئيس جمهورية مانشوريا ومنغوليا " ، الا أنه سرعان ما اخذ يروج بأن اليابانيين لا يريدون امبراطورا ، واوضح انه باعتباره سيكون رئيس وزراء النظام الجديد سيعمل على ان أصبح انا رئيس الدولة .

بعد تأسيس " امبراطورية مانشوريا " لم يرض لوه تشن يوى بالمنصب الذى عرض عليه وعاد الى تجارة التحف ، بينما أصبح تشنغ شياو شيوى رئيس الوزارة العميل بدلا منه .

خيبة أمل

اجتاحتني نوبة قلق وانا فى ليوشون . فقد علمت من كايسومى وغيره من اليابانيين ان جيش قواندونغ لم يستقر بعد على شكل الدولة الجديدة . وكان ذلك أكثر ازعاجا لي من عدم استقبالى فى الميناء ، فقد كان بامكانى حينذاك تعزية نفسى بأن الاستعدادات لم تكتمل بعد او أن وصولي " لم يعلن عنه " . ولكن ماذا قصدوا عندما قالوا ان شكل الدولة لم يقرر بعد ؟ ولماذا اذن طلب مني دويهارا ان آتى الى الشمال الشرقى ؟

وأخبرنى تشنغ شياو شيوى وكايسومى ان دويهارا لم يكن كاذبا وان دعم جيش قواندونغ لاعادة الملكية ليس بهتانا ، ولكن لما كانت تلك مسألة مانشوية فقد تعين ان تناقش مع المانشويين ، وبالطبع فالمسألة " لا تقرر " الا بعد انتهاء المشاورات .

وفى ١٩ فبراير ١٩٣٢ جاء خبر بأن " اللجنة الادارية للشمال الشرقى " قد اتخذت قرارا باقامة جمهورية فى الشمال الشرقى . وكانت هذه اللجنة تتألف من عدد من الموظفين الكبار الموالين لليابانيين يتصدرهم تشانغ جينغ هوى ، وقد اصدرت :" بيان الاستقلال " فى نفس اليوم . وانتاب كل واحد فى حاشيتى احساس بالذعر والغضب ما عدا تشنغ شياو شيوى وابنه .

كنت أتميز غيظا وحقدا على دويهارا واتاجاكى وانا أندفع هنا وهناك كالمجنون فى البهووأطفىء السجاير من نصفها . وألقيت كتاب العرافة الذى كنت استخدمه على الأرض . وتذكرت فجأة حديقتى الهادئة ، ورأيت اننى ان لم أستطع ان أكون امبراطورا حقيقيا فسيكون من الأفضل لي بكثير ان أعيش حياة مريحة فى المنفى . فبوسعى ان أبيع بعض كنوزى وأمضى وقتا طيبا فى الخارج . وقررت اخطار جيش قواندونغ بأننى سأعود الى تيانجين اذا

لم يوافقوا على مطالبى . ولم يعارض لوه تشن يوى ولا تشنغ شياو شيوى هذه الفكرة عندما أخبرتهما بها . ووافقت على اقتراح لوه بضرورة ارسال هدية الى اتاجاكى وأعطيته بعض الأشياء الثمينة التى جلبتها معى ليأخذها اليه . وعندها اتصل اتاجاكى هاتفيا بنا وطلب من لوه وتشنغ ان يأتياه للتباحث . وطلبت انا من تشن تسنغ شو ان يحرر وثيقة بالأسباب التى تجعل " النظام الصحيح " (اعادة ملكية تشينغ) ضروريا ، وأعطيت الوثيقة كلا من تشنغ ولوه ليسلماها الى اتاجاكى ، بعد ان اكدت عليهما ان يتخذا موقفا ثابتا ويوضحا وجهة نظرى له .

وقد تضمنت الوثيقة اثنى عشر سببا ، أربعة منها أضافها تشن تسنغ شو :

١- ان الملكية هى النظام الصحيح حسب ناموس الاخلاق المقدسة لشرقى آسيا الذى يرجع الى خمسة آلاف سنة .

٢- ان اعادة النظام الصحيح هى اساس لتنفيذ الطريقة الملكية (٣٧) والمبادىء الخلقية .

٣- على المرء لكى يحكم الدولة ان يحوز ثقة الشعب واحترامه ، وهذا لايتم الا فى النظام الصحيح .

٤- ان الصين واليابان بلدان شقيقان ، ومن أجل بقائهما وصالحهما المشتركين يجب ان يحترما الأخلاق المقدسة منذ القدم ويؤكدا على ان للشعبين روحا متطابقة . ولضمان ذلك يجب اعادة الملكية .

٥- لقد عانت الصين من كوارث الديمقراطية لأكثر من عقدين ، وباستثناء أقلية أنانية فان الأكثرية العظيمة من أبناء الشعب يكرهون الجمهورية ويتشوقون الى أسرة تشينغ . ولهذا السبب يجب اعادة الملكية .

٦- ان الشعبين المانشوى والمغولى محافظان دائما على العادات القديمة ، فيجب اعادة الملكية اذا كنا نريد ولائهما وثقتهما .

٧- النظام الجمهورى واسع الانتشار الى حد كبير بينما عدد العاطلين عن العمل يزداد يوميا . وهذا يشكل تهديدا خطيرا للامبراطورية اليابانية ،

ولكن اذا أعيد النظام الامبراطورى فى الصين ، فهذا سيلعب دورا كبيرا فى الحفاظ على المؤهلات الثقافية والروحية لدى شعبى بلدينا ، ولهذا السبب يجب اعادة الملكية .

٨- ان لأسرة تشينغ العظيمة تاريخا الى ما قبل مائتى سنة فى الصين والى أكثر من قرن فى مانشوريا قبل ذلك . ولكى نراعى طريقة حياة الناس ونريح بالهم ، ونصون السلم فى جميع انحاء البلاد ، ونحافظ على الروح الشرقية ، وننفذ احياء الحكم الملوكى ، ونرسخ النظام الامبراطورى فى بلدينا ، يجب اعادة الملكية .

٩- ان نهوض اليابان يؤرخ ببدء الحكم الملكى للامبراطور ميجى . وأوامره الى وزرائه تدعو كلها الى التمسك بالأخلاق ، وتوصى بالولاء والاستقامة . وبينما العلم أخذ عن أوروبا وأمريكا ، فان الأخلاق اعتمدت على كونفوشيوس ومنشيوس . ولما كانت روح الشرق مصونة والشعب قد انقذ من عدوى السلوكيات الاوروبية المشينة ، فأبناء الشعب يحبون كبارهم ويوقرونهم ويحمون بلادهم كما تحمى يد المرء رأسه آليا . هذا هو قوله وهذا هو السبب فى احترامى له . فاذا اردنا اتباع خطوات الأمبراطور ميجى العظيم فيجب اعادة الملكية .

١٠- ان الأمراء المغول مستمرون فى استخدام ألقابهم السامية القديمة ، واذا ما ألغيت هذه الألقاب فى ظل حكومة جمهورية فان ذلك سيسبب لهم سخطا وخيبة أمل ، ولن يكون هناك سبيل لحكمهم . ولهذا السبب يجب اعادة الملكية .

١١- ان اليابان تستحق أشد اعجابنا للطريقة التى ساعدت بها المقاطعات الشرقية الثلاث (الشمال الشرقى) . وفكرت من خلالها بصالح الثلاثين مليونا من اهلها . ورغبتى هى اننا يجب ألا نحصر أنفسنا فى هذه الملايين الثلاثين من أبناء الشعب ، بل يجب ان نتخذ المقاطعات الشرقية الثلاث قاعدة ننطلق منها الى الوطن بكامله وننقذ الشعب من النكبات التى نزلت به . وهذا سيقود الى البقاء الطبيعى لشرقى آسيا وازدهارها . وتلك قضية تهم الملايين التسعين من أبناء الشعب اليابانى جميعا . ولذلك يجب ألا يكون هناك اختلاف بين النظامين

السياسيين لبلدينا . ولكن نحقق الرخاء لكلا البلدين فان اعادة الملكية لا غنى عنها .

١٢- منذ ان تقاعدت من منصبى عام ١٩١١ وانا أعيش بين الناس مدة تزيد عن عشرين عاما . ولم يكن عندى تفكير فى مجدى الشخصى ، بل كانت تحدونى دائما الرغبة فى انقاذ الشعب . فاذا كان هناك شخص آخر سيتولى مسؤولية البلاد ويضع حدا للويلات بسلوك الطريق الصحيح ، فسأكون سعيدا بان أبقى شخصا عاديا . واذا أنا أجبرت على استئناف حمل هذا العبء ، فان رأيى الشخصى انه بغير اللقب الصحيح والسلطة الحقيقية لتعيين الموظفين وادارة البلاد لن أكون قادرا على وضع حد لعشرين سنة من سوء الحكم . أما اذا كنت مجرد حاكم بالاسم ومكبلا بالقيود فلن يكون بوسعى تقديم اية مساعدة للشعب بل سأزيد حالته سوءا . وهذه لن تكون نيتى الأصلية ، بل ستزيد شعورى بالاثم ، اننى لأرفض رفضا تاما ان أتحمل مسؤولية ذلك . ولو اننى كنت مهتما بمجدى الشخصى فقط ، لأصبحت مسرورا جدا بأن أمنح الأرض والشعب بعد عقدين من العيش مغمورا . ماذا يعنينى اذا انا أصبحت رئيسا او سلطانا ؟ ان هذا ليس الا من أجل الشعب والدولة وبلدينا الصين واليابان ومن أجل شرقى آسيا كله ، وليس من أجل أدنى مصلحة ذاتية ، لذلك أصر على ان اعادة الملكية لاغنى عنها .

ولكن على الرغم من ان تشنغ شياو شيوى وافق على آرائى ووعدنى بنقلها الى اتاجاكى ، الا انه لم يقدمها قط . بل وقد وافق بدلا من ذلك على الاقتراح اليابانى بأن تكون الدولة الجديدة جمهورية ، وتعهد باقناعى بأن أصبح " رئيسها التنفيذى " . وأخبرت بأكثر من ذلك فيما بعد ، بأنه قال لاتاجاكى : " ان جلالته مثل قرطاس أبيض يمكن لجيشكم ان يرسم عليه ما يشاء " . ولما كنت لا أعرف حينذاك انه قال ذلك ، فقد غضبت منه ومن الآخرين أشد الغضب لأنهم سمحوا لأنفسهم بأن تنطلى عليهم خدعة اليابانيين . وحاول تشنغ شياو شيوى تهدئتى باستشهاده بسوابق تاريخية وباخبارى بأن

آمالى فى اعادة الملكية سوف تتلاشى اذا انا لم أساير اليابانيين الآن . وعندما لم ينفع ذلك معى قال لي ان بوسعى ان أتكلم بنيتى مع اتاجاكى حيث انه يريد ان يرانى عصر ذلك اليوم . فأجبته فى غضب :

ـ دعه يحضر .

لقاء اتاجاكى

قابلت اتاجاكى سايشيرو (٣٨) بعد عصر يوم ٢٣ فبراير ١٩٣٢ بحضور مترجم من جيش قواندونغ . كان اصلع قصيرا . بوجه حليق بادى الشحوب متباين مع سواد حاجبيه وشاربيه الصغير . وكان من أكثر الضباط اليابانيين الذين رأيتهم أناقة : طرفا كمي قميصه ناصعا البياض ، وثنية الكى فى بنطالة كأنها السكين . وكانت أناقته هذه مع عادته فى فرك يديه برقة توحى بأنه مهذب ودمث .

شكرنى أولا على الهدايا التى أرسلتها اليه ، ثم مضى يقول انه جاء بناء على أوامر الجنرال هونجو ، قائد جيش قواندونغ ، ليبلغنى بقضية " تأسيس دولة مانشوريا الجديدة " . وبدأ بالحديث عن " اخفاق حكومة تشانغ شيويه ليانغ المستبدة فى كسب ثقة الشعب وعن الغياب التام لأية ضمانات لمصالح اليابان فى الشمال الشرقى " . وتابع يتحدث بتفصيل عن " عدالة " نشاطات الجيش اليابانى وعن " اخلاصه فى مساعدة الشعب المانشوى على تأسيس فردوس وفقا للطريقة الملكية " . وكنت ، فيما هو يتحدث ، أهز رأسى بالموافقة آملا أن يقول لي بسرعة ويجيب عن السؤالى الذى كنت مهتما به حقا . وأخيرا وصل الى الموضوع الرئيسى .

ـ ستدعى الدولة الجديدة مانتشوقوه (دولة مانشوريا) ، وعاصمتها ستكون تشانغتشون التى ستعطى اسما جديدا ، شينجينغ (العاصمة الجديدة) ،

وستكون مؤلفة من خمسة اقوام : المانشو ، الهان ، المغول ، اليابانيين والكوريين .
ونظرا الى جهود اليابانيين فى مانشوريا خلال عقود كثيرة فان وضعهم القانونى والسياسى سيكون بالطبع مثل الاقوام الأخرى ، فهم مثلا سيتمتعون بنفس الحقوق التى يتمتع بها الآخرون فى الحصول على مناصب فى هذه الدولة الجديدة .

ومن غير ان ينتظر المترجم حتى ينهى ترجمته أخرج من محفظته « بيان استقلال الشعب المانشوى والمنغولى » و" علم مانتشوقوه " المكون من خمسة ألوان ، ووضعهما على الطاولة امامى . وكدت عندها أنفجر غضبا ، فأزحت هذه الأشياء جانبا بيد مرتجفة وسألته :

ــ ما نوع هذه الدولة ؟ انها بالتأكيد ليست امبراطورية أسرة تشينغ العظيمة !

فأجاب اتاجاكى فى عدم ارتباك كالمعتاد :

ــ بالطبع هذه لن تكون اعادة لامبراطورية اسرة تشينغ العظيمة . هذه ستكون دولة جديدة ، فاللجنة الادارية للشمال الشرقى قد أصدرت قرارا اجماعيا بالمناداة بسعادتكم رئيسا للدولة . وستكونون " الرئيس التنفيذى " .

وجعلت عبارة " سعادتكم " الدم ينفر الى وجهى . اننى لم أخاطب قط قبل ذلك على هذا النحو من اليابانيين ، ولم أكن مستعدا للتساهل بالغاء لقبى الامبراطورى ، ولا بابدال الشمال الشرقى بمليونى لى مربع وثلاثين مليون نسمة . وكنت من الاهتياج بحيث لم أستطع ان اتماسك فى مقعدي . وقلت له بصوت عال :

ــ اذا كانت الاسماء غير صحيحة كان الكلام غير مرتب ، واذا لم يكن الكلام مرتبا فلن يتم انجاز أى شيء ! ان ابناء مانشوريا لا يشتاقون الي شخصيا بل الى امبراطور اسرة تشينغ العظيمة . فاذا انتم ألغيتم مثل هذا اللقب ، فسنخسر ولاءهم . فينبغى لي ان أطلب من جيش قواندونغ ان يأخذ هذا بعين الاعتبار .

ففرك اتاجاكى يده برقة وقال ، وقد علت وجهه الابتسامات :

– ان ابناء مانشوريا قد عبروا عن رغبتهم فى ترشيح سعادتكم رئيسا للدولة الجديدة ، وهذا يدل على ولائهم لكم بينما وافق جيش قواندونغ تمام الموافقة على رغبتهم .

– ان فى اليابان نظاما امبراطوريا ، فكيف يمكن لجيش قواندونغ ان يوافق على تأسيس جمهورية ؟

– اذا كان سعادتكم لا يرغب فى كلمة " جمهورية " ، فاننا لن نستخدمها . وهذه ستكون دولة قائمة على النظام التنفيذى .

– اننى ممتن غاية الامتنان لكل ما قدمته دولتكم من مساعدة متحمسة ، ولكننى لا أستطيع الموافقة على هذا " النظام التنفيذى " . لقد ورثت اللقب الامبراطورى عن أسلافى ، واذا انا تخليت عنه فسأكون بذلك مفتقرا الى الولاء والبر .

فبدا اتاجاكى كأنه تفهم الأمر جيدا ، فقال :

– ان منصب رئيس تنفيذى سيكون موقتا فقط . انه لمن المعروف تماما ان جلالتكم هو الامبراطور الثانى عشر لأسرة تشينغ العظيمة ، واننى متأكد من انه بعد تشكيل مجلس وطنى سيشرع دستور لاعادة النظام الامبراطورى .

أغضبتنى عبارة " مجلس وطنى " مرة ثانية ، فقلت هازا رأسى مؤكدا :

– ليست هناك مجالس وطنية جيدة ، ان امبراطور أسرة تشينغ العظيمة الأول لم يحصل على لقبه من أى مجلس وطنى .

واستمر النقاش أكثر من ثلاث ساعات دون ان نصل الى اتفاق . وأخيرا تناول اتاجاكى الذى ظل طوال المناقشة مبتسما ، حقيبته مشيرا بذلك الى انه لم يعد يرغب فى استمرار النقاش . واختفت الابتسامة من وجهه الذى أصبح الآن أكثر شحوبا من السابق ، وخاطبنى بـ" سعادتكم " بدلا من " جلالتكم " :

— ينبغي لسعادتكم ان يفكر فى ذلك بعناية . وسنستأنف نقاشنا غدا .

وبهذه العبارة الباردة تركنى وانصرف .

فى ذلك المساء أقمت مأدبة لاتاجاكى لان تشنغ شياو شيوى حذرنى من خطورة جعل العلاقة باليابانيين سيئة ، مذكرا اياى بمصير تشانغ تسوه لين . ومرت المأدبة بهدوء ، وتجنب اتاجاكى بحذر موضوع نقاش النهار .

وفى الصباح التالى استدعى اتاجاكى كلا من تشنغ شياو شيوى ولوه تشن يوى وغيرهما من مرشدى الى فندق ياماتو وطلب منهم ان يعطونى قراره النهائى :

— ان مطالب الجيش لا يمكن تغييرها نهائيا . اننا سنعتبر رفضهم دليلا على موقف معادى ونتصرف وفقا له . وهذه هى كلمتنا الأخيرة !

ولسعنى هذا الجواب . وخارت القوة فى ساقي ، وتهالكت فى اريكتى فى صمت .

وبينما كان لوه تشن يوى والآخرون صامتين حثنى تشنغ تشوى على قبول الاقتراحات اليابانية . وأيده أبوه قائلا فى صوت متهيج :

— ان اليابانيين يفعلون دائما ما يقولون فعلينا ألا نلقى بأنفسنا فى المهالك . وهم اضافة الى ذلك متعاطفون معكم وسيسمحون لجلالتكم بأن تكونوا رئيس الدولة ، وهى نفس مرتبة الأمبراطور . لقد حصلنا على فرصة اليوم بشق الانفس وهى سبب خدمتى لجلالتكم كل هذه السنوات . فاذا أصر جلالتكم على الرفض فسأضطر الى حزم أمتعتى وأعود الى بيتى .

وجعلنى هذا التهديد أشعر باليأس . ثم أضاف تشنغ تشوى يقول :

— اذا وافق جلالتكم على مطالب الجيش اليابانى ، فسيكون فى وسعكم تقوية مركزكم فى المستقبل ، وسنكون قادرين على ان نتصرف بالطريقة التى نريدها .

وقال لوه تشن يوى فى حزن ويأس :

– مع ان المرء يمكن ان يتأسف للوضع الحاضر ، الا انه ليس أمامنا ما نستطيع فعله . ان السبيل الوحيد امامنا هي ان نعطى مهلة سنة ، فاذا لم تتم اعادة النظام الامبراطورى ، فبوسع جلالتكم عند ذلك ان تستقيلوا . دعنا ننظر الى ردة فعل اتاجاكى ازاء ذلك .

ولما رأيت ان لا مخرج أمامنا تنهدت ، ثم أرسلت تشنغ شياو شيوى ليرى ان كان اتاجاكى سيوافق على ذلك .

وعاد تشنغ حالا منشرحا ، وقال ان اتاجاكى قد وافق وانه سيقيم " مأدبة متواضعة للرئيس التنفيذى القادم " هذا المساء .

وهكذا أصبحت ، انا أرتجف خوفا وأحلم باعادة سلطانى ، خائنا مكشوفا دون شعور بالخجل وغطاء لنظام دموى حول قسما كبيرا من بلادي الى مستعمرة وانزل المآسى الشديدة بثلاثين مليونا من المواطنين . كما أرسيت الأسس لصعود هونجو واتاجاكى وغيرهم من اليابانيين حيث بين تشنغ شياو شيوى فى يومياته ان مساعيهم كانت ستخيب لواننى رفضت التعاون .

ملاحظات

(١) حكمت من (١٦٤٤-١٩١١) ، وهى أسرة أسستها قبيلة آيشين - جيولوه ، من قومية المانشو ، جاءت من شمال شرقى الصين .

(٢) من عام ١٨٥٦ الى ١٨٦٠ شنت بريطانيا وفرنسا عدوانا مشتركا على الصين . وكانت حكومة تشينغ آنذاك متوجهة بكل طاقتها لقمع ثورة التايبينغ الفلاحية فلم يسعها التصدى الحازم للمعتدين الأجانب ، مما عرض الصين لهزيمة شنيعة .

(٣) حركة يى خه توان (رابطة التعاون على البر) انتفاضة شعبية قامت ضد المستعمرين الأجانب عرفت عند الكتاب الغربيين باسم " حركة الملاكمين " على سبيل الثلب لها - المترجم .

(٤) فى ١٠ اكتوبر من تلك السنة قام قسم من الجيش الجديد بدفع من المنظمات الثورية للبرجوازية والبرجوازية الصغيرة بانتفاضة فى ووتشانغ . وقد أتبعت هذه الانتفاضة بانتفاضات أخرى فى غيرها من المقاطعات ، مما عجل فى انهيار أسرة تشينغ .

(٥) الانتفاضة التى فجرت ثورة ١٩١١ .

(٦) يضع الصينيون لتأبين المتوفى قبل دفنه لوحة مكتوب عليها اسمه تحاط بالقرابين والمباخر ويأتى المعزون لينحنوا أمامها - المترجم .

(٧) الكانغ : دكة للجلوس والنوم مبنية بالآجر ويمكن تدفئتها بوضع مجمرة فى اسفلها ، شائعة جدا فى شمالى الصين .

(٨) أصبح وانغ جينغ وى فيما بعد قائدا كومينتانغيا سيء السمعة وعميلا لليابانيين . فقد استسلم علانية للغزاة اليابانيين فى ديسمبر ١٩٣٨ عندما كان نائب رئيس الكومينتانغ ورئيس المجلس الاستشارى السياسى الشعبى . وفى آذار ١٩٤٠ اصبح رئيسا

للحكومة المركزية العميلة التى تشكلت حينذاك فى نانجينغ . ومات فى اليابان فى نوفمبر ١٩٤٤ .

(٩) الزوجتان الأرملتان من الدرجة الأولى ، أرملتا الامبراطورين تونغ تشى وقونغ شيوى .

(١٠) اطباق الموقد (هوه قوه) اطباق مزودة بموقد تقدم ضمن الوجبات ، وهى عادة مغولية الإصل—المترجم .

(١١) حرفيا " عشرة آلاف سنة " ، ويشار بها فى الصين الى العمر المديد او الشيء اللامحدود — المترجم .

(١٢) جين : يعادل نصف كيلوغرام—المترجم .

(١٣) " اسم الحليب " هو اسم الدلال فى الطفولة .

(١٤) مقتبس من المؤلف الكلاسيكى القديم « كتاب التغيرات » .

(١٥) الماجيانغ : لعبة صينية—المترجم .

(١٦) اللامات جمع لاما اسم يطلق على أعضاء الاكليروس فى طائفة اللاما البوذية—المترجم .

(١٧) ان حركة اعادة الملكية لم تنته على وجه التحديد حينذاك لان بعض الناس عمل من اجل تأسيس " حكم تشينغ اللاحق " بعد الغزو اليابانى لشمالى الصين . ولكن نظرا لعدم موافقة سادتهم اليابانيين فقد ذهبت جهودهم عبثا .

(١٨) كان غودناو استاذا فى جامعة كولومبيا فى أمريكا . ومقالته هذه التى عنونها " حول الجمهورية والملكية " وضعت الأساس النظرى لملوكية يوان شى كاى بالتأكيد على سخافات مثل " ان الملكية أكثر ملاءمة للصين من الجمهورية " .

(١٩) تسنغ قوه فان (١٨١١—١٨٧٢) ، مالك أرض هانى وبيروقراطى من هونان ، لعب دورا رئيسيا فى قمع ثورة مملكة تايبينغ السماوية ، مشاركا بذلك فى انقاذ أسرة تشينغ من دمار محتوم .

(٢٠) يقصد انهم لبسوا ملابس بلاط تشينغ التى جعلتهم يشبهون تماثيل وصور اسلاف .

(٢١) زفاف .

(٢٢) لقب " هو " فى اللغة الصينية يلفظ كما تلفظ كلمة " قرد " .

(٢٣) يشير المؤلف هنا الى ان جونستون كان ينطق بالفصحى الصينية التى يتعلمها الأجانب فى العادة وهو السبب فى سهولة فهمه له خلافا للمعلمين الصينيين الناطقين بلهجاتهم المحلية — المترجم .

(٢٤) كانت القطارات خلال الحروب الأهلية محتجزة غالبا لأمراء الحرب ، لذلك كانت الخدمة بين بكين وتيانجين فى فوضى شديدة . وتلبية لمطلب المفوضيات الأجنبية نظم " قطار دولى " ، كان فى مأمن من تدخل الاطراف المتحاربة .

(٢٥) كان شارع تشانغآن هذا خارج حى المفوضيات ، اى انه ليس تحت السيطرة الأجنبية . وهذا الشارع الذى يعنى اسمه " السلام الدائم " هو الشارع الرئيسى لمدينة بكين .

(٢٦) وفقا للتقويم الغربى يكون عيد ميلادى التاسع عشر .

(٢٧) المو وحدة مساحة صينية تعادل ٠٦٦ر٠ هكتار—المترجم .

(٢٨) مجموعة ضخمة من الكتب ألفت بناء على أوامر من الامبراطور تشيان لونغ .

(٢٩) تشو قه ليانغ (١٨١–٢٣٤) ، من شخصيات عصر الممالك الثلاث كان نمودجا يحتذى فى السياسة والمهارة العسكرية .

(٣٠) فى ١٨ سبتمبر ١٩٣١ شن الامبرياليون اليابانيون غزوا واسع لنطاق لشمال شرقى الصين .

(٣١) يمكن للصينيين واليابانيين ان يتفاهموا بالكتابة ، لان معانى الكلمات المكتوبة متماثلة فى اللغتين والاختلاف بينهما هو فى التلفظ .

(٣٢) من بين هؤلاء : فيومايرو وأوجاكى كاتسو شيج ويوناى ميتسوماسا وهيرانوما كتيشيرو وسوتسوكى كانتارو وبينامى جيرو ويوشيدا شيجرو .

(٣٣) يقصد نفسه وكان الصينيون حتى العصر الحديث يؤرخون بعهد الامبراطور القائم — المترجم .

(٣٤) فى الايام الأخيرة لهذا النادى سمح لقليل من الرأسماليين الكومبرادوريين الصينيين بدخوله اذا صحبهم أعضاء أجانب . وقد حول هذا المكان بعد التحرير

الى نادى شعبى .

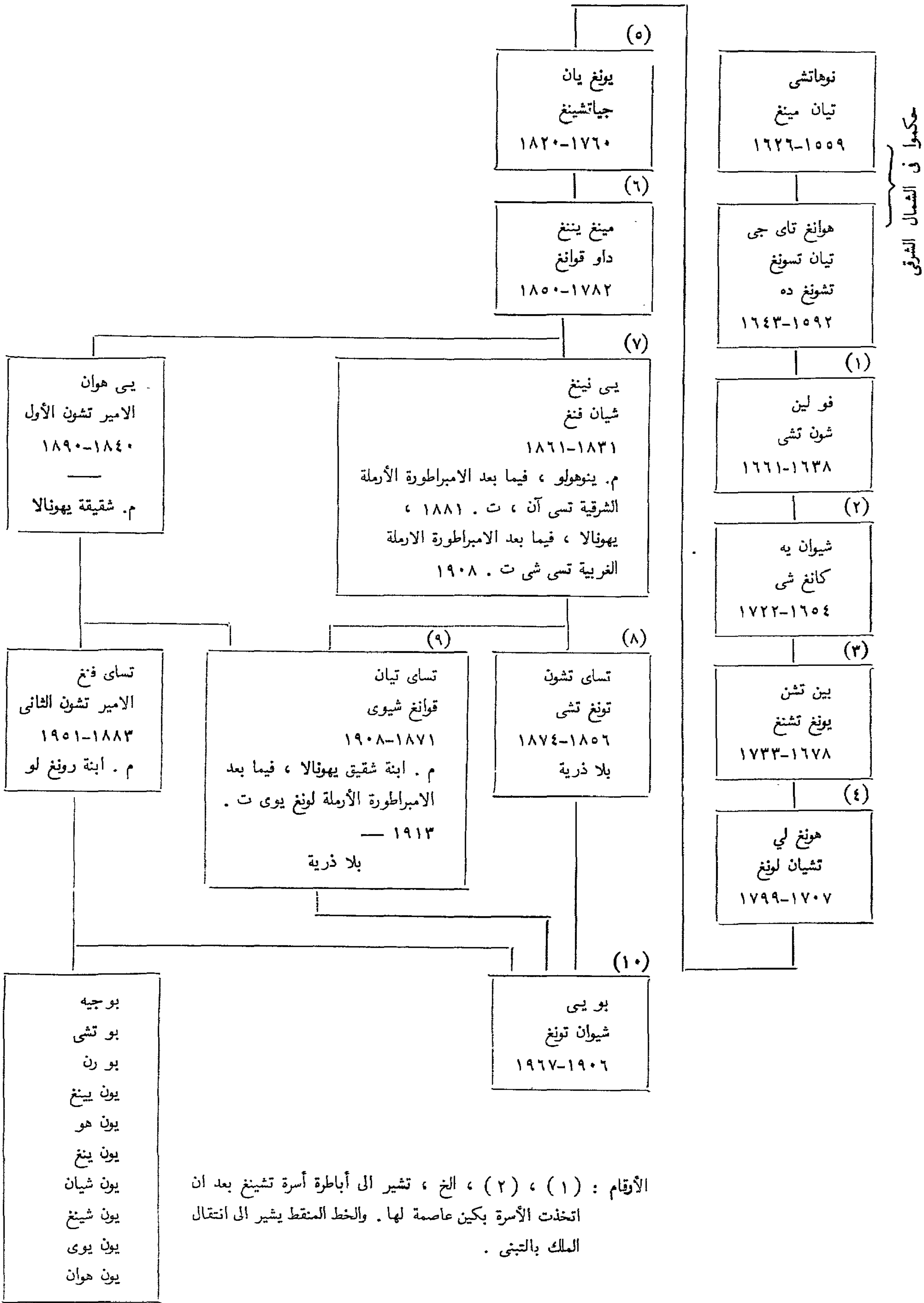
(٣٥) التاسع عشر وفقا للتقويم الميلادى .

(٣٦) قو جيان هو ملك دولة يوه فى حقبة الربيع والخريف هزم هزيمة منكرة على يد دولة وو المجاورة ، وكان له وزير كفوء يدعى فان لي عضده فى محنته ودبر له من الخطط ما مكنه من الانتقام لهزيمته وتحطيم دولة وو .

(٣٧) " الطريقة الملكية " اصطلاح كونفوشيوسى يشير الى حكم البلاد بالاحسان والاستقامة تبعا للسياسات الكونفوشية المرتبطة بأخلاقيات النظام الاقطاعى .

(٣٨) أصبح اتاجاكى سايشيرو رئيس أركان جيش قواندونغ منذ عام ١٩٢٩ ، وكان واحدا من المدبرين الرئيسيين لحادثة ١٨ سبتمبر ولاقامة دولة عميلة لليابانيين فى الشمال الشرقى بعد ذلك . وقد لعب فيما بعد دورا قياديا قذرا فى أحداث أخرى مثل الغزو اليابانى لبقية الصين واقامة الأنظمة العميلة الصينية الأخرى والهجوم على الاتحاد السوفياتى عند بحيرة قازان .

شجرة بيت تشينغ



الأرقام : (١) ، (٢) ، الخ ، تشير الى أباطرة أسرة تشينغ بعد ان اتخذت الأسرة بكين عاصمة لها . والخط المنقط يشير الى انتقال الملك بالتبنى .

مطبعة اللغات الأجنبية بكين
توزيع
الشركة الصينية العالمية لتجارة الكتب
(كوزى شوديان)
ص.ب ٣٩٩ بكين - الصين

从皇帝到公民
——我的前半生——
上 册
爱新觉罗·溥仪著
阿卜杜·卡里姆译
*
外文出版社出版
（中国北京百万庄路24号）
外文印刷厂印刷
中国国际图书贸易总公司
（中国国际书店）发行
北京399信箱
1985年（大32开）第一版
编号：（阿）11050—173A
00415
11—A—619PA

دار النشر باللغات الاجنبية بكين

صدر منها :

قصص لوشيون المختارة

ديدان القز الربيعية وقصص اخرى

طلوع الشمس

عاصفة رعدية

الاسرة

الغانية وصندوق المجوهرات

الخنجر السحرى

